الجزء الثالث المجلد التاسع والثمانون

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

«مجلّة المجمع العلميّ العربيّ سابقًا»

مجلّة محكّمة فصليّة

رمضان ١٤٣٧هـ

تموز ٢٠١٦م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلَّة المجمع العِلميِّ العَربيِّ سابقًا »

أُنشئَت سنة ١٣٣٩هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمود السيِّد «رئيس التحرير»

الدكتور مكي الحسني الجزائري — الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة «المقرر» — الدكتور أنور الخطيب

الدكتور محمد محفِّل — الدكتورة لبانة مشوح

الدكتور هاني رزق

أمينة المجلة: ريم الملَّاح

أغراض المجلة وشروط النشر فيها:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة:

١- أن يُرفق الكاتب بحثَه بالسيرة الذاتيةوالعنوان البريدي والإلكتروني، مع تعهد بأن البحث غير مستلٍّ من أطروحة جامعية، ولم يُنشر، ولم يُرْسَل إلى جهة أخرى حين إرساله إلى مجلة المجمع.

٢- يجب ألَّا يقلَّ البحث عن عشر صفحات وألَّا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٨٠٠٠ كلمة)، وأن يتضمن جديداً في موضوعه بيِّن الأصالة. أما المقالات والتعريف بالكتب فيُقبَل منها مايقلُّ عن عشر صفحات.

٣- يرجى من الباحث إعداد ملخص لبحثه بالعربية يُطبع في بدايته (abstract)، يشير بوضوح إلى الجديد في البحث، وأبرزِ نتائجه.

٤- ترحّب المجلة بأن يُعدَّ الباحث – إذا رغب في ذلك – ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.

٥- أن يخلو البحثُ من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.

٦- يجب أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (Mylotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦) وأن تشفع بقرص مدمج مسجلٍ عليه العنوان، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.

٧- يجب أن يلتزم الباحث المنهجَ العلميَّ في التوثيق فتُعطى الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي: «اسم المؤلف أو الكاتب – اسم الكتاب أو المجلة – رقم الصفحة»، وفي المصادر والمراجع يكتب: «اسم الكتاب – اسم المؤلف – اسم دار النشر ومكانها – رقم الطبعة وتاريخها».

٨- تُوضع الكلمات العربية أو المُعرَّبة قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو:

تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

٩- من الضروري أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة الفاصلة، إلخ...

١٠- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السِّرّي.

١١- تُرتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.

١٢- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردُّ إلى أصحابها.

١٣ – ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي:

دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: E – mail :mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشابكة (الإنترنيت):

www.arbacademy.gov.sy

بعد صدروها بمدة مناسبة.

* * *

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التاسع والثمانين

البحوث والدراسات

- طبيعة العصر وتعليم اللغة — د. محمود السيد — ٦٤١
- اجتهادات في الدرس الصرفي
  والدلالي تكملة مادة لغوية (١)
  زامَن وتزامَن وزمَّن وتَزَمَّن — د. ممدوح خسارة — ٦٦٥
- صوت الصدر بين الهمس والجهر — د. أحمد قدور — ٦٨١
- الحد النحوي بين ابني الحاجب ويعيش
  في شرحيهما للمفصل — د. إبراهيم عبد الله — ٦٩٩

التعريف والنقد

- ليلى الصباغ وكتابها «الجاليات الأوربية
  في بلاد الشام في العصر العثماني» — د.عبد النبي اصطيف — ٧٣١
- نظرات في بعض قرارات مجمع اللغة العربية
  في الألفاظ والأساليب (تتمة) — د.عبد الناصر عساف — ٧٣٧
- ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر
  في كتاب سيبويه — د. عبد الإله نبهان — ٧٦٧

المقالات والآراء

- حذف ياء المتكلم وثلاثِ ياءات أُخَر د.مكي الحسني ٧٧٧
- عهد طاهر بن الحسين لابنه
عبد الله بن طاهر د. عيسى العاكوب ٧٨٣
- المعجم التاريخي للاصطلاحات الطبية
(البردة-التحجر-الشعيرة) نشأت الحمارنة واكتمال رجب ٧٩٧

المحاضرات والمدارسات

- العلاقة التبادلية بين علوم الطبيعة واللغة هاني خليل رزق ٨٢١
- قصة نبات العرباني (أرابيدوبسيس) نموذجاً د. أنور الخطيب ٨٣٣

أنباء مجمعية وثقافية

- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب
من (٨٧ - ٩٢) ٨٤٩
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة
المجمع في الربع الثالث من عام ٢٠١٦ م ٨٥٩

❊ ❊ ❊

البحوث والدراسات

طبيعة العصر وتعليم اللغة

أ. د. محمود السيد(*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نلقي الضوء على بعض من سمات العصر الحاضر، وأن نقف على عدد من المزايا التي وفّرها للارتقاء بواقع تعليم اللغة، وأن نبين سبل هذا التعليم في عدد من الوسائل.

أولاً– من سمات العصر الحاضر

طالما أشار الباحثون إلى طبيعة العصر الحاضر، وعدّدوا سماته وخصائصه، ومن هذه السمات أنه عصر العلوم والتقانة (التكنولوجيا)، والتقانة هي الجانب التطبيقي للعلم، وهو عصر الاتصالات السريعة، والانتشار الثقافي الخاطف، وعصر التغيرات السريعة والتبدلات المفاجئة، وغزو الفضاء، وسبر أغوار المحيطات، واستخدام الإلكترونيات...إلخ.

ومفتاح الحضارة الحديثة التعدّد والتّنوّع والمرونة والقدرة على التركيب، والعقل البشري هو العنصر الحاكم في ثورة الإلكترون والمعلوماتية والشابكة (الإنترنت) بعد أن كان التجار ورأس المال يحكمون الثورة الصناعية الأولى، وبعد أن كانت الطاقة والإدارة الحديثة حاكمي الثورة الصناعية الثانية.

ومن خصائص هذا العصر سرعة التدفق المعرفي، وسيرورة قيم

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

الاستهلاك، وانحسار القيم المعنوية، وهيمنة الأقوياء على الضعفاء، وازدواج المعايير في النظر إلى القضايا العالمية في ظل عولمة اختلفت النظرة إليها، فمن واجد فيها جوانب مضيئة، ومن واجد فيها جوانب مظلمة.

أما الذين يرون أن في العولمة جوانب مضيئة فينطلقون في رؤيتهم من أن العولمة هي العملية التي يجري بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب، وتنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئة إلى حالة الاقتراب والتوحّد، ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، بحيث يكون ثمة وعي عالمي وقيم موحدة تقوم على مواثيق إنسانية عامة[١].

وهناك آثار إيجابية للعولمة في لغتنا العربية كما يرى هؤلاء، إذ إن العولمة وفّرت للنظام التعليمي التعامل مع وسائل التقانة الحديثة، وحافظت الثورة التقانية على كتب التراث العربي، وأسهمت في التبادل الثقافي والاجتماعي والعلمي والإعلامي، ويسّرت تعلم اللغات الأجنبية، والترجمة من العربية وإليها، فأغنت العربية بكثير من المصطلحات الجديدة، ومنحت العربية تنوّعاً في الأساليب والتراكيب المعاصرة، ومشاهدة الأفلام المترجمة، وكان للترجمة الإلكترونية دور كبير في إغناء اللغة العربية.

وفي ظل العولمة أيضاً كما يرى هؤلاء، اعتمد الإعلام في كثير من برامجه اللغة العربية الفصيحة، فهي في نشرات الأخبار والمسلسلات التاريخية والأحاديث الدينية، والبرامج الثقافية...إلخ، وهي على الشابكة (الإنترنت)، وإن كان المحتوى الرقمي بالعربية مازال محدوداً. كما أنَّ اللغة

(١) حجازي أحمد مجدي- العولمة وآليات التهميش في الثقافة العربية- بحث ألقي في مؤتمر جامعة فيلادلفيا في الأردن عام ١٩٩٨ ص٢٨.

العربية اعتُمدت في الأمم المتحدة والمنظمات العالمية الدولية على أنها من اللغات الست المعتمدة فيها على الصعيد العالمي.

ومن الملاحظ أيضاً أن ثمة توسّعاً في تعليم العربية لغير أبنائها، وأن ثمة فضولاً من الغرب وأمريكا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول نحو تعرّف العرب ولغتهم ومناحي تفكيرهم.

وأما الذين لا يرون في العولمة إلا الجانب المظلم فينطلقون في رؤيتهم من أن العولمة مكَّنت الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللا إنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحرية السوق على حدّ تعبير (روجيه جارودي)[٢].

وثمة من يرى أن العولمة اللغوية هي من أخطر أنواع العولمة لأنها تؤدي إلى هيمنة اللغة الإنجليزية والثقافة الأمريكية على غيرها من اللغات والثقافات، وهذا يؤثر في السلوك والتربية والتفكير، فقد أدت سيادة اللغة الإنجليزية في التعليم والعمل ووسائل التقنية الحديثة والإعلام والاتصالات إلى تهميش اللغة العربية وطمس مظاهر الانتماء والاعتزاز بالعربية وتراثها وتاريخها مادام تعلم اللغات الأجنبية كان لمصلحتها وعلى حساب استبعاد العربية، كما أن الأبحاث العلمية نُشرت بالإنجليزية لأن المجلات العربية غير مسجلة في فهارس المؤسسات العلمية كما يرى هؤلاء.

ومن الملاحظ أيضاً انحسار الفصحى من وسائل الإعلام بسبب زحف اللهجات المحلية والهجين اللغوي والنظرة الفوقية للمؤهلين باللغة الأجنبية تجاه المؤهلين بالعربية والقائمين على تدريسها. وثمة تشجيع

(٢) روجيه جارودي- العولمة المزعومة: الواقع والجذور والبدائل- تعريب محمد السبيطلي- دار السواقي للنشر والتوزيع- صنعاء ١٩٨٩ ص١٧.

للدعوة إلى العامية من بعض من بيدهم القرار في الإعلام، وغض الطرف عن انتشار الألفاظ الأجنبية واستعمالها في التداول اليومي المنطوق والمكتوب، وانتشار الدردشة والعربيزي في مراكز التواصل الاجتماعي ووسائله.

ومن مظاهر انحسار الفصيحة لمصلحة اللهجات العامية ما يلاحظ في مناقشات رسائل الماجستير والدكتوراه في الكليات الجامعية وحتى في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وما نسمعه من صيحات من حين لآخر تدعو إلى تعليم المواد العلمية والتطبيقية باللغة الأجنبية على أنها اللغة الكونية، في حين أن ثمة قصوراً وجموداً وتحجراً في العربية على حدّ زعمهم، كما أن ثمة خروجاً عن المألوف لدى أرباب الحداثة في ظل العولمة[٣].

ويضاف إلى ذلك كله مسألة تهميش العربية في التوظيف وسوق العمل، إذ إن المسابقات التي تُعلن بغرض التوظيف تنص على نجاح الممتحنين باللغة الأجنبية والمعلوماتية، وليس ثمة نص على النجاح باللغة العربية لأبناء العربية. وهذا أدى إلى خلخلة الانتماء واهتزاز البنيان الاجتماعي وكراهية اللغة الأم والتوجه نحو إتقان اللغة الأجنبية وإهمال العربية.

ولا يمكننا أن ننسى خطر العمالة الأجنبية على الأرض العربية من حيث كثرة المفردات الوافدة والأخطاء الفاحشة في تركيب الكلام وصوغ الجمل، وإفساد الذائقة العربية وجمال اللغة، وعلى أيدي العاملات الأجنبيات ينشأ أطفال بعض الأسر في دول الخليج العربي.

ثانياً- تعليم اللغة في عصرنا الحالي

انتقل تعليم اللغة في عصرنا الحاضر من التلقين والتحفيظ والتسميع إلى

(٣) الدكتور سام مبارك القلق- التحديات التي تواجه العربية- المؤتمر الخامس للمجلس الدولي للغة العربية- دبي- ٢٠١٦.

التمهير، وإكساب المتعلمين المهارات اللغوية الرئيسة محادثة واستماعاً وقراءة وكتابة، وإكسابهم المهارات الفرعية لكل من هذه المهارات الرئيسية الأربع.

كما انتقل من النظر إلى اللغة على أنها مجموعة من الحقائق والأحكام والقواعد والمصطلحات، على المعلم أن يلقنها للمتعلم، وما على المتعلم إلا أن يحفظها ويستظهرها، وبقدر حفظه لها يعد متمكناً من اللغة، إلى النظر إليها على أنها عادة، وذلك في ضوء معطيات علم النفس والمدرسة السلوكية في هذا العلم. ولا تكتسب العادات إلا بعد تكوين المهارات، ولا تتكوّن المهارات إلا بالمران والممارسة والتكرار المبني على الفهم، والتشجيع والتعزيز والتوجيه والقدوة الحسنة ممن يحاكيهم المتعلم في أثناء الممارسة والمران.

وهذا الانتقال في تعليم اللغة وتعلّمها انطلق من استراتيجية التعلّم من أجل الإتقان، بحيث تصبح ممارسة اللغة تتسم بالسلامة والجودة والسيولة اللفظية لتغدو وكأنها سجيّة وطبع.

وإذا ألقينا نظرة على واقع تعليم لغتنا العربية وتعلمها في ضوء الاتجاهات الحديثة فإننا نلاحظ أن ثمة ضعفاً في مستوى هذا التعليم والتعلم، ويتجلى هذا الضعف في:

١- تدني مستوى المتخرجين في الأعم الأغلب، إذ إن هذا المستوى لا يرقى إلى المستوى المطلوب القادر على تمثل اللغة فهماً واستعمالها سليمة في المحادثة والكتابة والتعبير.

٢- افتقار معلمي اللغة في الأعم الأغلب، إلى الكفايات اللازمة للتعليم الفعّال:

- كفاية استعمال اللغة العربية سليمة في الشرح والمناقشة والتعبير.
- كفاية التخطيط للدروس وصوغ أهدافها سلوكيًّا.
- كفاية تنفيذ الدروس.

- كفاية استثارة الدافعية للتعلم.
- كفاية إدارة التفاعل الصفي.
- كفاية توظيف الخبرات التعليمية في مواقف جديدة.
- كفاية توظيف الوسائل التعليمية في أثناء العرض.
- كفاية توفير العلاقات الإنسانية.
- كفاية توظيف العلاقة بين المؤسسات التعليمية والمجتمع.

وإذا أضفنا إلى ذلك غياب تعليم مواد العلوم الصحية وغيرها من العلوم البحتة والتطبيقية باللغة العربية في بعض الدول العربية، مع العلم بأن الدعوة المخلصة لتعليم العلوم بالعربية تستند إلى دواعٍ موضوعية مقنعة من مثل العلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر، فالمتعلم الذي يتعلم بلغته الأم يكون أقدر على التمثل والإدراك والتحصيل الواعي والتمكّن من تصوّر الأشياء والحكم عليها ونقدها، وإنشاء علاقات جديدة بين مفرداتها، وإنتاج قيم علمية على أساس من إدراكه وإبداعه، وتحقيق روح الانتماء والمواطنة[٤]، وها هي ذي مخرجات الجامعات السورية في مختلف ميادين المعرفة وعلى امتداد قرن كامل خير شاهد ودليل على فعالية تعليم مواد المعرفة كافة باللغة الأم.

ولقد ورد في المشروع الذي أنجزته مؤسسة الفكر العربي عام ٢٠١٢ وعنوانه «لننهض بلغتنا: مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية» أن نسبة ٨٧ ٪ في دول المشرق العربي تدرّس العلوم باللغة الإنجليزية، و٨٨ ٪ تدرّس باللغة الفرنسية في دول المغرب العربي. وينسحب ذلك على واقع الامتحانات والبحوث، فاللغة العربية لم تنل إلا ١٤ ٪ مقابل ٧٦ ٪ باللغة الإنجليزية، و ٨٧ ٪

(٤) الدكتور محمد بن حسن الزير- استراتيجية وطنية لتمكين اللغة العربية من إحداث أثرها الفعّال: الدواعي والمقوّمات- المؤتمر الدولي الخامس للغة العربية- دبي ٢٠١٦ ص ١٦٣.

بالفرنسية، كما ورد أيضاً أن نسبة ١٣ ٪ فقط من أعضاء الهيئة التدريسية يؤيدون تدريس العلوم باللغة العربية. وجاءت هذه النسب المئوية في ضوء استبانات موزعة على الصعيد العربي في أحد عشر بلداً عربيًّا، وبلغ عدد الاستبانات الموزّعة (٧٨٦٣) استبانة(٥)، وما دام سوق العمل يستقبل المؤهلين باللغة الأجنبية كان إقبال الطلاب على تعلّم المواد باللغة الأجنبية كبيراً، وبتشجيع من الأهل وغيرهم ممن يُعادون اللغة العربية من أرباب العولمة.

وإذا ألقينا نظرة على واقع تعليم اللغات الأجنبية وواقع تعليم لغتنا العربية وجدنا ثمة بوناً بين هذين الواقعين، إذ تستخدم وسائل التقانة في تعليم اللغة الأجنبية في حين يفتقر تعليم اللغة العربية إلى هذه الوسائل. ويساعد تعدّد مصادر المعرفة ووسائل التقانة في تعليم اللغة الأجنبية في إكساب المتعلمين مهارات التعلم الذاتي فيبقى الكتاب الصديق الصدوق لهم في حلّهم وترحالهم، في حين نرى أن ثمة نقصاً كبيراً في إكساب متعلمي اللغة العربية هذه المهارات فيكون ثمة عزوف كبير لديهم عن القراءة ومواكبة روح العصر.

ولقد شهد النظام التعليمي تطوراً في مكوّناته في النصف الثاني من القرن الماضي ومطلع الألفية الثالثة، وظهر التعليم المبرمج والتعلم الذاتي والتعليم المفتوح، وتعدّدت الوسائل التقانية في حياتنا المعاصرة من حواسيب ومختبرات لغوية وشابكة (إنترنت) وناسوخ ورزم تعليمية وفيديو تفاعلي ونشر إلكتروني...إلخ.

والواقع أن التجديد الكبير الذي حدث في ميدان تعليم اللغات وتعلمها إنما كان في استعمال التقانة وتعدد وسائلها، وثمة صيحات تنطلق حالياً

(٥) مؤسسة الفكر العربي- لننهض بلغتنا: مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية- بيروت ٢٠١٢.

لتقول: «وداعاً قراءة المطالعة والتلقين السلبي، والاقتصار على النصوص، ومرحباً بقراءة التفاعل والإبحار والسيولة الرمزية لانصهار المكتوب والمرئي والمسموع في وسائل الوسائط المتعددة»(٦).

وبعد أن كان ينظر إلى التقانة على أنها مجموعة من الوسائل والأدوات التي يستعان بها في العملية التعليمية التعلمية أضحى ينظر إليها على أنها قلب العملية التعليمية التعلمية، وأنها تعمل على تطوير هذه العملية على أساس من التصميم المدروس الذي تخضع له كل خطوة من الخطوات المؤدية إلى تحقيق الأهداف المرجوة، ذلك لأن نجاح أي خطة تعليمية يتعلق بمدى وضوح الأهداف المرسومة لها، وحسن تخيّر الوسائل والأدوات الموظفة لتنفيذ تلك الأهداف وتحقيقها، كما يتعلق الأمر بكفاية القائمين على التنفيذ وجدارتهم من حيث تمثّل الأهداف المرسومة ومعرفة السبل المُوصِلة إلى تحقيقها بكل دقة وأمانة ومسؤولية.

ومن هنا اتجه التفكير إلى الاهتمام بوسائل التقانة وحسن استعمالها في العملية التعليمية التعلمية عامة وفي تعليم اللغة وتعلّمها خاصة، لأن اللغة وعاء الفكر، وينظر إلى هذا الاستعمال في المجال اللغوي على أنه يرجع إلى عاملين **أولهما** حضاري ذلك لأن لغتنا العربية لغة حية أسهمت في مسيرة الحضارة البشرية أيما إسهام، وهي من بين اللغات الست المعتمدة في الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها، وهذا الأمر يوجب على أبنائها أن يعلّموها في ضوء الاتجاهات الحديثة في تعليم اللغات لأبنائها ولغير أبنائها مسايرة لروح العصر ومتطلباته.

وثانيهما تربوي إذ يحتم على أبناء اللغة العربية تعليم لغتهم وتعلمها في

(٦) الدكتور نبيل علي- تقانة المعلومات والثقافة- دار العين للنشر- القاهرة ٢٠٠٦ ص ٢٦٤.

عصرنا الحاضر، عصر العلوم والتقانة بوسائل التقانة الحديثة التي تقرّب المفاهيم إلى الأذهان وبخاصة في المراحل الأولى من التعليم، وتبعث الحيوية والنشاط في أجواء الدروس، وتكسب المتعلمين مهارات التعلم الذاتي، وتسرّع عملية التعليم، وتتيح مشاركة الحواس في الوصول إلى المعلومة، فتجعل المتعلمين ينفعلون بالخبرة ويتفاعلون معها، وتزيد قدرتهم على التفكير وحل المشكلات، والربط بين الكلمات والأشياء والمواقف الجديدة، وهذا كله ينمّي الرصيد اللغوي والتعبير اللغوي، وينأى عن الهدر في الإنفاق والوقت والجهد المبذول في الطرائق التقليدية.

ويظهر دور التقانة الحديثة من حواسيب ومعدات عرض، ونظم اتصالات وشابكة في خدمة العملية التعليمية التعلمية واكتساب مهارات التعلم الذاتي، وتحويل الاهتمام من التعليم إلى التعلم، ومن تلقي المعلومات إلى معالجتها، ومن المعارف المجزأة إلى تكاملها، ومن قصر الاعتماد على الكلمة المكتوبة مصدراً للمعرفة إلى استعمال عدد من مصادر التعلم وأوعية المعرفة المكتوبة والمقروءة والمسموعة والمرئية والمحوسبة التفاعلية القائمة بذاتها.

وتجدر الإشارة إلى أن تقنيات الطباعة والحوسبة والاتصالات قد أسهمت في نشر اللغة العربية وحفظها ونقلها، كما كان للغة دور في خدمة التقنيات وتقدمها، على أنها الوعاء الذي يحمل التقنيات، وينقلها مكتوبة أو مطبوعة أو منطوقة أو مسجلة.

ولا يخفى على أحد أن تقنية الاتصالات ساعدت على السرعة الفائقة لانتقال اللغة العربية بطريق الإذاعة والتلفزة حيث أصبح الكلام يصل مباشرة إلى كل منزل، وصارت الصور الملونة تصل أيضاً إلى كل مكان في العالم.

وأسهم الحاسوب في حفظ المعلومات والبيانات وتسجيلها لا في

ذاكرته فقط، وإنما في أقراص إضافية رقيقة جعلت في الإمكان حفظ مكتبة بكمالها في حيّز صغير. وثمة سرعة في عرض المعلومات المخزونة، إذ لا تستغرق قراءة الكلمة سوى أعشار الجزء من المليون من الثانية.

وإذا كان التعليم الإلكتروني يساعد المتعلمين على حفزهم لابتكار أنشطة لغوية ترتبط بما يدرسونه من موضوعات، وتنمية المهارات اللغوية قراءة ومحادثة واستماعاً وتعبيراً وكتابة، واكتساب مهارات التعلم الذاتي، وإثارة الدافعية وتكوين اتجاهات إيجابية نحو هذا النوع من التعليم، فإن للتعليم الإلكتروني مزايا لا تقتصر على المتعلمين، وإنما تساعد المعلمين على عرض الدروس، وتوجيه عملية التعليم، وتنمية مهارات توجيه الأسئلة الشفوية في أثناء عرض الدروس، ومتابعة تقدّم المتعلمين، والوقوف على أخطائهم، وتقويم مستواهم، وتعزيز أدائهم، والتواصل مع أولياء الأمور، وتنظيم محتوى المنهج بصورة مترابطة ومتدرجة.

ثالثاً – من وسائل تعليم اللغة في العصر الحاضر

تتعدّد الوسائل المستخدمة في تعليم اللغة وتعلّمها في عصرنا الحالي، ومن هذه الوسائل الرزم التعليمية، والتعلم بالمراسلة بطريق الوسائل السمعية البصرية، والتعلّم بالمختبرات اللغوية، ومسجلات الصوت الصغيرة والقابلة للحمل، ومسجلات الصوت الرقمية الصغيرة، وأجهزة تسجيل فيديو للاستخدامات الصفية، والرسوم والمخططات والبرامج المنفذة بالحاسوب، وقنوات تلفزية فضائية، وهواتف محمولة واستخدامها بغرض إرسال الرسائل النصية والصور والتسجيلات...إلخ.

وفيما يلي وقفة على عدد من هذه الوسائل لتبيان مزاياها في تعليم اللغة وتعلّمها.

١ - صرّة المعرفة

ويطلق عليها أيضاً مصطلح الحقيبة التعليمية أو الرزمة التعليمية، وقد صممت في ضوء أسس تربوية مستمدة من المدخل المنظومي في التدريس تصميماً وتنفيذاً وتقويماً. وتشتمل على أهداف تعليمية محددة وواضحة ومصوغة صوغاً سلوكيًّا، كما تشتمل على اختبار قبلي يقيس نقطة البدء لدى كل متعلم ومستوى الأداء لديه، وعلى بدائل تعليمية تتيح للمتعلم أن يختار منها ما يناسب ميوله، وعلى التقويم أيضاً.

وتحقق الحقيبة التعليمية أو صرة المعرفة عدة فوائد في العملية التعليمية التعلُّمية، ومن هذه الفوائد:

- تطبيق النظرة المنظومية في تقنيات التعليم.
- ملاءمة الفروق الفردية، إذ يسير المتعلم وفق سرعته.
- إرشاد المتعلمين إلى مصادر إضافية غير متوفرة في الحقيبة نفسها.
- اعتماد التعلم الذاتي.
- استخدامها بديلاً عن الكتاب المدرسي والمعلم أحياناً.
- تنوع الخبرات.

أما خطوات إعداد الحقيبة فتتمثل في الآتي:

١- تحديد الأهداف وصوغها صوغاً سلوكيًّا بحيث تصف بوضوح ما ينبغي للمتعلم أن يؤديه ومستوى إتقان أدائه المقبول.

٢- الاختبار القبلي: ويوضع في ضوء الأهداف المحددة، ويشمل المحتوى التعليمي الذي تشتمل عليه الحقيبة، ويطبق على جميع المتعلمين قبل البدء بالدراسة للوقوف على نقطة البداية لدى كل منهم.

٣- المناشط والبدائل التعليمية: وتضم الحقيبة مجموعة من البدائل

التعليمية التي تسمح لكل متعلم أن يختار ما يراه مناسباً منها بطريق القراءة أو الاستماع أو المشاهدة أو بهذه الطرائق كافة.

٤- التقويم ويشمل ثلاثة أنواع من الاختبارات وهي:

- اختبار قبلي.
- اختبار ذاتي يقيس مقدار تقدم كل متعلم في دراسة مكونات الحقيبة.
- اختبار بعدي يقيس مقدار التحسن المطلوب للانتقال إلى دراسة صرة أخرى.

٥- تقويم الصرة في ضوء المعايير الآتية:

- هل تشتمل على الأقسام الأربعة السابقة ؟
- هل تتصل الأهداف التعليمية للرزمة بالأهداف التربوية للمقرر الدراسي؟
- هل المواد التعليمية متيسّرة؟
- هل المادة مثيرة للمتعلمين ومشوّقة لهم؟
- هل يساعد التقويم على تحديد مكامن الضعف لدى المتعلمين؟
- هل الأهداف والاختبار القبلي والمناشط والتقويم مترابطة يكمل بعضها بعضها الآخر؟
- هل جُرّبت الصرة على عدد من المتعلمين وعدّلت قبل تطبيقها؟

وإذا أخذنا مثالاً يوضّح هذه الوسيلة في إحدى الدول المتقدمة فإننا نلاحظ أنه في فرنسا ظهرت طريقة ARCHIPEL بعنوان: الفرنسية، لغة أجنبية.«Français, Langue étrangère» وهي مكونة من مستويين **أولهما** يضم سبع وحدات تشتمل كتاباً للطالب وآخر للمعلم وثلاثة أشرطة وفِلْمين، **وثانيهما** يضم خمس وحدات أخرى، ويشتمل على كتاب للطالب وآخر

للمعلم وثلاثة أشرطة تتضمن حواراً وتمرينات وأغاني ونصوصاً وفِلْمَين. وتضم كل وحدة مادة مكتوبة ومرئية، وتسير بالمتعلم تدريجيًّا وفق الخطوات الآتية:

١- الوسط: صورة مرسومة ضوئية توضح العنوان والأهداف الوظيفية للوحدة.

٢- المواقف: مجموعة من الصور المصحوبة بنص قصير يذكّر بالموقف واللغة التي تتضمنها الوحدة.

٣- القراءة والاكتشاف: وينحصر دور المعلم في الإجابة عن الأسئلة المتوقّعة عن الموضوع المطروح.

٤- ممارسة اللغة: بطريق تمرينات مكتوبة ملائمة للمحتوى اللغوي، وقليل من القواعد التي تذكر بما سبق من مكتبات نحوية، يظهر بصورة لوحات أو أمثلة، إضافة إلى قليل من البلاغة من خلال القصائد والأغاني.

٥- الانطلاق بعيداً بطريق وثائق مختلفة موثّقة تتضمن نصوصاً من الصحف أو من الأدب تستعمل في ضوء مستويات المتعلمين.

٦- نصوص الحوارات والتمرينات المتعلّقة بالاستخدام الشفهي في الفصل مثل تمرينات الإخبار المتعدد، تصميم للعب الأدوار، فاعلية الإنتاج الحر.

٧- سلسلة من التدريبات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوحدة في نهاية الكتاب قائمة على أساس التعلم الذاتي[٧].

(٧) École Normale Supèrieure de Saint Claud (Crèdif) Archipel Paris- 1983.

٢- الحاسوب

يقدم الحاسوب تسهيلات لا حصر لها في العملية التعليمية التعلمية، إذ إنه يساعد المتعلم على التواصل مع الآخرين في مختلف بقاع الأرض، ويلغي الحواجز والحدود، ويوفّر من المعلومات ما لا توفّره عدة مكتبات في أنحاء العالم، وينقلها بسرعة هائلة، ويمكّن المتعلم من اختيار الموضوع الذي يريد في الوقت الذي يريد، وفي المكان الذي يريد، وبخاصة عندما يتعامل مع الحاسوب المحمول، فهو غير مقيّد بزمان أو مكان، يختصر له الوقت والمجهود، ويفتح أمامه آفاق المعرفة بما يوفّره له من معلومات، وكلما ازدادت خبرة المتعلم في التعامل مع الحواسيب الشخصية تعمّق فهمه لما يمكن أن يفعله وما لا يستطيع فعله، وعندئذ تصبح الحواسيب أدوات لا أشياء منطوية على مخاطر، ذلك لأن الحاسوب شأنه في ذلك شأن الجرّار الزراعي أو آلة الخياطة، ليس سوى أداة أو وسيلة يمكن استخدامها لمساعدتنا على أداء مهامّ معينة بكفاية أكبر على حدّ تعبير العالم الحاسوبي (بيل جيتس)[٨].

ويؤدي الحاسوب خدمات متعددة في خدمة العربية، ومنها:

١- التمكين للغة العربية من خلال النصوص المضبوطة بالشكل.

٢- الإسهام في العملية التعليمية التعلّمية من خلال البرامج التفاعلية.

٣- التحليل الصرفي والتدقيق النحوي والمعاجم.

٤- الاعتماد عليه في حوسبة التراث العربي أي في الدراسات الإحصائية للتراث العربي.

٥- حفظ التراث حاسوبيًّا بإحدى طرائق الحفظ الإلكترونية.

(٨) بيل جيتس - المعلوماتية بعد الإنترنت - ترجمة عبد السلام رضوان - سلسلة عالم المعرفة - العدد ٢٣١ الكويت ١٩٩٨ ص٤٠٤.

٦- استعماله في الترجمة الآلية من العربية وإليها.

وتهدف حوسبة اللغة العربية إلى ما يلي[٩]:

- إغناء الموضوعات التي لم تعط شرحاً وتوضيحاً كافياً في الكتاب المدرسي.
- تبسيط الموضوعات وتيسير عملية التعلّم وزيادة سرعتها.
- تسهيل الرجوع إلى الموضوعات ذات العلاقة عند الحاجة إليها رأسيًّا وأفقيًّا.
- التشويق والجذب وشدّ الانتباه.
- تشجيع المتعلمين على العمل بروح الفريق.
- تسهيل تكوين خريطة مفاهيمية لجزيئات الموضوع الواحد.
- تشجيع مهارة الاعتماد على النفس وإمكان التعلم الذاتي.
- سهولة الربط مع المواضيع الأخرى التي يدرسها المتعلم.
- مراعاة الفروق الفردية.
- ومن الخدمات التي يؤديها الحاسوب في مجال الصرف:
- تحديد جذر الكلمة واشتقاقاتها.
- وضع قواعد لكل وزن صرفي.
- تحليل الكلمة إلى الجذر الثلاثي أو الرباعي أو الخماسي وتبيان الأصل الذي عليه الكلمة، وتبيان الزيادة التي طرأت على هذا الأصل.
- تبيان وزن الكلمة أمجردة أم مزيدة ؟
- برنامج ضبط النص وتشكيله.

---

(٩) الدكتور فواز جرادات- التجربة الأردنية في تعليم اللغة العربية حاسوبيًّا- مجمع اللغة العربية في الأردن- عمان ٢٠٠٦ ص٢٧.

- برنامج المصطلح الإملائي.
- برنامج ترجمة النصوص.

وثمة من اقترح أن تكون قاعدة معطيات المعجم الحاسوبي في اللغة العربية مشتملة على الآتي:

١- جدول للأفعال

٢- جدول للأسماء

٣- جدول للأدوات

٤- جدول للإحصاء(١٠).

ويشتمل **جدول الأفعال** على الأفعال الثلاثية المجردة والمزيدة، والأفعال الرباعية المجردة والمزيدة، وترتبط به عشرة جداول فرعية هي: جدول المصادر والأمثلة والصفات المشبهة ومبالغة اسم الفاعل، والأخطاء الشائعة، والمترادفات، والمجالات الدلالية، والأضداد، والأسماء المصاحبة للأفعال والتراكيب اللغوية، والعبارات الاصطلاحية، والفوائد اللغوية والنحوية والصرفية.

ويشتمل **جدول الأسماء** على الأسماء الجامدة والمشتقة والأسماء المنقولة عن المصدرية والوصفية، ويرتبط به اثنا عشر جدولاً هي: جدول الأمثلة والجموع والنسبة والتصغير والأخطاء الشائعة والمترادفات والمجالات الدلالية، والأضداد، والأفعال المصاحبة للأسماء، والأسماء المصاحبة للصفات، والأسماء المضافة إلى الأسماء، والتراكيب اللغوية، والعبارات الاصطلاحية، والفوائد اللغوية، والنحوية، والصرفية.

---

(١٠) مروان البواب- دور التقانات الحديثة في تجديد المعجم العربي- المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق- ٢٠٠٨ ص٨.

ويشتمل **جدول الأدوات** على حروف المعاني، وأسماء الإشارة، وأسماء الاستفهام، وأسماء الشرط، وأسماء الأفعال، والأسماء الموصولة، وأسماء الكناية، والأسماء الخمسة، وأسماء العدد، وأسماء التوكيد، وأسماء الاستثناء، والأفعال الجامدة، والحروف المشبهة بالفعل، والظروف والضمائر. ويرتبط بهذا الجدول أربعة جداول فرعية هي: جدول الأمثلة، والأخطاء الشائعة، والتراكيب اللغوية والعبارات الاصطلاحية والفوائد اللغوية والنحوية والصرفية.

أما **جدول الإحصاء** فيتضمن إحصاءات عن محتويات المعجم من جذور وأفعال وأسماء ومصادر وصفات، تمكّن من إجراء عمليات بحث مختلفة من مثل تنافر الحروف وائتلافها، وعلاقة الأفعال المضعّفة ببابها التصريفي، ومعاني الأفعال المزيدة، ومعاني حروف الزيادة وضوابط أوزان المصادر، والقوانين الغالبة في جموع التكسير والتصغير والنسب.

وثمة خمسة أنماط تعليمية لاستخدام الحاسوب فيها، وهي[١١]:

١ - طريقة التعلم الخصوصي الفردي:

وتهدف إلى التعلم بواسطة برنامج يصمّم سلفاً على غرار التعليم المبرمج، فتعرض الفكرة وتشرح، وتذكر بعض الأمثلة عليها، وثمة تفاعل وحوار في ضوء بعض الأسئلة والأجوبة، وتستخدم الرسوم والألوان والأصوات والحركات، ويجد كل متعلم ما يلائمه من طرائق التدريس.

وتقسم طرائق التعلم الخصوصي الفردي إلى قسمين هما:

أ- الدروس الخطية: وتقدمها كل الشاشات بتتابع واحد وثابت لجميع المتعلمين بصرف النظر عن تباين مستوياتهم.

(١١) الدكتور محمود أحمد السيّد- قضايا راهنة للغة العربية- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠١٦ ص١٧٣.

ب- الدروس المتفرعة: وهي التي توفّر للمتعلم أن يتفاعل مع الدرس فيختبر أي جزء يريد أن يبدأ بدراسته من عدة خيارات أمامه على الشاشة، وتتوقف كمية المادة المقدّمة على سرعة إنجاز المتعلم، ويمكن للحاسوب أن يحيل المتعلم على الأجزاء التي لم يتقنها من الدرس، ويشمل البرنامج على اختيارات قبلية وبعدية.

ومن مزايا هذه الطريقة أنها توجه المتعلم نحو دراسة المعلومات بصورة منتظمة، وتساعده على تحقيق أفضل النتائج بطريق التغذية الراجعة، وتراعي قدرته الذاتية في الانتقال من خطوة إلى أخرى، وتشدّ انتباه المتعلم بفضل ما هو متوفر في الحاسوب من مؤثرات صوتية وألوان ورسوم متحركة، إلا أن تنفيذ هذه الطريقة يحتاج إلى وقت كبير لإعدادها وتصميمها وتحتاج في إعدادها إلى أسلوب يجعل المتعلم يعتمد على نفسه، ويفهم ما يقدّم إليه من تعليمات وإرشادات.

٢- طريقة التدريب والممارسة:

ويقدّم الحاسوب في هذه الطريقة عدداً من التدريبات أو التمرينات، ويقوم بتعزيز الإجابات الصحيحة لدى المتعلم، وتصحيح الخاطئة في ضوء التغذية الراجعة الفورية، ومتابعة تقدّم المتعلم وإتاحة الفرصة له للتدريب على مهارة معينة أو لمراجعة موضوعات تعليمية، والتغلب على المشكلات التي تواجهه.

٣- طريقة المحاكاة:

وتهدف إلى تقديم نماذج تفيد في بناء عملية واقعية من خلال محاكاة نموذج، والتدريب على عمليات يصعب القيام بها في مواقف فعلية، وتسمح

للمتعلم أن يعدّل من أوضاع مكوّن أو أكثر، وأن يشاهد نتائج هذا التعديل على بقية المنظومة. وتقدّم برامج المحاكاة سلسلة من الأحداث الواضحة للمتعلم، وتقدّم له العديد من الاختبارات التي تناسبه، وتستعين بالصوت والصورة والرسوم، وتوفّر قاعدة كبيرة من المعلومات التي تساعده على فهم الموضوع واستيعاب الحقائق والأفكار.

إلا أن هذه الطريقة تتطلب قدراً كبيراً من التخطيط والبرمجة لتصبح فعّالة ومؤثّرة، وتحتاج إلى فريق عمل من المعلمين والمبرمجين وعلماء النفس والمربين، وتحتاج إلى تكلفة مالية عالية لإخراجها بالصورة المرغوب فيها.

٤- طريقة الألعاب التعليمية:

وتعتمد على دمج عملية التعلّم في اللعب وعلى مبدأ المنافسة، وتشجّع هذه الطريقة الخيال، وتساعد على اكتساب مهارات حل المسائل وعلى التغلب على الملل، وتكوين اتجاه إيجابي نحو الحاسوب.

٥- طريقة حل المشكلات:

وتساعد هذه الطريقة المتعلم على تحديد مشكلته وكتابة برنامج لحل تلك المشكلة، ووظيفة الحاسوب هنا هي إجراء المعالجات والحسابات المتعلقة بالمشكلة وتزويد المتعلم بالحلّ الصحيح، ويوفّر الحاسوب له الوقت ويطرح أمامه أكثر من اقتراح للوصول إلى حلّ المشكلة المطروحة. ويمكن عرض المشكلة بأكثر من طريقة إذ يمكن عرضها بطريق الصورة أو الحركة أو الكتابة.

وهذه الطريقة تتعدّى مجرد التعامل السطحي إلى التعامل مع العقل والتفكير الناقد، وتعزيز مهارة الإبداع والتفوق لدى المتعلمين. ولا تخاطب

هذه الطريقة ذوي المستويات الدنيا من التعليم، وإنما تتطلب مهارات عقلية عليا في التفكير..

تلك هي بعض الطرائق التي يمكن اتباعها في العملية التعليمية التعلمية بطريق الحاسوب، وقد تكون الطريقة فعّالة في موقف وغير فعّالة في موقف آخر، وعلى المعلم أن يتسم بالمرونة في اختيار طريقته، فإذا كانت هنالك حاجة لإعطاء تدريبات وتمرينات لاكتساب مهارة معينة فإن طريقة برامج التدريب والتمرين هي أنسب الطرائق، وإن كان ثمة حاجة لتوضيح مفهوم فإن طريقة التعلم الخصوصي الفردي هي الأنسب وهكذا...

ولا يغيبَنَّ عن البال أنه على أهمية الحاسوب في تعليم اللغة وتعلمها، فإنه يظل أداة مساعدة في هذه العملية، ويبقى المعلم هو الذي يقوم عقله بتركيب الجملة وتحميلها المعنى حسيًّا كان أو مجازيًّا أو إيحائيًّا، وهو الذي يقوم بترتيب نحوي في الجملة من حيث التقديم والتأخير، ويبين ما في الكلمة من إشعاع، ويزود الحاسوب ببرامج تصحيح الأخطاء وتبيانها[١٢].

إن الدماغ البشري هو الذي يقوم باختيار بناء الجملة وفق غرض معين، ولا يمكن للحاسوب أن يقوم بهذا الاختيار، ولا يمكن للحاسوب أن يحل محل الدماغ البشري، فالحاسوب يقدم تسهيلات، وهي خدمات كبيرة لا تقدر، ولكن يبقى الإنسان هو المعوّل عليه في تنفيذ البرامج التعليمية التعلمية إشرافاً وتصميماً وتنفيذاً ومتابعة وتقويماً، ويجيء الحاسوب للمساعدة على تنفيذ هذه المراحل بكل سهولة ويسر.

(١٢) الدكتور أحمد زياد محبك- الحاسوب وتنمية المقدرة عند الطفل- المؤتمر السنوي السادس لمجمع اللغة العربية بدمشق (لغة الطفل والواقع المعاصر)- دمشق ٢٠٠٧ ص٣.

٣- التعلم بالشابكة (الإنترنت)

تستخدم الشابكة (الإنترنت) في العملية التعليمية للغة وتعلّمها، ويرى (بيل جيتس) أن الطريق السريع في الحصول على المعلومات بطريق الشابكة سوف يتيح لكل فرد في المجتمع مستقبلاً واسعاً وآفاقاً تعليمية جديدة ومجالات واسعة للبحث(١٣).

وثمة من يرى أنه قد لا يكون بعيداً ذلك اليوم الذي يحل فيه التعليم الإلكتروني محلّ كثير من الكتب المقررة ودفاتر العمل، لأن تغيير المحتوى يحدث بسرعة كبيرة في الأجهزة الإلكترونية أكثر من النشرات المطبوعة، ولأن الشابكة تستطيع أن تقدم مادة تعليمية يتفاعل معها المعلم بنشاط واسع ودافعية أقوى من الأساليب التقليدية بحيث يستطيع المتعلم تعلّمها منفرداً أو بالتعاون مع أقرانه(١٤).

ومن ميزات الشابكة أنها لا تستخدم لاستقبال المعلومات فقط، وإنما ثمة تفاعل بين المتعلم والبرنامج، وهناك جمع بين تقنيات النص المكتوب والصورة المتحركة، ودافعية للتعلم إلى جانب إدارة جيدة للوقت(١٥).

وتؤدي الشابكة خدمات متعددة في تعليم العربية وتعلمها، إذ إنها تساعد المتعلمين في الحصول على المعلومات بسرعة من مختلف أنحاء العالم، وتساعد على التعلّم التعاوني، كما أنها تساعد على التعلّم الذاتي في

---

(١٣) بيل جيتس- المعلوماتية بعد الإنترنت- مرجع سابق ص ١٥٢.

(١٤) Sherry.L. Wilson,B. «Transformative Communication as Stumulus to Educational Technology, Publications, Inc . web Besed instruction» Englewood Cliffs, New jersey 1997 P 67.

(١٥) Mcdonel. R- College on the World weide web- unpublised PHD thesis university of California 1999.

الوقت نفسه، وتتسم طريقة استخدامها بالحيوية والنشاط في منأى عن الطرائق التقليدية، وتطور وظيفة المعلم ليغدو موجهاً ومرشداً وليس ملقّناً.

ولقد اخترقت الشابكة كل الحواجز السياسية والثقافية والاقتصادية والعلمية خلافاً لكل الوسائل الأخرى لنقل المعلومات. وتوسّعت خدماتها لتشمل البريد الإلكتروني وتبادل المعلومات بمختلف صورها من نص مكتوب وصورة وصوت وحركة، وعرض للصحف والمجلات، وتبيان لقواعد البيانات، ونقل لخدمة الإذاعة والتلفزة...إلخ، وجاء ذلك كله مع ظهور شبكة WWW، فغدت من أهم الوسائل الإعلامية والإعلانية والتسويقية والمعرفية الهائلة.

وعلى المعلمين أن يعملوا على تزويد المتعلمين بالتفكير الناقد الموضوعي حتى يستطيعوا التمييز بين الزيف والأصيل، والمفيد والضار، مما يقدّم على الشابكة، وأن يكونوا قادرين على تعرّف القيم الإيجابية فيفيدوا منها، والقيم السلبية بغية استبعادها، ولاسيما أننا نعيش في عصر اضطربت فيه المعايير، ودسّ فيه السم بالعسل، وانتشر فيه التفكير الإرهابي الظلامي.

وإلى جانب تصفية المعلومات وغربلتها فإن التراسل الإلكتروني يمكّن المستخدم العربي من كتابة رسائل بلغته الأم، إضافة إلى تعليم اللغة وتعلمها عن بُعد، وذلك بوضع دروس في اللغة العربية على (الويب) مدعومة بآليات تسهّل التعلم، بحيث تغدو الشابكة وسيلة ناجعة وفعّالة لنشر اللغة العربية وتعليمها إن لأبنائها أو لغير أبنائها.

وخلاصة القول إن طبيعة العصر تحتّم على أبناء اللغة العربية استعمال وسائل التقانة الحديثة في تعليم لغتهم الأم (العربية الفصيحة)، إذ إن في هذا الاستعمال مزايا متعددة ترتقي بواقع تعليم اللغة وتعلّمها، وتبرهن في

الوقت نفسه على مواكبة روح العصر، عصر العلوم والتقانة (التكنولوجيا) على الصعيد العالمي، وعلى من بيدهم القرار في الوطن العربي أن يعملوا على التخطيط اللغوي في ضوء سياسة لغوية قومية تأخذ بالحسبان رصد الواقع اللغوي وتبيان إيجابياته وسلبياته بغية تعزيز الإيجابيات، وتلافي السلبيات، حتى تتبوأ لغتنا الأم (العربية الفصيحة) المكانة الجديرة بها، وحتى يبرهن أبناؤها على أنهم بررة بأمّهم، أوفياء لها، وعاملون على الحفاظ على كنوزها، وما من ثروة أثمن من لغة الأجداد.

* * *

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١- استراتيجية وطنية لتمكين اللغة العربية: الدواعي والمقوّمات- الدكتور محمد بن حسن الزير- المؤتمر الدولي الخامس للمجلس الدولي للغة العربية- دبي ٢٠١٦.

٢- التجربة الأردنية في تعليم اللغة العربية حاسوبيًّا- الدكتور فواز جرادات- مجمع اللغة العربية في الأردن- عمان ٢٠٠٦.

٣- التحديات التي تواجه العربية- الدكتور سام مبارك القلق- المؤتمر الخامس للمجلس الدولي للغة العربية- دبي ٢٠١٦.

٤- تقانة المعلومات والثقافة- الدكتور نبيل حلباوي- دار العين للنشر- القاهرة ٢٠٠٦.

٥- الحاسوب وتنمية القدرة عند الطفل- الدكتور أحمد زياد محبك-

المؤتمر السنوي السادس لمجمع اللغة العربية بدمشق- دمشق ٢٠٠٧.

٦- دور التقانات الحديثة في تجديد المعجم العربي- مروان البواب- المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق- ٢٠٠٨.

٧- العولمة المزعومة: الواقع والجذور والبدائل- روجيه جارودي- تعريب محمد السبيطلي- دار السواقي للنشر والتوزيع- صنعاء ١٩٨٩.

٨- العولمة وآليات التهميش في الثقافة العربية - حجازي أحمد مجدي - مؤتمر جامعة فيلادلفيا في الأردن - عمان ١٩٩٨.

٩- قضايا راهنة للغة العربية- الدكتور محمود أحمد السيّد- وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق – ٢٠١٦.

١٠- لننهض بلغتنا: مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية- مؤسسة الفكر العربي- بيروت ٢٠١٢.

١١- المعلوماتية بعد الإنترنت- بيل جيتس- ترجمة عبد السلام رضوان- سلسلة عالم المعرفة- العدد ٢٣١ الكويت ١٩٩٨.

المراجع الأجنبية:

1- Ecole Normale supérèure de Saint claud (Crédif) Archipel Paris 1983.

2- Mcdonel. R- College on the World Weide Web- unpublished PHD thesis, university of California 1999.

3- Sherry. L. Wilson, B, «Transformative Communication as stumubus to Web Besed instruction» Educational Technology, Publications, inc Englewood Cliffs, New jersey 1997.

❋ ❋ ❋

اجتهادات في الدرس الصرفي والدلالي
تكملة مادة لغويّة

أ. د. ممدوح خسارة(*)

(١)
زامَن وتزامَن وزمَّن وتَزَمَّن

مدخل: ثمة كلمات جديدة من أفعال وأسماء دخلت اللغة العربية المعاصرة وَفْق أبنية عربية، ولكنْ بدلالات محدَثة لم تكن لها عند القدماء، مثل فعل (اعْتَقل، انْعَدَم، أزَّم، حاسوب). وبالنظر لشيوعها، فإن الحاجة تدعو إلى دراسة كل منها على حدة، ولا سيما الأفعال، لمعرفة مدى صلوحها لدخول المعجم العربي، بعد أن دخلَت ميدان الاستعمال اللغوي. وإذا كان بحثنا سينصَبُّ على الأفعال، فذلك لأن إقرارها يَسْتتبع مشتقاتها من أسماء فاعلين ومفعولين وسائر الصفات.

١) مشروعية هذه الاجتهادات الصرفية الدلالية:

تستمد هذه الاجتهادات مشروعيتها، بل وضرورتها من جملة أشياء، أهمها:

١ - إغناء المعجم العربي المعاصر:

طالما وُصِف المعجم العربي المعاصر بالقُصور، وأنه لا يشفي غليل

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

الناظر فيه والباحث، لأنه لا يورد ولا يُثبت إلا المفردات التراثيّة أو المفردات المتداولة، ولكنْ بدلالتها القديمة، وأنه يوصد الباب أمام كل مولَّد من المفردات. أي إن معاجمنا تكتفي بالمفردات العربية الفصيحة دون المفردات العربية الصحيحة. والفرق بينهما أن الكلمات الفصيحة هي مفردات لغة عصر الاحتجاج الذي يمتد حتى سنة (١٥٠)هـ في الحواضر وحتى سنة (٢٥٠)هـ في البوادي كما هو مُتَناقل. أما الكلمات الصحيحة فهي المفردات التي ولَّدها العرب بعد عصر الاحتجاج مما احتاجوا إليه في تواصلهم، ومعظم المفردات المولَّدة هي مفردات قيست على اللغة الفصيحة صرفاً ودلالة، ومن حقها – والحال كذلك – أن تدخل حرَم اللغة العربية وتصبح جزءاً من نسيجها لأن «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»[(١)]. ولولا محاولات إغناء المعجم العربي المتواصلة لما ازداد عدد المواد اللغوية من نحو أربعين ألف مادة إلى نحو مئة وعشرين ألف مادة. ومعظم تلك الزيادات جاء نتيجة اطلاع اللاحق على نصوص قد لا يكون اطلع عليها السابق، أو أن تلك الزيادات جاءت من توليد ألفاظ اقتضتها حاجات التعبير اللغوي المتجدِّدة. إن إغلاق باب المعجم اللغوي يشبه إلى حدٍّ بعيد إغلاق باب الاجتهاد الشرعي، فكلاهما ضارٌّ بالأمَّة، ويتنافى مع طبيعة تغيُّر الأزمان، وما يستتبعه من تغيُّر الأحكام، سواء أكانت شرعية أم لغوية.

٢- تفعيل أعظم خصيصة من خصائص اللغة العربية وهي الاشتقاق: وكما هو معروف فإن خصيصة الاشتقاق هي أهم خصائص لغتنا العربية، ولعلَّ العربية على رأس اللغات الاشتقاقية، وهذه الخصيصة تجعل نماء اللغة وتوالدها يأتي من داخلها، ويجعل كل كلمة جديدة تَنْسل من رحم

(١) ابن جني – الخصائص ١:١١٥.

جذرها اللغوي، وفق نظام صرفيّ ثابت يفضي إلى نظام دلاليّ منفتح. ولكنَّ كثيراً من اللغويِّين الذين يتغنون بهذه الخصيصة العظيمة للغتنا ويمجدونها، يقفون حائلاً دون تفعيل هذه الخصيصة الخلَّاقة، فإذا ما اسْتُعمل فِعْلٌ على بناءٍ لم يرد في المعاجم القديمة خطَّؤوه بحجة أن هذا الفعل لم يُسمع عن العرب على هذا البناء أو بهذه الدلالة.

نعم، إن العرب لم تستعمل هذا الفعل المولَّد على هذا البناء، أو لهذا المعنى، ولو استعملته بالدلالة التي شاعت أو التي نقصد إليها لما كنا بحاجة إلى توليده.

لقد وضعت العربُ أبنية لأفعالها المجردة والمزيدة والملحقة، وهي لم تضع هذه الأبنية التي قاربت الأربعين بناءً، إلا لنشتق عليها من الجذور العربية ما نحن بحاجة إليه، بعد أن اشتقوا هم ما كانوا بحاجة إليه. إن الوقوف عند ما ورَد في كلام العرب من أبنية لفعلٍ أو جذر ما، إنما هو تعطيل وإبطال لأعظم قانون وضعَتْه العربية لاستمرار نمائها ولإغنائها وفاءً لحاجات المتلاغين بها في كل زمان.

إن حكمنا على صحَّة بناء فعلٍ ليس مرجعيته ما ورد في المعاجم اللغوية – على عظيم قدرها وفضلها – ولكن مرجعيَّته هي موافقته لقواعد الاشتقاق، فما دام الفعل المستعمل مما يُسيغه الاشتقاق فلا يصح ردُّه، ولعلَّ هذا ما أراده ابن جني في قوله: «وذكر أبو بكر أن منفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسمع الرجل اللفظة فيشكَّ فيها، فإذا رأى الاشتقاق قابلاً لها أَنِس بها وزال استيحاشه منها ... ولو سمعت (ظَرُف) ولم تسمع (يَظْرُف) هل كنت تتوقف عن أن تقول (يظرُف)»[٢].

(٢) ابن جني – الخصائص ١: ٣٧٠.

إن الغرض من تقصِّي أبنية الأفعال ليس حفظها واستظهارها بتفاخر، بل الغرض منها الصوغ عليها متى دعت الحاجة إليها. ومثال ذلك: لدينا من أبنية الأفعال الثلاثية المزيدة اثنا عشر بناءً، ولكنْ ليس من فعل ثلاثي استوفى جميع تلك الأبنية. ولنستعرض بعضاً من الأفعال الثلاثية المشهورة لنرى عدد الأبنية التي جاءت عليها في المعاجم واستعملت لدلالات معيَّنة:

- الجذر (عمل): ورد منه سبعة أبنية فعليَّة هي (أَعْمَل، وعَمَّل وعامَل، واعْتَمل، وتعامل، وتَعَمَّل، واسْتَعْمل)[٣]، أي إن ثمة خمسة أبنية لم تستعمل ولم يُصَغْ عليها حتى الآن.
- الجذر (أمن): ورد منه أربعة أبنية فعلية هي (آمن، أمَّن، أَتْمَنَ، استأمن)[٤]. وبقي ثمانية أبنية شاغرة.
- الجذر (ومض) ورد منه بناءٌ فعليٌ واحد هو (أَوْمَض)[٥]، وبقي أحد عشر بناءً شاغراً، ومثله كثير ....

وهذا يعني أن متوسط عدد الأبنية التي صيغت من مزيدات الأفعال الثلاثية هو أربعة أبنية، وهو ثلث الأبنية الممكنة والمقرَّرة، فهل من الحكمة أن نضيِّع ثلث الأبنية الفعلية دون الإفادة منها في صوغ أفعال جديدة لم تُسْمَع؟

لا يعني كلامنا أن نصوغ من كل فعل ثلاثي جميع الأبنية الفعلية المتاحة، وهي اثنا عشر بناءً تفضي إلى اثني عشر فعلاً، على ما كان، ولكن نعني أن تُدَرس الأفعال غير المُعْجَميَّة، والشائعة على ألسنة المتكلمين والكتاب، كلٌّ على حدته، لنرى إمكان إدخالها إلى المعجم العربي

(٣) الأستاذ مروان البواب والدكتور محمد مراياتي والدكتور يحيى مير علم والدكتور محمد حسان الطيان – إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي: ٣٥٨.

(٤) المصدر السابق: ٢٨٥.

(٥) المصدر السابق: ٤١٣.

المعاصر بالدلالات الجديدة التي يتطلبها التواصل اللغوي ولا سيما في ميدان العلوم والمصطلحات.

٣- تفعيل خصيصة القياس التي هي من أهم أركان أصول النحو:

يعرَّف القياس بأنه «حَمْل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه»[٦] أو هو حَمْل ما لم يُسْمَع على ما سُمع من كلام العرب.

وممَّا قد يَرِد على كلامنا أن القياس هو في النحو وليس في اللغة، بمعنى أنه «إذا قال العربي: (كتب زيدٌ)، فإنه يجوز أن يُسنَد هذا الفعل إلى مُسَمَّى تصحُّ منه الكتابة، نحو: عمرو وبشرٌ وأزدشير، إلى ما لا يدخل تحت الحصر، وإثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النقل مُحال»[٧]. أما «اللُّغة فإنها وُضِعت وضعاً نقليًّا لا عقليًّا، فلا يجوز القياس فيها، بل يُقْتَصر على ما ورد به النقل، ألا ترى أن (القارورة) إنما سميت بذلك لاستقرار الشيء فيها، ولا يُسَمَّى كل مُستقَرٍّ فيه قارورة»[٨].

فنقول: إن هذا الكلام صحيح إذ ليس كل مستقَرٍّ فيه يُسَمَّى قارورة، ولكن كلمة (قارورة) جاءت صرفيًّا على بناء (فاعولة) الذي يدل، فيما يدل، على أداةٍ، فإذا كان لا يحق لنا أن نُسَمِّي كل مستقرٍّ فيه قارورة، فإن العرب قد سَمَّت ووضعَت على زنة (فاعولة) أدواتٍ وآلات عملٍ كالطاحونة من (طحن) والبالوعة من (بلع) اللتين أوردتهما المعاجم القديمة، وعليه وضع المعاصرون (جاروشة) لأداة تُجْرَش بها الحبوب على أنها لم ترد في لغة القدماء. فإذا كان القياس النحوي هو «حَمْل فَرْع على أصل لعلة جامعة»[٩]، فإن قياسنا في بحثنا

(٦) السيوطي – الاقتراح في أصول النحو ١/ ١٧٥.
(٧) المصدر السابق نفسه ١/ ١٧٩.
(٨) السيوطي – الاقتراح في أصول النحو ١:١٨٠.
(٩) المصدر السابق ١:٢٤٤.

هذا هو (**قياس صرفيٌّ دلاليّ**)، **الأصل الثابت الذي يُحْمَل عليه هو البناء ودلالته، والفرع المتحوِّل الذي يُحْمَل هو مادة الفعل أو الحدَث المستجدَّة**، فإذا نُقل عن العرب قولهم (اسْتَزار) على بناء (اسْتَفعل) بمعنى طَلَب الزيارة – ومن أظهر معاني (استفعل) الطَّلب – فلا شيء يمنع المتكلِّمين اليوم من أن يحملوا على هذا البناء ودلالته فعلاً آخر من غير مادة (زور)، ولكن فيه معنى الطلب، كأن يقولوا: (استنسخ) من (نسخ) بمعنى طَلَب نُسْخَةً أو صنعها أو أن يقولوا (استشفى) من شفى بمعنى: طلبَ الشفاء. ومع أن هذين الفعلَيْنْ لم يُسْمعا أو يُنْقلا عن العرب القدماء ولغتهم الفصحى، إلا أنَّ المعجم الوسيط قد أوردهما[١٠] حملاً أو قياساً على بناء (استفعل) ودلالته. وبعبارة أوضح نقول: إن القياس الذي نأخذ به ليس القياس النحوي الذي هو حَمْل فرع على أصل لعلَّة جامعة بل هو القياس الصرفيّ الدلالي الذي يعني حَمْلَ فَرْعٍ هو الفعل الذي لم يُنْقل ولم يسمع، على أَصْلٍ هو بناءٌ من أبنية الأفعال، لعلَّة جامعة بينهما هي الدلالة المنقولة لذلك البناء من طلبٍ أو تدرُّج أو تظاهر...

وإذا احتجَّ بعضهم وألَحَّ بأن السماع لم يرد بأفعال على هذه الأبنية، قلنا: «عدم السَّماع لا يقتضي عدم الاطِّراد مع وجود القياس»[١١]، وقياسنا هنا ليس على كلمةٍ نظيرةٍ مسموعة، بل على أبنية مسموعة، كما أن القياس لا يشترط وجود السَّماع لما أدَّى إليه؛ يقول ابن جني: «**ألا ترى أنه ليس كلُّ ما يجوز في القياس يخرج به سَماع، فإذا حذا إنسانٌ على مثلهم وأمَّ مذهبَهم، لم يجب عليه أن يورد في ذلك سماعاً**»[١٢]. وهذا ما نقوم به

(١٠) مجمع القاهرة – المعجم الوسيط: نسخ، شفى.

(١١) الفيومي – المصباح المنير ١/ ١٧٨.

(١٢) ابن جني – الخصائص ١/ ٣٦٣.

ونعتمد عليه في تجويز بعض الأفعال التي لم تُسْمع ولم تُنْقل، ما دام ليس كل ما يجوز في القياس يخرج به سماعٌ، وما دمنا لسنا ملزمين بالسماع، وما دمنا نحذو على مثل العرب ونؤم مذهبهم في الاشتقاق.

ولعل مما يجدر ذكره أننا لم نستحضر هذه المسوِّغات بغرض تجويز أربعة الأفعال التي وردت في عنوان البحث، بل لتكون أسساً نبني عليها في اقتراح تجويز كثير مما شاع في العربية المعاصرة من أفعال دعَتْ إليها ضرورات التواصل اللغوي أو الاصطلاح العلمّي.

٣) الأفعال (زامَنَ، تزامَن، زمَّن، تزمَّن):

وقبل البحث في كل فعل على حدة، أستظهر بقرارَيْن مهمَّين من قرارات الأصول في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهما:

أ- قرار قبول السَّماع من المحدثين، ونصُّه: «يُقبل السماع من المحدثين بشرط أن تُدرس كل كلمة على حدتها قبل إقرارها»(١٣).

ب- قرار تكملة فروع مادة لغوية لم تُذكَر بقيَّتها، وهو قرار طويل يعرض لتفاصيل كيفيَّة التكملة إن كانت فعلاً أو مصدراً أو مشتقًّا، وقد اختصره المجمع بَعْدُ بقوله: «قرر المجمع أن يوضع في كل مادة في معجم المجمع جميع ألفاظها ومشتقاتها ومصادرها، تنفيذاً لقراره في تكملة فروع مادَّة لغوية وَرَد بعضها في المعجمات، ولم ترد بقيَّتُها»(١٤).

كما أستظهر بقوانين المجامع اللغوية العربية التي جعلت من مهامها الأساسيَّة تطوير اللغة العربية وتنميتها لتكون وافية بمتطلبات العصر، وهو الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا بالبحوث الدلالية والصرفية.

---

(١٣) محمد شوقي أمين وإبراهيم الترزي – مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاماً (١٩٣٤ – ١٩٨٤):٧.

(١٤) المصدر السابق: ١٠-١١.

أولاً: مادة (زمن) في المعاجم اللغوية: ومعتمدنا فيها، على ثلاثة معاجم قديمة هي لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس، وعلى معجم معاصر هو المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ذلك أن هذه المعاجم استوعبت معظم المعاجم العربية التي صُنِّفت قبلها، وانعقد عليها إجماع اللغويين غالباً. وسنورد صيغ الأفعال والمصادر والصفات التي جاءت في هذه المادَّة، لأنه منها يكون الأخذُ والاشتقاق.

- لسان العرب: «الزَّمن والزَّمان: اسم لقليلِ الوقت وكثيره.
- الزَّمن والزمان: العصر.
- وأزَمْنَ الشيء: طال عليه الزَّمان.
- وأَزْمَن بالمكان: أقام به زماناً.
- وعامله مُزامَنة وزَماناً من الزَّمن، واستأجره مُزامنة وزماناً كما يقال مُشاهرةً من الشهر.
- والزَّمانة: العاهَة ... والزمانة الحُبّ.

وزَمِن يَزْمَن زَمَناً وزُمْنَة وزَمانةً فهو زَمِن وزمين»

- القاموس المحيط: «الزمن محرَّكة، وكسَحاب [أي زمان]: العَصْر.
- عاملة مزامنة كمُشاهرة.
- والزَّمانة: الحُبُّ والعاهة.
- زَمِن كفَرِح زَمَناً وزُمْنَةً بالضم، وزَمانة فهو زَمِنٌ وزمين والجمع زَمِنون وزَمْنى.
- وأزمن: أتى عليه الزمان».

- تاج العروس: «عاملة مزامنةً كمشاهرة من الشَّهر.
- زمِنَ كفرِح زَمَناً وزُمْنةً وزمانَة فهو زَمِنٌ وزمين.

- وأزمن الشيء: أتى عليه الزمان وطال فهو مُزْمِن.

وفي مستدرك التاج: أَزْمن بالمكان: أقام به زماناً.

- وعامَله زِماناً بالكسر (عن اللحياني).

- وأَزْمن الله فلاناً: جَعَله زَمِناً أي مُقْعداً.

-وأزمن عني عطاءه: أبطأ عليَّ، وهو مجاز».

- المعجم الوسيط: «زَمِن زَمناً وزَمانة: مرض مرضاً يدوم زماناً طويلاً.

- أَزْمَن بالمكان: أقام به زماناً.

- وأزمن الشيءُ: طال عليه الزمن.

- ويقال: أزمَنَ عنه عطاءه: أَبْطَأَ وطال زَمنُه.

-وأزمن الله فلاناً ابتلاه بالزمانة.

زامَنَه مُزامَنة: عاملَه بالزَّمن.

- المتزامِن (في علم الطبيعة): ما يتفق مع غيره في الزمن».

ويتضح مما سبق أن أبنية الأفعال الواردة صراحة من الجذر اللغوي (زمن) والتي تواطأت عليها المعاجم هي ثلاثة:

١- زَمِن: مَرِض مرضاً يدوم زماناً طويلاً.

٢- أَزْمن بالمكان: أقام به زماناً.

أَزْمن الشيء: طال عليه الزمان.

أَزْمن عني عطاؤه: أَبْطأَ عليَّ.

٣- زامَن فلاناً: عامله بالزمن كالمشاهرة.

ثانياً: الأبنية الفعلية الشائعة في الاستعمال اللغوي المعاصر من مادة (زمن):

يُلْحَظ أن الاستعمال اللغوي المعاصر قد أدخل أربعة أبنية من هذا الجذر اللغوي (زمن)، وهي: (زامَن - بدلالة جديدة - وتزَامن، وزمَّن،

وتَزَمَّن). وقد ذاعت بمعانٍ محدثة احتاج إليها متكلِّمو العربية رغبةً في دقَّة التعبير وتنويع الدلالة العامة للجذر. وهذا ما يقتضينا أن نبحث لنرى إمكان ضمِّها إلى المعجم العربي المعاصر، مكمِّلين مادة لغوية ذُكِر بعضها ولم تُذكر بقيَّتُها، مسترشدين بخصائص العربية من اشتقاق وقياس، إذْ لا يجوز لعدَمِ ورودها في المعاجم القديمة ومعظم الحديثة أن يقف حائلاً دون إقرارها ما دام القياس الصرفي الدَّلالي يؤدي إليها.

١ - الفعل (زامن) بمعنى عاش مع بعضهم في زمن واحد:

لم يرد هذا الفعل في المعاجم القديمة والحديثة المعتمدة – كما قدَّمنا – بهذه الدلالة الجديدة. أما الدلالة القديمة فهي: استأجره أو عامله مُدَّة محدَّدة من الزمن، كما ورد في لسان العرب: «عامَلَه مُزامنة وزماناً من الزمن... واستأجرته مزامنة وزَماناً، كما يقال مشاهرةً من الشهر». ومثله في التاج. ويُلحظ أن الفعل (زامَنَ) لم يُذْكَر نصّاً بالصيغة الفعلية في المعاجم القديمة، والذي ذكره هو المعجم الوسيط بقوله: «زامَنَه مُزامنةً: عامله بالزَّمن» وهذا تحصيل حاصل، فما دام المصدر قد ورد نصّاً على بناء (مُفاعَلة وفِعال) كما في مستدرك في التاج، فإن فعله هو (زامَن)؛ إذ إن هذين البناءين هما المصدران القياسيان لكل فعل على بناء (فاعَل)، أي إن الفعل (زامن) موجود بقوة القياس في المعاجم التراثية، بمعنى عامله بالزمن كالمياومة والمشاهرة والمسانهة.

إلا أنَّ الدلالة المحدثة لهذا الفعل هي: عاش مع آخرين أو مع بعضهم في زمن واحد، وهي دلالة لم تذكرها معاجمنا القديمة ومعظم الحديثة.

والذي نراه أن هذه الدلالة الجديدة لهذا الفعل ممكنة، بالقياس على ما ورد في المعاجم القديمة من أن «الزمن هو العصر»، فقولنا (زامن) يُصبح

مرادفاً لقولهم (عاصَر)، ومن المعروف أن المعاجم القديمة استعملت الفعل (عاصر)؛ إذ ورَد في عبارةٍ من القاموس المحيط وتاج العروس (ورر): «الوَرْوريُّ نحويٌّ عاصر أبا تمام» أي عاش في عصره، وما دام الزمن هو العصر، وما داموا قد اشتقوا من العصر الفعل (عاصَر) لمعنى عاش مع آخرَ في عصر واحد، فقولنا (زامن) على بنائه ومعناه صحيح، وعبارتنا: (بدوي الجبل شاعر كبير عاصر أحمد شوقي) لا تختلف عن عبارة القاموس والتاج المذكورة. ومن ثَم يجوز استعمال الفعل (زامن) متعدِّياً بمعنى (عاصر) أي شاركه في الزمن والعصر. ومن المعروف صرفيًّا أن أظهر معاني بناء (فاعَل) هو المشاركة، فقولنا (زامن بدوي الجبل شوقيًّا) يعني شاركه في الزمن والعصر الذي عاش فيه.

٢- الفعل (تزامَن) بمعنى عاش مع غيره في زمن واحد أو وقع حدثٌ مع غيره في وقت واحد. وهو المعنى نفسه الذي شاع للفعل (زامَن) على بناء فاعَل، والفرق بينهما أن الفعل (تزامَن) هو فعل لازم، لأنه مطاوِع لفعل (زامَن) المتعدي، وتصبح جملة (زامَن البحتريُّ أبا تمام) المتعدية، بمعنى (تزامَن البحتريُّ وأبو تمام) أي عاشا في زمن واحد، ومن المعروف صرفيًّا أنَّ من معاني (تفاعَل) مطاوعة (فاعَل) نحو ضَاعَفْتُ الحسابَ فتضَاعَف الحسابُ، وناولت زيداً الكتاب فتناوله زيدٌ، ووالیت الصومَ فتوالى الصومُ، وواضح أن المطاوعة نقلت الأفعال السابقة من صيغة التعدِّي إلى صيغة اللزوم، وكذا الفعل (تزامن) اللازم هو مطاوع فعل (زامن) المتعدي.

كما أنَّ أظهر معاني بناء (تفاعَل) المشاركة، نحو: تحاور القومُ: إذا تبادلوا الكلام فيما بينهم، وتسابق العدَّاؤون: إذا سابق بعضهم بعضاً. وهذان المعنيان أي مطاوعة (فاعَل) المتعدي، والمشاركة هما ما يؤديهما قولنا:

(تزامن الشاعران) أي عاش كل منهما في زمن الآخر وعصره. وقد استعمل المعجم الوسيط اسم الفاعل من (تزامن) فقال: «المُتَزامن (في علم الطبيعة): ما يتَّفق مع غيره في الزَّمن» ولكن دون أن يذكر الفعل (تزامن)، أما معجم اللغة العربية المعاصرة فقد أورد الفعل (تزامن). بمعنى حدث مع غيره في وَقْت واحد، كما أورده بمعنى (تعاصَر) بقوله: «تزامن الشخصان: تعاصرا، عاشا في زمن واحد»[١٥]، ومثَّل له بقوله: (تزامن الرافعيّ والشاعر أحمد شوقي)، وقد ورد هذا الفعل في مقالات وبحوث مجلة مجمع القاهرة.[١٦]

٣- الفعل (زمَّن) بمعنيَيْن:

الأول: زمَّن بمعنى جعل الشيءَ مُزْمناً طويلاً. كقولنا: (زمَّن الاستعمار تجزئة الوطن العربي)، أي جعلها مشكلة طويلة مُزْمِنة، أو قولنا: (زمَّن الغربُ القضيَّة الفلسطينية)، بالمعنى السابق نفسه.

وقولنا: (زمَّن الشيءَ) بمعنى جعله مزمناً طويلاً، لا إشكال فيه لأن من معاني (فعَّل) موافقة (أَفعْلَ) في معنى الجَعْل والتَّصْيير. وما دام قد نُقل قولهم في مستدرك التاج: «أَزْمَن اللهُ فُلاناً: جعَله زمِناً أي مُقْعداً» فإن قولنا (زمَّن المشكلةَ) بمعنى جعلها طويلة مُزْمنة صحيح، بخلاف أن الجَعْل في قولهم، انصرف إلى الزَّمانة وهي عاهة جسديّة، أما في قولنا فقد انصرف إلى العاهة المعنوية الطويلة، وهو مجاز سائغ، كما ساغ مجازهم في مستدرك التاج عندما قال: «وأزْمَن عني عطاؤهُ: أبْطأ وهو مجاز» وهو بصيغة اللزوم، وعندما قال في المعجم الوسيط: (أزمَن عني عطاءَه: أبطأ وطال زمنه» ولكن بصيغة التعدِّي.

---

(١٥) د. أحمد مختار عمر وفريقه – معجم اللغة العربية المعاصرة: زمن.

(١٦) مجلة مجمع القاهرة – (الأعداد ٨١ – ١٠٢) بحسب المكتبة الشاملة.

الثاني: (زمَّن) بمعنى حدَّد أزمان الأشياء ومواقيتها، كما في قولنا (زمَّن سَدادَ الدَّين) أي جَعَل لسداد الدين أزماناً محدَّدة. ومعروف أن من معاني بناء (فعَّل) الإحداث في وَقْت، كما في قولهم صبَّح الرجُل ومسَّى إذا أتى صباحاً ومساءً، وقولهم: (هجَّر البدوي: إذا سافر في الهجير أو الهاجرة) وهو وقت الظهيرة. ويَعضد هذا المعنى أن قولهم « (وَقَّت الشيءَ) يعني جَعل له وَقْتاً يُفْعل فيه... وحدَّد للشيء مقدار المدَّة، ووَقَّت الشيء ليوم كذا أجّله: [أي حدَّد له أجلاً معيَّناً]»[١٧]. فقولنا: (زمَّن سداد الدَّين) لا يختلف عن قولنا: وَقَّت سداد الدين؛ إذا جعل له أوقاتاً للسداد، ولا سيما أن من معاني الزمن: (القليل من الوقت وكثيره)، كما سبَق. فإذا جاز قولنا: وَقَّت سداد الدين، أو وَقَّت الامتحانات، جاز قولُنا (زمَّن سدادَ الدين أو زمَّن الامتحانات).

ومما يجدر ذكره أنه قد جاء على هذا البناء في الأفعال ما مجموعُه ألفان وسبع مئة وتسعة عشر فعلاً (٢٧١٩) بين لازم ومتعدٍّ.[١٨] أي إنه قد صيغ على هذا البناء نحو نصف الأفعال الثلاثية.

٤ – الفعل (تَزَمَّن) بمعنى أَحْدَث الشيء على مدى زمنٍ طويل مُتَتَبِّعاً إياه.

يستعمل بعض الكتاب والمترجمين هذا الفعل، ولا سيما في صيغة المصدر المنسوب، كأن يقولوا: (قام الباحث بدراسة تَزَمُّنيّة لظاهرة التغيُّر المناخي)، ويعنون بها أن الباحث قد تتبَّع بالتدرُّج هذه الظاهرة على مدى طويل من الزمان، أو أن يقولوا: (بيَّنت الدراسة التزمُّنيَّة للشعر العربي أن فنَّ الهجاء آخذ بالاضمحلال).

وكما هو واضح، فإن التَّزمُّنيَّة هي نسبة إلى المصدر (تَزَمُّن) من الفعل

(١٧) مجمع القاهرة – المعجم الوسيط: وقت.

(١٨) عن معجم معاني الأبنية للجنة المعاجم لمجمع دمشق: ٢٠ (في قيد الإعداد).

(تَزَمَّن) الذي يمكن أن يدلَّ على تَتَبُّع مسألةٍ ما على مدى زمن طويل، وهذا ما يُسَمَّى – في علم المناهج – المنهج التاريخي، الذي يعني دراسة المسألة أو المشكلة على امتدادها زمنيًّا أو أفقيًّا، إن صحَّ التعبير.

ومما يمكن أن يُحْتَجّ به لهذا البناء ودلالته المستجدة أشياء:

الأول: أن من معاني بناء (تفَعَّل) التدرُّج و التَمَهُّل. نحو: تَفَحَّص الآلة: إذا فحصّها مرة بعد مرَّة، ونحو تَشَمَّم الوردَ: إذا شمَّه في مُهْلة. ومما تدلُّ عليه الدلالة المقترحة للفعل (تزمَّن) أيضاً التدُّرج والتَمهُّل.

الثاني: أن من معاني هذا البناء في العربية المبالغةَ والكثرة، كقولهم: تَطَلَّب الشيءَ إذا طلبَه مرَّة بعدَ مرَّةٍ، وقولهم: تقلَّب على الرَّمضاء إذا انقلب عليها مراراً، وقولهم: تَعَثَّر لسانُه إذا كثرت عثراتُه. وكذا الفعل (تزمَّن) يعني تقصِّي المسألة على مدى طويل، وهو نوع من المبالغة والكثرة.

الثالث: أن من دلالة هذا البناء في العربية الاشتقاقَ من الاسم وملابسته، كما يقال: تَتَرَّب إذا تَعَفَّر بالتُراب، وتَجوَّع إذا تَعَمَّد الجُوع، وتشدَّق في كلامه: إذا لوى شِدقه فيه.

ويمكن حمل هذا الفعل كذلك على الاشتقاق من الاسم (الزَّمن) وملابسته للدلالة على الإحداث تَدَرُّجاً عبر أزمان طويلة.

وكما نرى فإن هذه المعاني الثلاثة كلها تجتمع في فعل (تَزَمَّن)، ذلك أن مما يفيده: التدرُّج، والتتابُع، والمبالغة والكثرة بالنظر لامتداد الحدث في الزمان، وملابسة الاسم (الزَّمن).

وثمَّة معنى آخر لهذا الفعل هو مطاوَعة الفعل (زمَّن)، بمعنى حدَّد زمناً لشيءٍ ما، كما قدمنا في مثالنا: (زمَّن المصرف سداد القرض)، وهذا الفعل الأخير أي (زمَّن) متعدٍّ، ويأتي فعل (تزمَّن) لازماً مطاوعاً له، فيُقال: (زمَّن المصرف سداد

القَرْض فَتَزَمَّن القَرْضُ. ومعروف صرفيًّا أن مما يعنيه بناء تَفَعَّل مطاوعة (فَعَّل) نحو: أَدَّبْتُ الغلامَ فتأدَّبَ الغُلامُ، ونحو عَرَّبْنا التعليمَ فتَعربَ التعليمُ.

ونحن بحاجة إلى هذا الفعل ومصدره للتمييز في المنهج بين (الدراسة التزامنيَّة) وهي دراسة ظاهرتين في وقت واحد وزمان واحد، كأن يقوم باحث بدراسة تزامنيّة لفن الرواية العربية، أي دراسة الآثار الروائية التي كتبت في زمن واحد أو أزمان متقاربة كالنصف الثاني من القرن العشرين مثلاً، وبين أن يقوم بدراسة تزَمُّنية لها، أي أن يدرس فن الرواية العربية في تتابعها التاريخي وتطورها منذ نشأتها قديماً إلى الزمن الحاضر.

وقد جاء على هذا البناء ألفان وثلاثمئة وتسعة وعشرون فعلاً (٢٣٢٩)[١٩]، أي تحوَّل إلى هذا البناء نحو نصف الأفعال الثلاثية.

أخلص من هذا البحث إلى اقتراحين:

الأول: جواز استعمال كل من الأفعال الآتية بمعانيها الجديدة وهي:

١. زامن: بمعنى عاش مع بعضهم في زمن واحد كقولنا: (زامَن الشاعر نزار قباني الشاعرَ محمود درويش).

٢. تزامَن: بمعنى عاش مع غيره في زمن واحد مطاوعاً لفعل زامن كقولنا: (تزامن الشاعران القباني ودرويش).

٣. زمَّن: بمعنيَيْن:

أ- بمعنى حدَّد للشيء أو الحدث زمناً أو أوقاتاً كقولنا: زمَّن المصرفُ سداد القَرْض.

ب- بمعنى جَعَل الشيءَ مُزْمِناً طويل الأمد، كقولنا: (زمَّن القضيَّة الفلسطينية).

(١٩) عن معجم معاني الأبنية للجنة المعاجم في مجمع دمشق (في قيد الإعداد).

٤. تَزَمَّن: بمعنى تَتَبَّع الشيء أو الحدثَ على مدى أزمنة متعدِّدة. كقولنا: (بيَّنت الدراسة التزمُّنيَّة للشعر العربي اضمحلال فن الهجاء فيه).

الثاني: إضافة هذه الأفعال بدلالاتها المستجدَّة مع مصادرها ومشتقاتها إلى المعجم العربي.

* * *

المصادر والمراجع

١- إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي – أ. مروان البواب ود. محمد مراياتي ود. يحيى مير علم ود. محمد حسان الطيان –مكتبة لبنان – ناشرون – بيروت، ١٩٩٦.

٢- الاقتراح في أصول النحو – السيوطي –تح د. محمود فجَّال – دار القلم – دمشق ط١ (١٩٨٩).

٣- تاج العروس – الزبيدي – دار الهداية - (د.ت).

٤- الخصائص – ابن جني – الهيئة العامة المصرية للكتاب ط٤.

٥- القاموس المحيط – الفيروزآبادي - مؤسسة الرسالة – بيروت (٢٠٠٥).

٦- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت.

٧- مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاماً – محمد شوقي أمين إبراهيم الترزي – مطبوعات مجمع القاهرة – الهيئة العامة للمطابع الأميرية (١٩٨٤).

٨- المصباح المنير – الفيومي –المكتبة العلمية – بيروت (د.ت).

٩- معجم اللغة العربية المعاصرة- د. أحمد مختار عمر وفريقه –عالم الكتب – ط١ – (٢٠٠٨).

١٠- المعجم الوسيط - مجمع القاهرة –.

صوت الصدر بين الهمس والجهر

أ. د. أحمد محمد قدّور(*)

تمهيد :

رأينا حين عرضنا لأصوات اللغة عند سيبويه(١) أنّ المجال ما يزال قابلاً لإعادة النظر، وتفسير الغامض، وتوجيه ما اختلف فيه توجيهاً جديداً. ثم انتهينا في الحديث عن الجهر والهمس عند سيبويه(٢) إلى أنّ ما أورده صاحب لسان العرب من تعريف للهمس والجهر يكاد يفسِّر تفسيراً «جديداً» دور صوت الصدر في عملية الجهر، على أمل أن تجمع المادة الصالحة لتخصيص صوت الصدر ببحث مستقلّ. وقد نَبَّهَنا ما ذكره ابن منظور إلى ضرورة مراجعة المعاجم لسدّ النقص الملحوظ في تعريف الجهر والهمس لدى النحاة ودارسي اللغة عامة، ولدى سيبويه خاصة. ومعروف أنّ سيبويه لم يذكر صوت الصدر حين عرّف الجهر والهمس في مقدمة باب الإدغام، مع أنه ذكره في موضوع متقدم على باب الإدغام حين عرض للحروف المشربة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: بحثنا «أصوات اللغة عند سيبويه»، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد(٨٦)، الجزء الثاني لعام٢٠١١، ص٣٦٣-٣٨٨.

(٢) انظر: بحثنا «الجهر والهمس عند سيبويه في ضوء الدرس الحديث»، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثالث لعام٢٠١١، ص٦٩٣-٧١٢.

ولا شك في أنّ التأليف المنظم في علوم العربية كان جديداً في عهد سيبويه، لذلك وجدت أشياء من مباحث الكتاب موزعة بين أبوابه وفق الحاجة إلى تناولها، كما وجدت عنوانات يشترك فيه أكثر من باب، ومصطلحات تنطبق على ظواهر متعددة. ومعروف لدى الدارسين أنّ من مصطلحات سيبويه ما ثبت واستقرّ، ومنها ما اختصر وأعيدت صياغته، ومنها ما تغيّر، أو لم يجد سبيلاً إلى الحياة في المصنفات التالية[٣]. ولقد تأكد لنا من عملنا في كتاب سيبويه أن مفتاح الكثير من المسائل الغامضة يكمن لدى الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما روي عنه في مصادر متعدّدة نقلها تلاميذه، وبثوها في شروح الكتاب، أو في المعاجم وكتب النحو واللغة الأخرى، على نحو ما جاء لدى الزَّجاج وابن دريد والأزهري والسيرافي وغيرهم. وأذكر أنني حين شرعت أعمل في مقدمة كتاب العين للخليل واجهت صعوبات تتعلق بإثبات ما رواه الليث بن المظفر عن شيخه الخليل، وتفسير غوامضه، فعمدت أنظر في روايات وردت عن الخليل في كتب أخرى جاءت عن غير طريق الليث، لأذلِّل ما أشرت إليه من صعوبات، وأثبت ما تأكد لي من روايات.

صوت الصدر في الفرق بين الهمس والجهر:

أورد الخليل في مادة «همس» تعريفاً للهمس ذكر فيه صوت الصدر، كما ذكر فيه «الإشراب». وهما من مصطلحات الكتاب لسيبويه. وجاء فيه: «الهمس: حسّ الصوت في الفم مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفم كالسرّ...»[٤] وجاء في

(٣) انظر: الحديثي، خديجة عبد الرزاق، «المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه»، مؤتمر النقد الأدبي الخامس بجامعة اليرموك، ١٤/ ٦-١٦/ ٦/ ١٩٩٤م، ص١-٤.

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مادة «همس» ٤/ ١٠.

تفسير «الإشراب»: «والإشراب: لون قد أشرب في لون، يقال أُشرب فلان حبّ فلانة، أي خالط قلبه..».

وجاء في تهذيب اللغة للأزهري (ت٣٧٠هـ) في مادة «همس»: « قال الليث - راوي كتاب العين - الهمس حسّ الصوت في الفم، مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفمّ كالسرّ..»، وفي موضع تالٍ يرد قول شمر (شِمر بن حمدويه ت٢٥٥ هـ): «الهمس من الصوت والكلام: ما لا غور له في الصدر، وهو ما همس في الفم». وشمر- كما وصفه الأزهري- لقي أصحاب النضر بن شميل والليث ابن المظفر- تلميذَي الخليل- فاستكثر منهم(٥).

وفي لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ) يرد نصّ كتاب العين دون عزو، على النحو التالي: «الهمس والهَمِيس: حسّ الصوت في الفم، مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفم كالسرّ»(٦)، كما يرد كلام شمر السابق. والكلام كلّه منقول من تهذيب اللغة للأزهري. وفي تاج العروس للزبيدي (ت١٢٠٥هـ) يرد النصّ الذي يعرّف فيه الهمس معزوًّا إلى الليث، كما تقدّم في تهذيب اللغة. ونقل الزبيدي زيادة من ابن جني جاء فيها: «قال ابن جني: فأما حروف الهمس فإن الصوت الذي يخرج معه نَفَس، وليس من صوت الصدر، إنما يخرج منسلًّا»(٧).

(٥) الأزهري، تهذيب اللغة، ٦/ ١٤٢-١٤٤، مادة (همس) وانظر أيضاً١/ ١٧،٢٥ من التهذيب نفسه. وانظر وصف الخليل وتلاميذه ومنهم سيبويه في كتاب تذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي، ص٦٨٩-٦٩٠ وانظر نص شمر السابق في كتاب : مرويات شمر بن حمدويه اللغوية لحازم سعيد يونس البيّاتي، ص٩٢٥.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ٦/ ٢٥٠-٢٥١، مادة همس، والفيروزآبادي، القاموس المحيط مادة (همس).

(٧) الزبيدي، تاج العروس، ١٧/ ٤٠-٤٣، مادة همس.

ويتبيّن مما تقدّم أنّ الخليل صاحب التعريف السابق، فرّق بين حسّ الصوت في الفم وحده - وهو الهمس -، وبين إشراب «الصوت» صوتاً من الصدر، مع جهارة في المنطق، وهو الجهر. والخليل لا يذكر الجهر مصطلحاً ههنا، إنما يكتفي بتعريف ضدّه الهمس. لكنه يبيّن شرطين للمجهور هما: مزجه بصوت الصدر، ومصاحبته لقوة النطق، أي للجهارة. أما صوت الفم فهو مقصور عليه وحده، على حين أن المجهور له غور، أي عمق أو بعد في الصدر، كما عبّر شِمر فيما نقل عنه. وهكذا يتضح مصدر كلام سيبويه الذي عرّف به «الحروف المُشْرَبة»، وذكر فيه صوت الصدر. وأرى أن تفسير المشربة يجب أن ينطلق من تعريف الخليل قبل تحليل كلام سيبويه. ويبدو أن سيبويه لم يجد ضرورة لشرح كلامه، لأنه يعبّر عن معرفة شائعة لدى أهل الاختصاص ممّن تلقوا عن الخليل وألّفوا في علمه. والغريب أن يذهب أحد العلماء الفضلاء إلى أنه لا ذكر للمجهور والمهموس في كتاب العين بإطلاق[٨]. ولو أن هذا العالم اقتصر في حكمه على مقدمة كتاب العين لكان حكمه صحيحاً.

ونقل إبراهيم أنيس نصّاً من مخطوطة لشرح السيرافي لكتاب سيبويه عن الأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ) يسأل فيه عن الفرق بين المجهور والمهموس. ويبدو أن أنيس أول من تفطن لهذا النص، والفضل للمتقدّم، وفيه ذكر لصوت الصدر. وفي النص إشارة مهمة إلى أن الكلام الذي رواه الأخفش ربما كان منقولاً من الخليل لا من سيبويه. وأبرز ما جاء في النصّ المشار إليه قول السيرافي فيما روى عن الأخفش في الفرق بين المجهور

(٨) انظر: الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص١٢٨، الحاشية رقم (٤١).

والمهموس، عن سيبويه (أو الخليل): «فإنك لا تصل إلى تبيُّن المجهور إلَّا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر. فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجري في الحلق.. أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها، وذلك مما يزجي الصوت، ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم في المجهور، فأخرج الصوت من الفم ضعيفاً... فإذا قلت شَخَصَ فإن الذي أزجى هذه الحروف صوت الفم، لكنك تُتْبِع صوت الصدر هذه الحروف بعدما يزجيها صوت الفم ليبلغ ويفهم الصوت»[٩].

وفسّر أنيس صوت الصدر بأنه ربما كان صدىً لذبذبة الوترين الصوتيين في الحَنْجرة، وفهم أن المجهور له مصدران للتصويت، أحدهما حنجري، والآخر فوق حنجري، على حين أن المهموس له مصدر واحد هو «الفم» وحده، ولا عمق له في الصدر[١٠]. ونقل (هنري فليش) النصّ نفسه في كتابه «العربية الفصحى»، وانتهى إلى أنّ الفرق بين المهموسة والمجهورة هو «صوت الصدر» غائب في الأولى، موجود ضرورة في الثانية بسبب ارتفاع الصوت[١١]. وكذلك نقل غانم قدوري الحمد النصّ مشيراً إلى إبراهيم أنيس، ومنتهياً إلى ما انتهى إليه من تفسير. واستنتج قدوري الحمد أنّ «صوت الصدر» هو جوهر الأصوات المجهورة، على رأي سيبويه[١٢].

وأشار ابن جني (ت٣٩٢هـ) في مواضع من كتابه «سرّ صناعة الإعراب» إلى «صوت الصدر». من ذلك أنه ذكر الصدى المنبعث من الصدر حين عرض

(٩) انظر: أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص١٢٢.

(١٠) انظر: السابق، ص١٢٣.

(١١) انظر: فليش، هنري، العربية الفصحى، تعريب عبد الصبور شاهين، ص٢٠٠ وكتاب فليش صدر بالفرنسية عام١٩٥٦م.

(١٢) انظر: الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية، ص١٣١.

لحروف العلة «الصوائت الطويلة»: الألف والواو والياء. ويمكن أن يفهم من الصدى أنه الرنين المرافق لحركة الوترين الصوتيين. وقد علّق (هنري فليش) على ذلك بقوله: «يعالج ابن جني أولاً مسألة وجود صوت يطلق عليه الصدى الذي يصدر من الصدر. وهنا نتعرف جهل ابن جني لدور الحبال الصوتية، وهو جهل يشركه فيه جميع النحاة العرب، غير أن جهلهم بالسبب لا يستتبع مطلقاً أنهم لم يستطيعوا إدراك الأثر. فهم قد لاحظوا إذن «صوتاً» كان يخرج من الصدر، وهو صوت الصدر على ما عبّر عنه سيبويه»(١٣). كما أنّ ابن جني ذكر صوت الصدر حين عرض للحروف المشربة كما سنشير لاحقاً.

ونقل بعض علماء العربية والتجويد - كما يقول غانم الحمد - فكرة صوت الصدر وصوت الفم المميِّزة بين المجهور والمهموس عند سيبويه - هي للخليل كما حقّقنا - ولكن دون نسبتها إليه. من ذلك ابن بسطام (كان حيًّا سنة ٤٢٥هـ) الذي جعل صوت الصدر مجهوراً. «.. وإنما سميت مجهورة، لأن الاعتماد يسمع في موضع الحرف منها، فلا يجري النفس حتى ينقضي الاعتماد، وخرج صوت الصدر مجهوراً»(١٤). وجاء في شرح المفصل لابن يعيش (ت٦٤٣هـ) «أنّ المهموسة هي التي تُرَدَّد في اللسان بنفسها، أو بحرف اللين الذي معها، ولا يمتنع النَّفَس. والصوت الذي يخرج معها نفس وليس من الصدر»(١٥). كما ذكر الأستراباذي (ت٦٨٦هـ) في شرح الشافية: «والمجهورة تخرج أصواتها من الصدر، والمهموسة

(١٣) انظر: فليش، هنري، «التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب لابن جني»، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع القاهرة، مجلد (٢٣) لسنة ١٩٦٨، ص٥٨.

(١٤) انظر: الحمد، مرجع سابق، ص١٣٢-١٣٣.

(١٥) انظر: ابن يعيش، شرح المفصّل، إدارة الطباعة المنيرية، ١٠/ ١٢٩.

تخرج أصواتها من مخارجها في الفم، وذلك مما يرخي (أو يزجي؟) الصوت فيخرج الصوت من الفم ضعيفاً. ثم إن أردت الجهر بها وإسماعها أتبعت صوتها بصوت من الصدر ليفهم»[١٦].

صوت الصدر والحروف المشربة:

رأينا فيما تقدّم أن الخليل هو أول من ذكر صوت الصدر وإشرابه لغير المهموس، أي للمجهور، ورأينا أنّ ما رواه الأخفش الأوسط يؤكد أن صوت الصدر معيار الفصل بين المجهور والمهموس. أما الإشراب فقد ذكره سيبويه حين عرض لتحريك الساكن السابق لآخر الحروف في الوقف. ولم يكن سيبويه يعرض هنا تعريفاً مقصوداً للمجهور والمهموس كما سيرد عنده في موضع لاحق[١٧]. ويصف سيبويه حروف القلقلة بالحروف المشربة – دون شرح – كما يصف من المشربة حروفاً يخرج معها نحو النفخة، مع أنها لم تضغط ضغط الأولى، «لأن هذه الحروف إذا خرجت بصوت الصدر انسلّ آخره وقد فرَّ من بين الثنايا لأنه يجد منفذاً فتسمع نحو النفخة»[١٨]. ومنها حروف مشربة لا تَسْمع بعدها في الوقف شيئاً، لأنها ليست مضغوطة كحروف القلقلة، ولا تجد منفذاً كالحروف التي يخرج معها نحو النفخة، وهي الزاي والظاء والذال والضاد. أمّا الحروف الخالية من الصُّوَيْت الحادث في أثناء القلقلة، ومن نحو النفخ في الحروف الأربعة، فهي اللام والنون والميم والعين والغين والهمزة. ويذكر سيبويه الحروف

(١٦) انظر: الأستراباذي، شرح الشافية، ٣/ ٢٥٨-٢٥٩، ولعلّ صواب (يرخي) يزجي، كما تقدّم في معظم النصوص.

(١٧) انظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، ٤/ ١٧٤-١٧٦.

(١٨) انظر: السابق، ٤/ ١٧٤.

المهموسة على هذا النحو: « وأما الحروف المهموسة فكلها تقف عندها مع نفخ، لأنهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر، وإنما تنسل معه...»[١٩].

ويتضح مما تقدّم أن سيبويه صدر عن تعريف الخليل للمهموس الذي لم يشرب صوت الصدر. فالمُشْرب إذن في هذا السياق يقابل المهموس، فليس للمشرب معنىً إلا أنه الذي أُشرب صوت الصدر. فكلّ الحروف التي وصفها سيبويه بالمُشْرَبة مجهورة. أما المهموسة فذكر نصًّا أنها تخرج بالتنفس لا بصوت الصدر. فصوت الصدر إذن علامة على المجهور دون المهموس.

وقد ذكر السيرافي (ت٣٦٤هـ) في شرحه لكتاب سيبويه النوع الأول من المشربة، وهي حروف القلقلة، وأضاف إليها الكاف. ونقل المقطع الثاني المتصل بالحروف التي يخرج معها نحو النفخة، وحرّف العبارة، فصارت «لا يجد منفذاً»، والصحيح أنه «يجد منفذاً» كما جاء لدى سيبويه في وصف صوت الصدر الذي ينسل آخره من بين الثنايا، لأنه يجد منفذاً. وأضاف السيرافي حين عرض لهذه الحروف السابقة، أن سيبويه ذكرها لأنها من الحروف المجهورة. لكنّ السيرافي يزعم أن سيبويه ذكر التاء في حروف القلقلة، كما سبق أن زعم أن سيبويه ذكر الكاف مع هذه الحروف، وهذا خطأ محض، ولم يرد شيء من ذلك في الكتاب، كما وصل إلينا[٢٠].

ونقل ابن جني ملخصاً لكلام سيبويه، ذكر فيه أن حروف الهمس يخرج الصوت معها، وهو نَفَس، وليس من صوت الصدر. لكن ابن جني أهمل وصف النوع الثالث مما ذكره سيبويه، وهو: «حروف مشربة» لا تسمع بعدها شيئاً من الضغط أو نحواً من النفخ. فقال: «ومن الحروف ما لا تسمع

(١٩) انظر: السابق، ٤/ ١٧٥.

(٢٠) انظر: فائز عبد المنعم، السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، ص٤٢٥-٤٢٧.

بعده شيئاً مما ذكرناه...». وليس هناك تفسير مقبول لإسقاط صفة «مشربة» من هذا النوع لدى ابن جني[٢١].

وذكر ابن عصفور (ت٦٦٩هـ) في تقسيم صفات الحروف أنّ : منها متقلقل، ومشرب، وما ليس فيه قلقلة وإشراب. ويفهم من هذا التقسيم أنّ المشرب هو الذي ينطبق على الحروف الأربعة: الزاي والظاء والذال والضاد فقط. لكن ابن عصفور سرعان ما يخل بالقسمة حين يذكر بعد المتقلقل والمشرب قسماً هو: ومن المشرب: ما لا يخرج بعده شيء من ذلك. ويقصد بذلك: ما ليس فيه قلقلة ولا إشراب؟ وعلّق محقّق الممتع ناقلاً من سرّ الصناعة أنّ الصواب هو: ومن الحروف، لأنه يذكر الحروف التي ليس فيها قلقلة ولا إشراب[٢٢]. وهذا التعليق خطأ واضح، لأنّ المشربة كما ذكر سيبويه، وهو المعتمد تشمل حروف القلقلة، وحروف نحو النفخ، والحروف التي ليس معها قلقلة ولا نحو نفخ، يقابلها المهموسة التي تتصف بالنفخ لخروجها مع التنفس لا صوت الصدر.

وليس لدى الأستراباذي في شرح الشافية ذكر «للمشربة». إذ يذكر مصطلحات: القلقلة والمهموسة وبعض الحروف لشرح الأقسام التي وجدناها لدى سيبويه سابقاً. ويذكر مع حروف القلقلة أنّ «شدة الصوت المتصعّد من الصدر مع ضغط اللسان في مخرجها في الوقف يمنع خروج ذلك الصوت»[٢٣]. لكن الأستراباذي يضيف إضافة خاطئة حين يزعم أنّ الحروف التي لا يصحبها في الوقف قلقلة أو شبه نفخ أو نفخ، وهي اللام والنون والميم

(٢١) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي،١/ ٦٣-٦٤.

(٢٢) انظر: ابن عصفور، الممتع، تحقيق فخر الدين قباوة، ٢/ ٦٧٥-٦٧٦، الحاشية رقم (١) من الصفحة السابقة.

(٢٣) انظر: الأستراباذي، شرح الشافية، ٣/ ٢٦٣.

والعين والغين والهمزة، لم يتصعّد معها من الصدر صوت يحتاج إلى إخراجه، وأيضاً لم يحصل ضغط تام[٢٤]. والصحيح هو ما ذكره سيبويه.

وأشار الخضر اليزدي (أتمم شرحه للشافية عام٧٢٠هـ) إلى أن القلقلة تحصل لأن الحروف شديدة مجهورة، فالجهر يمنع النفس أن يجري معها، والشدة تمنع أن يجري صوتها، فلما اجتمع هذان الوصفان احتاجت إلى التكلف في بيانها، فلذلك يحصل ما يحصل من الضغط[٢٥].

ووقف من المحدثين عبد الصبور شاهين في كتابه «في التطور اللغوي» على ما أطلق عليه، صورة أخرى لتفكير سيبويه في الجانب الأدائي، شارحاً نصّ سيبويه حول الحروف المشربة، ورأى أن التفرقة بين المجهور والمهموس تقوم على أساس أن الصوت المجهور يصدر من الصدر والفم، على حين أن المهموس ليس له إلا الفم وحده. ورأى شاهين أن سيبويه لم يعرف الحنجرة - والصواب: الوترين الصوتيين داخل الحنجرة- لكنه عرف أثر ما يحدث فيها، أي في الصدر من ذبذبة[٢٦]. ولا جدال في ذلك، فالكلام معروف، وقد سبق إليه المستشرقون.

وينتهي شاهين إلى أن سيبويه أراد بالمشربة أنها مجهورة، ويكون ذلك نوعاً من التعبير عن الجهر سنح له في مرحلة متقدمة من تأليف الكتاب، حيث تصور أن (صوت الفم) أشرب (صوت الصدر) ثم صنف على هذا الأساس كل الأصوات (المشربة) في رأيه. ثم عدل فيما بعد عن الوصف (مشرب) إلى الوصف (مجهور) في مقابل (مهموس) وذلك في آخر

(٢٤) انظر: المرجع السابق،٣/ ٢٦٣، وقارن بكتاب سيبويه،٤/ ١٧٥.

(٢٥) انظر الخضر اليزدي، شرح الشافية، تحقيق حسن عثمان،٢/ ١٠٠٥.

(٢٦) انظر: شاهين، عبد الصبور، في التطور اللغوي، مؤسسة الرسالة، ص٢١٢-٢١٣.

الكتاب، إذ كان في نظره أنسب. ويؤيد ذلك - كما يقول شاهين - أن سيبويه وضع مقابل (المشربة) (المهموسة). فالمهموسة لم تشرب صوت الصدر، أي إنها ليست مجهورة[٢٧]. والكلام صحيح، لكنّ سيبويه يصدر عن علم الخليل وما أسّسه وأرساه في كتابه العين ابتداءً، أما استعماله مصطلحاً آخر هو (الجهر) فله شأن آخر قد لا نستطيع تأويله بما نملك من أدلة. فسيبويه يُعْرِض عن ذكر الجهر في موضع قريب من حديثه عن «المشربة». إذ يقول في باب الوقف في الواو والياء والألف: «وهذه الحروف غيرُ مهموسات، وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت....»[٢٨]. فهل يمكن تفسير هذا العدول عن مجهورة إلى غير مهموسة؟ إنّ ما نستطيعه هو ما يتوفر له الدليل، ويعضده الاستنتاج، وتقرّبه الأمثلة والنظائر. ويرى شاهين أن هناك مواضع في كتاب سيبويه عدل فيها عن استعمال مصطلحات تقدمت في أوله، فتغيرت في ثناياه وفي آخره[٢٩].

ووقف غانم قدوري الحمد على نصّ سيبويه بشأن الحروف المشربة، ورأى أن المقصود بالحروف المشربة هو الحروف المجهورة، أي التي أشربت صوت الصدر، أي تخرج مع صوت الصدر أخذاً من قول سيبويه في ذات المكان عن الحروف المهموسة «يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر». وأضاف إلى ذلك أنه ورد في هذا النص –نص سيبويه– مصطلحا «صوت الصدر» و«صوت الفم»، وهما مستعملان في المعنى نفسه الذي استعملا فيه في رواية السيرافي. ويقصد قدوري النصّ المرويّ عن الأخفش

(٢٧) انظر: المرجع السابق، ص٢١٦.

(٢٨) انظر: كتاب سيبويه، ٤/ ١٧٦.

(٢٩) انظر: شاهين، التطور اللغوي، ص٢١٧.

الأوسط الذي سبق ذكره في هذا البحث. وانتهى الحمد إلى أنه يترجح من سياق النصّ أن المقصود بالحروف المشربة حروف الجهر، لأنها أشربت صوت الصدر، في مقابل الحروف المهموسة. غير أن سيبويه لم يذكر المشربة في سياق تعريفه المجهور في باب الإدغام(٣٠).

على أنني كنت أردّ مثل هذا الاستنتاج الذي رأيناه لدى الحمد لنقص الأدلة(٣١). كما كنت أتوقع أن هناك نقصاً في رواية الكتاب –كما جاءت في طبعة بولاق وهارون– مكانها القسم الثالث من كلام سيبويه عن الحروف المشربة. ففي القسم الأول – من تقسيمنا نحن – يقول: «واعلم أنّ من الحروف حروفاً مشربة ضغطت من مواضعها..»، وهي حروف القلقلة. وفي القسم الثاني يقول: «ومن المشربة حروف إذا وقفت عندها خرج معها نحو النفخة...». وفي القسم الأخير يقول: «ومنها حروف مشربة لا تسمع بعدها في الوقف شيئاً مما ذكرنا...»(٣٢). وهنا كنت أتوقع نقصاً هو: ومنها حروف (غير) مشربة. لأنني فهمت من المشربة أنها التي أشربت صويتاً أو نفخاً. فإذا جرّدت من الصويت أو النفخة بات وصفها بالمشربة خطأ. غير أنّ وقوفي على النص الذي نقلناه من كتاب العين غيّر من رأيي، وجعلني أرى أنّ المقابلة في نصّ سيبويه هي بين المشرب والمهموس(٣٣). والمشرب هنا يقوم مقام المجهور.

خاتمة:

وهكذا تبين أنّ الخليل هو واضع المفهومات السابقة التي تتصل

(٣٠) انظر: الحمد، الدراسات الصوتية، ص١٣٢.

(٣١) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٢٩٠.

(٣٢) انظر: الكتاب، تحقيق هارون، ٤/ ١٧٥.

(٣٣) انظر: بحثنا، الجهر والهمس، مج٨٦/ ج٣، ص٧٠٠.

بالهمس والإشراب وصوت الصدر والجهارة، وأن سيبويه استعمل منها ما رآه ضروريًّا لدرسه، وليس هناك شك في أن أصول هذا العلم هي للخليل، وقد ألَّف سيبويه – كما قيل – كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل[٣٤].

أما تعريف سيبويه للجهر والهمس في باب الإدغام فقد اتجه فيه لبيان الأثر الذي يخلّفه (حصر) الهواء في أحياز النطق الرئيسة في الحلق والفم والخياشيم، مما يولد (جهارة) في المنطق[٣٥]. وليس لصوت الصدر دور في ذلك إلا أنه مصدر الهواء المحصور. وقد فصل الخليل بينهما على كل حال، أي بين صوت الصدر، والجهارة في النطق. وأرى أن «الجهارة» صفة تدل على «إفراط» في الأثر السمعي الذي يخلّفه المجهور[٣٦]. وربما كان منه قدر في المهموس. والدليل على ذلك أنّ سيبويه حين عرّف المجهور والمهموس في باب الإدغام ذكر مع المجهور «إشباع» الاعتماد، وذكر مع المهموس «إضعاف» الاعتماد. مما يشير إلى أن الاعتماد هو العملية النطقية

(٣٤) انظر: كتاب سيبويه، ١/ ١٩. (من مقدمة التحقيق).

(٣٥) انظر: يقول سيبويه في باب الإدغام،٤/ ٤٣٤ (ط.هارون) «فالمجهورة (لعلّ الصواب : فالمجهور مشاكلةً للمهموس، كما سيرد لاحقاً): حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد (عليه) ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة. والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخل بهما. أما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه. وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس. ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه». وقد نسب الزجاج معظم ما ورد في التعريف السابق إلى الخليل، انظر: معاني القرآن وإعرابه، ١/ ٤١٤. كما ورد من غير نسبة في مصادر كثيرة، منها أسرار العربية لابن الأنباري، ص٤٢٣.

(٣٦) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (مادة جهر)،ص١٠١، والحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ١٥٢.

المقصودة (بالإرادة وقوّة الدّفع) التي تحسّسها سيبويه وشيوخه في الحلق والفم والخياشيم، أي في الفراغات فوق الحنجرية. وأن هذا الإشباع هو الذي يولّد الجهر وليس الاعتماد نفسه، لأنه يرد مع المهموس، كما سبق. وبناءً على ما تقدّم صار الطريق مفتوحاً لفهم تعريف سيبويه للجهر، كما جاء في باب الإدغام، إضافة إلى صوت الصدر. فصوت الصدر «صدىً» منبعث من عمق الصدر أو غوره - وهو بحسب معارفنا أثر اهتزاز الوترين الصوتيين في الحنجرة - يجعل الهواء محصوراً فيندفع إلى الفراغات القابلة للوصف في الحلق والفم والخياشيم ويولّد إفراطاً في الأثر السمعي نتيجة حصر الهواء وتأثيره في جهاز النطق.

* * *

المصادر والمراجع

أ- الكتب:

- أسرار العربية، ابن الأنباري، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق،١٩٥٧م.
- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط.رابعة١٩٧١م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تحقيق مصطفى حجازي، مراجعة عبد الستار أحمد فرّاج، وزارة الإعلام بالكويت (الجزء١٧) ١٩٧٧م.
- تذكرة النحاة، أبو حيان النحوي الأندلسي، تحقيق عفيف عبدالرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.أولى١٩٨٦.

- تهذيب اللغة، الأزهري، الجزء السادس، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ومحمود فرج العقدة، مراجعة علي محمد البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم بإيران١٤٠٥هـ.
- الدراسات الصّوتية عند علماء التجويد، غانم قدّوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد١٩٨٦م.
- سرّ صناعة الإعراب، ابن جنّي، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق ١٩٨٥م.
- السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، عبدالمنعم فائز، دار الفكر، ط.أولى، دمشق١٩٨٣م.
- شرح الشافية لابن الحاجب، الأستراباذي، مع شرح شواهده لعبدالقادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، القاهرة١٣٥٦هـ.
- شرح المفصّل للزمخشري، ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.
- شرح المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، المملكة العربية السعودية ، ٢٠٠٨م.
- شرح شافية ابن الحاجب، الخضر اليزدي، تحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت٢٠٠٨م.
- العربية الفصحى، هنري فليش، تعريب وتحقيق عبدالصبور شاهين، دار المشرق، بيروت١٩٨٣م، (مصوّرة عن الطبعة الأولى في المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٦م)

- في التطور اللغوي، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.ثانية١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.أولى١٩٨٦م.
- كتاب مرويات شمر بن حمدويه اللغوية، شمر بن حمدويه، جمع وتحقيق ودراسة لحازم سعيد يونس البياتي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، د.ت.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت،د.ت.
- الكتاب، سيبويه، طبعة بولاق بمصر١٣١٧هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
- معاني القرآن وإعرابه، الزجّاج، شرح وتحقيق عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث بالقاهرة،ط.أولى١٩٩٤م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني،تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- الممتع في التصريف، ابن عصفور، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب١٩٧٠م.

ب- الدوريات:

- «أصوات اللغة عند سيبويه، مراجعة وتفسير»، أحمد محمد قدّور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثاني لعام٢٠١١م.
- «التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب لابن جني»، هنري فليش، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع اللغة

العربية بالقاهرة، المجلد (٢٣) لسنة١٩٦٨م.

- «الجهر والهمس عند سيبويه في ضوء الدرس الحديث»، أحمد محمد قدور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثالث لعام٢٠١١م.
- «المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه»، خديجة عبدالرزاق عبدالقادر الحديثي، مؤتمر النقد الأدبي الخامس، جامعة اليرموك ١٤/ ٦ـ ١٦/ ٦/ ١٩٩٤م.

* * *

الحدُّ النحويُّ بين ابنَي الحاجب ويعيش في شرحيهما للمفصل

أ.د. إبراهيم محمد عبد الله(*)

مدخل:

يقوم هذا البحث على دراسة الحدِّ النحوي عند نحويَّينِ شرحا كتاب «المفصل» للزمخشري (ت٥٣٩هـ)، وتوفيا في منتصف القرن الهجري السابع (٦٤٦هـ)، هما ابنا الحاجب ويعيش(١)، وكان لكلٍّ منهما منهج في تناول الحدِّ النحوي وشرح مفهومه والاهتمام به ونقده. والمسائل التي ينهض البحث عليها هي:

- مدخل تحدثت فيه عن الحدِّ النحوي لغةً واصطلاحًا وتأثره بالمنطق، وعن موقف النحويين منه إلى الفترة الزمنية التي توفي فيها هذان النحويان.
- مفهوم الحدِّ النحوي عندهما وماهيته وغرضه والمؤثرات فيه.

(*) عضو الهيئة التدريسية في جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

(١) ١- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين بدمشق، ط٢، ٢٠١٠.

٢- شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين بدمشق، ط١، ٢٠١٣.

- العناية بالحدِّ النحوي والاهتمام به من حيث ضبطه وتفسيره وقراءته في نص المفصل ووفاؤه بالغرض.
- نقد الحدِّ النحوي عندهما.
- نتائج البحث.

يستمدُّ الكلام على الحدِّ النحوي أَهميته من أنه وسيلة صالحة لإيضاح المصطلح النحوي وشرحه وإظهار الغرض منه ومدى استقصائه للمحدود وتحديده وصونِه من الاختلاط بغيره والالتباس به، وتظهر أَهميته أَيضاً في سهولة حفظه عند المتعلمين لقصره واختصاره.

ولا بدَّ من ذكر معنَيي الحدِّ اللغويِّ والاصطلاحي، فالحدُّ لغةً المنعُ، وهو الحاجز بين شيئين لئلَّا يختلطا، وحدُّ الشيء: طرفُه، وحدَّ الشيءَ ميَّزه من غيره[٢].

أما المعنى الاصطلاحي للحدِّ فيظهر من كلام النحويين الذين عُنوا به، وله عندهم عدة أَوجه، فهو «الدالُّ على حقيقة الشيء»[٣]، وهو أَيضاً «قولٌ وجيزٌ يستغرق المحدود ويحيط به»[٤]، وهو «اللفظ الدالُّ على كمال ماهيَّة الشيء»[٥]، وهو «قولٌ دالٌّ على ماهيَّة الشيء»[٦].

وهو بهذا المفهوم دالٌّ على جوهر المحدود وذاتيته، ويراد به الكشف عن حقيقة المحدود، وتجليتُها واستغراقُ آحاده كلِّها، ولم يعوِّل النحويون الأوائل على الحدِّ تعويلَ خَلَفِهم، وكان حديثهم عن أنواع الكلم متكئاً على خصائص هذه الأنواع وصفاتها غيرَ بعيد عن الحقيقة النحوية والسمات التي

(٢) انظر اللسان (حدد).
(٣) الإيضاح في علل النحو: ٤٦.
(٤) الحلل في إصلاح الخلل: ٦٠.
(٥) التبيين عن مذاهب النحويين: ١٢٣.
(٦) معجم التعريفات (حدد).

عليها العربية والحاجة إليها من الإفصاح والبيان.

فسيبويه (ت١٨٢هـ) لم يأتِ بحدٍّ للاسم، واكتفى بالتمثيل، فقال: «والاسم رجل وفرس»[٧]، وحذا الأخفش (ت٢١٥هـ) حذوه، وزاد فأوضح معنى الاسم، وأشار إلى شيء من صفاته وعلاماته، وهو الإخبار عنه، فقال: «ما جاز فيه نفعني وضرَّني، يعني ما جاز أن يُخْبَر عنه»[٨]، وتكلَّم المبرد (ت٢٨٥هـ) على ما يشبه أن يكون حدًّا للاسم بحديث قريب مما قاله سيبويه والأخفش، فقال: «فأما الأسماء فما كان واقعاً على معانٍ نحو رجل وفرس وزيد»[٩].

وجاء الزجاجي (ت٣٣٩هـ) بحدٍّ للاسم على وفق أَوضاع النحو وأُصوله وقواعده والقصد منه، وقيَّد حدَّه بوقوعه في كلام العرب، لأن كلامَهم فهمَه ونَهْجَ سَمْتِه واقتفاءَ أَثره والتأسِّيَ به في النطق وتأليفِ الكلام ونظمِه أَولُ ما يرمي إليه النحو والنحويون، فقال: «الاسم في كلام العرب ما كان فاعلاً أَو مفعولاً أَو واقعاً في حَيِّز الفاعل والمفعول به»[١٠].

فألفاظ هذا الحدِّ من داخل النحو ومما يتداوله النحاة، وبها نتعرَّف الوظيفة النحوية للاسم، ونقف على موقعه في الجملة العربية والمعنى الذي يؤديه فيها.

على أن بعض النحويين انضمَّ إلى المنطقيين في حدِّهم للاسم، فوضعوا له حدًّا بائناً عن النحو وأَقيسته وأُصوله خارجاً عن غرضه وطبيعته، فقالوا: «الاسم صوت دالٌّ باتفاق على معنى غير مقرون بزمان»[١١].

---

(٧) الكتاب ١/ ١٢.

(٨) الإيضاح في علل النحو، ٤٩.

(٩) المقتضب: ١/ ٣.

(١٠) الإيضاح في علل النحو: ٤٨.

(١١) الإيضاح في علل النحو: ٤٨.

دفع الزجاجي هذا الحدَّ لأنه لا يستوعب الأسماء، فهناك كثير من الحروف يمكن أَن يُعَدَّ في الأسماء، وقال: «لأنه يلزم منه أن يكون كثير من الحروف أسماء لأن من الحروف ما يدل على معنى دلالة غير مقرونة بزمان»[١٢]، ولم يَرَه صالحاً على مقاييس النحو لأنه خارج عن وضعه وطبيعته، ولأن قصْدَ النحويين وتعبيراتهم وسبيلهم غير قصد المنطقيين وتعبيراتهم وسبيلهم، قال: «وليس هذا من ألفاظ النحويين ولا أَوضاعهم، وإنما هو من كلام المنطقيين، وإن كان قد تعلَّق به جماعة من النحويين، وهو صحيح على أَوضاع المنطقيين ومذهبهم لأن غرضهم غير غرضنا ومغزاهم غير مغزانا، وهو عندنا على أوضاع النحو غير صحيح»[١٣].

فأوائل النحويين انطلقوا في حديثهم عن الاسم وما يشبه أن يكون حدًّا له من الحقيقة اللغوية، واستقوه من صميم العربية وخصائصها وصفاتها والمأمول منها، ألا وهو البيان، فلا أثر للمنطق في تفكيرهم ولا في نظمهم النحوي، قال أبو حيان التوحيدي (ت حوالي ٤٠٠هـ): «ومتى عهد الناس أن النحو يُمزَج بالمنطق، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصرَيهما ومَنْ بعدهما لم يُعهَدْ فيه شيء من ذلك»[١٤].

والحديث عن الحدِّ النحوي لا بدَّ أن يقودنا إلى الكلام على الكتاب الذي ألفه الفراء (ت٢٠٧هـ)، فقد أَشارت كتب التراجم إلى أنه وضع كتاب «الحدود» برغبة من أمير المؤمنين المأمون، وأنه جمع فيه أصول النحو وما سمع من العرب[١٥].

(١٢) المصدر السابق: ٤٨.

(١٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٤) بغية الوعاة: ٢/ ٨١.

(١٥) انظر نزهة الألباء: ٩٩، وإنباه الرواة: ٤/ ٦، ٤/ ١٠.

ولعلَّ عنوان هذا الكتاب يَشِي أن المنطق شقَّ طريقه إلى النحو العربي في وقت مبكر، غير أننا لا نستطيع أن نجزم بهذا، لأن كتاب الحدود مفقود، ولأن هناك إشارات إلى أن مضمونه قضايا وأحكام نحوية(١٦).

وبدا تأثر النحو بالمنطق تأثراً ظاهراً عند نحويي القرن الرابع الهجري، من مثل ابن السراج (ت٣١٦هـ) الذي صنف كتاب «الأصول في النحو»، وبلغ هذا التأثر نماءه عند علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ) إذ أَلَّف كتابين في الحدود، الأول كتاب «الحدود الأكبر»، والثاني كتاب «الحدود الأصغر»(١٧).

ثم توالت أمارات المنطق تظهر في النحو على ما نرى عند ابن جني (ت٣٩٢)(١٨)، وعند أبي البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ)(١٩)، ومَنْ بعدهم، واستعملوا في الحدِّ النحوي ألفاظاً هي إلى المنطق أقرب منها إلى النحو، وأَخضعوه لشروطٍ وضعها المناطقة والنحويون(٢٠).

وابنا الحاجب ويعيش تناولا كتاب «المفصل»للزمخشري بالشرح كما سلف، وقدَّما للعربية شرحين، كلٌّ منهما له صبغته التي اصطبغ بها وميَّزته من غيره، ومنهجه الذي اختطَّه صاحبه وارتضاه، وغرضه الذي قصد إليه.

قصدت أن أَدرس من هذين الشرحين الحدَّ النحويَّ من حيث مفهومه وماهيته والاهتمام به ونقدُه والاعتراضُ عليه.

لكن ظهر لي أن أتحدث عن الحدِّ والتعريف، وأُميِّزَ كلًّا من صاحبه، فالحدُّ

(١٦) انظر «نظرات في كتاب معاني القرآن للفراء».

(١٧) انظر مفتاح السعادة: ١/ ١٦٤، والرماني النحوي: ٢٣٤-٢٣٥، ٣٥١-٣٥٢، ورسالة في الحدود للرماني: ٦٥-٦٦، وابن الحاجب النحوي: ١٧٧-١٧٨.

(١٨) انظر الخصائص: ١/ ٤٨-٩٦، ١/ ٦٧، ١/ ١٦٩-١٧٢، ١/ ١٧٣-١٧٤.

(١٩) انظر ابن الحاجب النحوي: ١٨٠-١٩٠.

(٢٠) انظر الإيضاح في علل النحو: ٤٨.

عند المنطقيين أَخَصُّ من التعريف، والتعريف أَعمُّ منه، ويظهر الفرق بينهما في أَن الحدَّ يتولَّى إيضاح جوهر المحدود وماهيته، وأما التعريف فإنه يفسِّر جوهر المحدود وطبيعته، ويمكن أن يشير إلى خاصة أو أكثر من خواصّ ماهيته[٢١]، ومن هنا يسمَّى التعريف عندهم القول الشارح، ويقسم إلى أَقسام[٢٢].

مفهوم الحدِّ النحويِّ وماهيَّتُه عندهما:

نظر هذان النحويان في الحدِّ النحوي، وكان لكلٍّ منهما رأَي في نظمه وتأليفه، وغرضٌ من ذكره وأُسلوبٌ في تعاطيه، واتفقت آراؤهما في غير قليل من كلامهما عليه.

فابن يعيش بدأ حدَّه للحرف بأن قال: «كلمة»، لأن قولنا: كلمة جنس لا يقع على شيء بعينه، ثم قال: «دلَّت على معنى في غيرها»[٢٣]، فبهذه الصفة فصلٌ ميَّز الحرف من قسيمَي الكلمة الآخرين، وهما الاسم والفعل.

فالحدُّ في نظره لا بدَّ أَن يشمل الجنس القريب للمحدود، ويُعْنَى بالجنس القريب اللفظة الأَقلُّ عموماً الدالة على المحدود ونظائره من جنسه.

فقوله: «كلمة» جنس ينضوي تحته أقسام الكلمة الثلاثة ليس غير، ثم لا بدَّ من تخصيص الجنس القريب ليُفصل المحدود من غيره، قال: «دلَّت على معنى في غيرها»، وقد بيَّن ذلك، فقال: «وهذه طريقة الحدود، أَن يؤتى بالجنس القريب، ثم يُقْرَن به جميع الفصول، فالجنس يدلُّ على جوهر المحدود دلالة عامة، والقريب منه أَدَلُّ على حقيقة المحدود لأنه يتضمَّن ما فوقه من الذاتيات

(٢١) سنرى الفرق بين الحدِّ والخاصة في ثنايا هذا البحث.

(٢٢) انظر هذه الأقسام في طرق الاستدلال ومقدماتها: ١٤٣-١٥١، والمقرَّر في توضيح منطق المظفَّر: ١/ ٢٧٧، وإيضاح المبهم عن معاني السُّلَّم: ٥٥.

(٢٣) شرح المفصل: ٨/ ٥، وانظر: ١/ ٥٢ منه.

العامة، والفصلُ يدلُّ على جوهر المحدود دلالة خاصة»[٢٤].

واستبعد اللفظ الدالَّ على العموم لأنه يشير إلى الجنس البعيد، والمطلوب الدلالة على الجنس القريب، قال: «وقوله: ما دلَّ... من ألفاظ العموم، فهو جنس بعيد، والجيد أن يقال: كلمة أو لفظ أو نحوهما لأنهما أَقرب إلى الفعل من «ما»»[٢٥].

وكذا الحدُّ عند ابن الحاجب أيضاً، ينبغي أن يكون في أَلفاظه ما يدلُّ على جنس المحدود، وشيءٍ يُحيِّد هذا المحدود وينحِّيه عمَّا سواه، لتحصل معرفته وصفاته، قال: «فالحدُّ لا بدّ أن يكون مركَّباً من جنس وفصل، فالجنس يحصر المحدود وغيره، والفصل يفصله عن غيره»[٢٦]، لكنه لم يقيد الجنس بالقريب كما ابنُ يعيش. والقصد من الحدِّ عندهما تجلية ماهية المحدود وجوهره، وبناءً على ذلك لا يجوز أن يكون في ألفاظ الحدِّ أمارة على التعليل، لأن في ذلك نقضًا للغرض الذي قُصِدَ إليه منه وخروجاً عن الغاية منه، إذ علةُ الشيء ليست ذاته وجوهره، والعلة والذات متغايران مختلفان، والمرجوُّ من الحدِّ ذاتُ المحدود وضوحُها ليس غير، قال ابن يعيش: «والمراد من الحدِّ الدلالة على الذات لا على العلة التي وُضع لها، إذ علة الشيء غيرُه»[٢٧].

ولا بدَّ أن تكون أَلفاظه واضحة صريحة الدلالة، لا تحمل استعارة ولا مجازاً، لأن الهدف منه الدلالة على طبيعة المحدود دلالة لا لَبْسَ فيها، وهذا لا يليق به إلا اللفظ الصريح في دلالته، قال: «والحدُّ المطلوب به إثبات حقيقة الشيء، فلا يستعمل فيه مجاز ولا استعارة»[٢٨].

---

(٢٤) شرح المفصل: ١/ ٤٣.
(٢٥) شرح المفصل: ٧/ ٦.
(٢٦) الإيضاح: ١/ ١٦.
(٢٧) شرح المفصل: ٨/ ٥.
(٢٨) شرح المفصل: ٧/ ٦.

وسعى ابن الحاجب أيضاً إلى أن تجيء ألفاظ الحدِّ لا لَبْس فيها ولا غموض، لذا نبه على أن قولنا في حدِّ الحال: «ومجيئها لبيان هيئة الفاعل أو المفعول» أَوضحُ من قولنا: «هو اللفظ الذي يبيِّن كيفية وقوع الفعل»، فقال عن الحدِّ الثاني: «وهو في المعنى أيضاً مستقيم، وإن كان الأول أوضح في باب الحدود»(٢٩).

وحرص على أن يخلو لفظ الحدِّ مما يؤدِّي إلى شكٍّ أو تردُّد، فلا بدَّ فيه من الدلالة اليقينية على ذات المحدود، فقد اعتذر عن ورود «أو» في حدِّ الزمخشري الفاعلَ إذ قال: «من فعل أو شبهه» بأنه ليس من صُلب الحدِّ، وأنه إنما جاء به ليبين أنواع ما يُسنَدُ إليه الفاعل، لا لإفادة معنى في حقيقة الحدِّ، لأن من شرطه ألَّا يتضمَّن ما يفيد معنى الرجحان والظنِّ، إذ هذا المعنى ناكبٌ عن سبيل الحدِّ السديد، قال: «قوله: من فعل أو شبهه لم يأتِ به قاصداً إلى أنه من جملة الحدِّ لما فيه من التردُّد الذي هو منافٍ للحدود»(٣٠)، غير أن المهمَّ عنده حصول تعريف المحدود، فإذا حصل بأي طريق فهو المطلوب»(٣١).

ووضوح الحدِّ النحويِّ ودلالته على طبيعة المحدود وصياغتُه صياغةً سليمةً تفضي إلى فهمه فهماً صحيحاً أُمور وقف عندها ابن الحاجب، وذكر ما لا يدلُّ عليها لتجنُّبه وتَلافيه.

فممَّا رآه في حدِّ الزمخشري للاسم المعرب «ما اختلف آخره باختلاف العوامل لفظاً بحركة أو بحرف أو محلًّا»(٣٢) أَنَّ فيه دَوراً(٣٣) مستنداً إلى أن

(٢٩) الإيضاح: ١/ ٢٩٣.

(٣٠) الإيضاح: ١/ ١٢٣.

(٣١) انظر ما سيأتي: ص١٨.

(٣٢) الإيضاح: ١/ ٧١.

(٣٣) الدور بفتح الدال وسكون الواو مصطلح منطقي، ويسمَّى المصادرة على المطلوب وهو توقف كل واحد من الشيئين على الآخر، انظر المعجم الفلسفي: ١/ ٦٧.

اختلاف حركة آخر الاسم المعرب باختلاف العامل الداخل عليه يحصل بعد أن يستقرَّ لدينا أن هذا الاسم معرب، وتتوقف معرفة أنه اسم معرب على اختلاف آخره، فإذا توقف معرفة أحد هذين الأمرين على الآخر وقعنا في محظور، وخرقنا شرطاً من شروط الحدِّ، أَلا وهو خلوُّه من الدَّور، قال: «وقد اعتُرض على هذا الحدِّ بأنه حدَّ الشيء بما هو متوقف على حقيقته، وذلك إنما يختلف آخره لاختلاف العوامل بعد فهم كونه معرباً، فإذا توقف اختلاف آخره على معرفة كونه معرباً، وتوقف كونُه معرباً على معرفة اختلاف آخره لكونه عرَّف حقيقته به توقَّف كلٌّ منهما على الآخر... فتحقَّق أن اختلاف الآخر لاختلاف العوامل متوقف على فهم كونه معرباً، فتعريفه به دَوْرٌ»(٣٤).

ورأى ابن يعيش أن الذي يجب أن يُنظر إليه في الحدود ما وُضِعَ له اللفظُ لا ما يستفاد من اشتقاقه وما يلزم منه، فكلمة «ضارب» يُفهم منها معنى الفاعل فحسب، لأنها قُصد منها في أصل وضعها هذا المعنى، ويُقتضَى منها فهمُ معنيَي المصدر والمفعول، لكنْ لم توضع لهما، قال: «والحدود يراعَى فيها الأوضاع لا ما يُفهم من طريق الاشتقاق أو غيره ممَّا هو من لوازمه، ألا ترى أن ضارباً يُفهم منه الضرب لأنه من لفظه والمفعولُ لأَنه يقتضيه، ولم يوضع لواحد منهما، بل وضع للفاعل لا غير»(٣٥).

ولم يكن ابن الحاجب بمَنْأَى عمَا ذهب إليه ابن يعيش من العناية بالألفاظ في الحدِّ، بل نظر فيها فرأى أن حدّ الألفاظ إنما يكون بالنظر إلى ما تدلُّ عليه لغةً، ويستند إلى ما وُضعت له في أَصل وضعها في اللغة، فلمَّا كانت الحال في العربية موضوعة من أجل بيان هيئة الفاعل والمفعول جاز أَن تُجعل هذه العلة

(٣٤) الإيضاح: ١/ ٧١.

(٣٥) شرح المفصل: ١/ ٥٣.

فصلاً يُخرجُ الحال من غيرها، قال: «لأن حدَّ الألفاظ إنما باعتبار موضوعها، فبه يتميز بعضها من بعض، ولما كان موضوع الحال على هذا المعنى [أي مجيئها لبيان هيئة الفاعل أو المفعول] صحَّ أن تجعله فصلاً لها»(٣٦)، وقال أيضاً «إذ حدود الألفاظ إنما تحصل بمدلولاتها وجدواها»(٣٧).

وأَلفاظ الحدِّ ومصطلحاته عنده ينبغي لها أن توافق ما عليه المتكلمون في اصطلاحاتهم في صياغة الحدِّ وتركيبه، فقد جعل قول الزمخشري في حدِّ الحال: «ومجيئها لبيان هيئة الفاعل أو المفعول» فصلاً لها عن غيرها، مع أنه [أي قول الزمخشري] ليس على سمْت ما يتداوله أهل الكلام في تأليف حدودهم، قال: «ومجيئها لبيان هيئة الفاعل أو المفعول... ولمَّا كان موضوع الحال على هذا المعنى صحَّ أَن تجعله فصلاً، وإن كانت العبارة على غير اصطلاح المتكلمين في نظم الحدود»(٣٨).

وهو هنا يتخذ من أسلوب المتكلمين في وضع الحدود مثلاً يُقتدى به، ولكنه رجع إلى خصائص اللغة وطبيعتها، وإلى ما وضع اللفظ فيها، فأجاز أن تميَّز الحال من غيرها بسبب مجيئها لبيان هيئة الفاعل أو المفعول.

ثم نبه على أنه إذا أُريدَ لحدِّ الحال أن يلبس لبوس أهل الكلام ونظمهم قيل فيه: «الحال هو اللفظ الدالُّ على هيئة فاعل أو مفعول»(٣٨).

وميَّز كلٌّ منهما الحدَّ من الخاصة، فابن الحاجب رأَى أن الفرق بينهما يظهر في أَن «الحدَّ لا بدَّ أن يكون في جميع آحاد المحدود، أما الخاصة فهي التي تكون في بعض آحاده خاصة»(٣٩)، فمفردات الحدِّ يجب أن تتوفر في المحدود

(٣٦) الإيضاح: ١/ ٢٩٢.
(٣٧) الإيضاح: ١/ ٤١١.
(٣٨) الإيضاح: ١/ ٢٩٢.
(٣٩) الإيضاح: ١/ ٢٠، وانظر شرح الكافية للرضي: ١/ ١٢-١٣.

كلُّها، ولا يشترط ذلك في الخاصة، فمن خواص الفعل دخول تاء الفاعل أو نون التوكيد أو حرف ناصب أَو حرف جازم عليه، فإذا دخل على الكلمة واحد مما سلف كانت فعلاً، ولا يشترط اجتماعها كلها في الكلمة لتكون فعلاً.

وفرَّق ابن يعيش بين الحدِّ والخاصة وتوسَّع، ووضع شرطاً للحدِّ تمثَّل بوجوب اتصافه بالاطراد والانعكاس، فكلُّ ما دلّ على حدث اقترن بزمان كان فعلاً، وهذا مطرد، وإذا عكسنا فقلنا: ما لم يدلَّ على حدث مقترن بزمن لم يكن فعلاً كان مستقيماً.

أما الخاصة – سمَّاها العلامة – فليس من شرطها الانعكاس ومن شرطها الاطراد، فنقول: الكلمة التي يتصل بها الألف واللام اسمٌ وهذا مطرد، ولا يجوز أن نقول: الكلمة التي لم تتصل بها الألف واللام ليست اسماً، لأن أسماء الإشارة والضمائر والأسماء الموصولة أسماء، ولا تتصل بها الألف واللام، قال: «والحدُّ يشترط فيه الاطراد والانعكاسُ نحو قولك: كلُّ ما دلَّ على معنًى مفرد فهو اسم، وما لم يدلَّ على ذلك فليس باسم، والعلامة يشترط فيها الاطراد دون الانعكاس»(٤٠).

مما سلف نأتي على تصوُّر هذين النحويينِ للحدِّ النحوي ومعالمه في نظرهما، فهو عندهما يجب أن يحمل في طياته الإشارة إلى الجنس القريب للمحدود، ثم يُفصَلَ منه بما يخصِّصه ويفصله عن غيره.

ولم يكن مفهوم الحدِّ النحوي عندهما وشروطه في معزل عمَّا ذكره النحويون وأهل المنطق واشترطوه لاستقامة الحدِّ، من نحو مجيئه عَيْنَ المحدود وأَوضحَ منه ومساوياً له جامعاً مانعاً دالًّا على ماهيته، وكونِه إيجابيًّا لا سلبيًّا وخلوِّه من التردُّد والدور، والدلالة على الجنس القريب وفصلِه منه(٤١).

---

(٤٠) شرح المفصل ١/ ٥٧.

(٤١) انظر هذه الشروط في الإيضاح في علل النحو: ٤٧، والمقرَّر في توضيح منطق المظفَّر: ١/ ٣٠٤، وطرق الاستدلال ومقدماتها: ١٥٢.

العناية بالحدِّ النحوي والاهتمام به:

يبدو أن ابن الحاجب أكثر اهتماماً واعتناءً بالحدِّ النحوي من ابن يعيش، إذ أولاه جهداً ونظراً، وحرص على استقامته ووضوحه والدقة في صياغته وسلامة معناه وشموله، وأخذ نفسَه في شرحه للمفصل بأن يتكلم عليه في مستهلِّ كلِّ باب أَو فصل.

من ذلك أنه رأى أن الاستثناء فيه لبْسٌ وغموض من حيث حدُّه ومعناه، قال: «والاستثناء مشكلٌ باعتبار معقوليته وحدِّه»(٤٢)، ثم طفق يُظهر إشكال معقوليته بأُسلوب منطقي مستنداً إلى قول القائل: جاء القوم إلا زيداً، وأن زيداً داخل في القوم أو غير داخل، وأَطال الكلام على هذا الأمر، وهو محلُّ خلاف عند النحويين(٤٣).

ثم التفت إلى إشكال حدِّ الاستثناء وعلَّله فقال: «لأن الاستثناء يجمع المتصل والمنقطع، ولا يتميز المتصل إلا بالإخراج، ولا إخراج في المنقطع»(٤٤)، وانتهى إلى أن الصواب أن يُجعلَ لكلٍّ من الاستثناءَين المتصلِ والمنقطعِ حدٌّ خاصٌّ به، فقال: «فالأَولى أن يُحَدَّ المتصل على حِدَتِه والمنقطع على حدته، فنقول في حدِّ المتصل: «هو كلُّ لفظ أُخرِجَ به شيء من شيء بإِلَّا وأَخواتها»(٤٥)، ولم يحدَّ الاستثناء المنقطع(٤٦).

أما ابن يعيش فلم يذكر عن حدِّه شيئاً، وبدا له أن يشرح معنى الاستثناء لغةً واصطلاحاً، ويُبرزَ المعنى النحوي له، قال: «وحقيقته تخصيص صفة عامة،

(٤٢) الإيضاح: ١/ ٣٢٣.
(٤٣) انظر الكلام على هذا الأمر في حاشية الإيضاح: ١/ ٣٢٣.
(٤٤) الإيضاح: ١/ ٣٢٤.
(٤٥) الإيضاح: ١/ ٣٢٤.
(٤٦) لكنه حدَّه في الكافية: ١٠٩، وانظر نقد الرضي له في شرحه للكافية: ١/ ٢٢٤.

فكلُّ استثناء تخصيصٌ، وليس كلُّ تخصيص استثناء»[٤٧]. ثم شرح معنى الإخراج في الاستثناء، ولم يَرَ غموضاً في معناه ولا في حدِّه، ووجد أن «المستثنى منه والمستثنى جملة واحدة، وهما بمنزلة اسم مضاف»[٤٨]، وهو في تصوُّره عن الاستثناء يصدر عن الغاية الحقيقية من النحو، ألا وهي فهم الحدِّ النحوي وتمثُّله لغة واصطلاحاً.

والظاهر أن مسألة الوضوح والإشكال والالتباس في الحدِّ النحوي وضرورةِ ذكرِهِ شغلت ابن الحاجب، فتعقَّبَ الزمخشري إذ لم يحدَّ المنادى معلِّلاً ذلك بإشكاله، قال: «لم يحدَّه [أي المنادى] لإشكاله»[٤٩]، وانبرى يتخيل الاحتمالات في حدِّه ويدحضها، ثم انتهى إلى أن «التحقيق أن يقال في حدِّه: هو المطلوب إقباله بحرف نائب مَنابَ أَدعو لفظاً أو تقديراً»[٥٠].

وبدأ ابن يعيش باب المنادى، فأَوضح ذاته وجوهره وخصائصه النحوية، فهو واحدٌ من المفعولات عند البصريين، والأَصل فيه النصب، وبناؤه على الضم لعلة نحوية ذكرها، فهمُّه إيضاح خصائص المنادى من حيث الإعراب والبناء والموقع النحوي، لا حدُّه[٥١].

ورأى ابن الحاجب أن قول الزمخشري في حديثه عن الاسم العَلَم «وما لا يُتخذ ولا يؤلف، فيُحتاج إلى التمييز بين أفراده» فيه لَبْس واختلاط، قال: «هذا الفصل يَرِدُ إشكالاً على حدِّ العَلَم، لأن حدَّ العَلَم هو الموضوع

(٤٧) شرح المفصل: ٢/ ١١٥.
(٤٨) شرح المفصل: ٢/ ١٨٥.
(٤٩) الإيضاح: ١/ ٢١٧.
(٥٠) الإيضاح: ١/ ٢١٧، انتقد الرضي ابن الحاجب، وذهب إلى أن الزمخشري لم يحدَّ المنادى لظهوره لا لإشكاله، انظر شرح الكافية للرضي: ١/ ١٣١.
(٥١) انظر شرح المفصل: ١/ ٢٩٩.

لشيء بعينه غير متناول ما أَشبهه، وهذا يوضع لشيء ولما أَشبهه، فقد فُقدت حقيقة العلمية»[٥٢]، ثم انصرف يجيب عن هذا الإشكال بوجوه[٥٣].

ولم يَرَ ابن يعيش في كلام الزمخشري على الاسم العَلَم الإشكال الذي نبَّه عليه ابن الحاجب، وذهب إلى شرح كلامه بلغة سهلة ذكر فيها «أن العَلَم في هذا الفصل واقع على الجنس بخلاف ما تقدم من الأعلام، فإنه واقع على الأشخاص كزيد وعمرو»[٥٤]، ولم يتعرض لحدِّ العَلَم بشيء.

ومما يَقِفُك على عناية ابن الحاجب بالحدِّ النحوي وإعطائه الأولوية ما ذكره في حدِّ اسم الفاعل، إذ ساق حدَّ الزمخشري له «ما يجري على يَفْعَلُ من فعله»[٥٥]، ووقف عند مفهوم الجَرْي في الحدِّ، ووضع له احتمالين في تفسيره، أولهما أن يراد بالجاري الذي يقع موقع يَفْعَلُ، وثانيهما أَن يراد بالجاري أنه مثله في الحركات والسكنات، ثم دفع الاحتمالين، وانتهى إلى تأويل حدِّ الزمخشري اسمَ الفاعل، فقال: «فكأنه قال: هو الجاري على يَفْعَلُ اسماً لمَنْ نُسبَ إليه»[٥٥]، لكنه سرعان ما رأَى كلَّ الاحتمالات السالفة ضرباً من التكلُّف ومجانَبَة الصواب، فقال: «وفي الجميع تعسُّف، وأَولَى من هذا أن يقال: هو المشتقُّ من فعل لمَنْ نُسبَ إليه على نحو المضارع، فهذا حدُّه»[٥٥].

فابن الحاجب قام بعملية تفسير لحدِّ الزمخشري تستند على الاحتمال، وقلَّب فيه فكره، وحرَص على أَن يقدِّم حدًّا وافياً لاسم الفاعل، فضرب عن حدِّ الزمخشري صفحاً، وجاء بحدٍّ من عنده، وقال: «فهذا حدُّه».

(٥٢) الإيضاح: ١/ ٣٩.
(٥٣) انظر الإيضاح: ١/ ٣٩-٤٠.
(٥٤) شرح المفصل: ١/ ٨٠.
(٥٥) الإيضاح: ١/ ٦١٢.

واهتمَّ ابن يعيش بإيضاح معنى اسم الفاعل وشروط عمله، وذكرَها واستوفَى الكلام عليها، وأَشار إلى المعنى المستفاد من كلِّ حالة من حالات عمله(٥٦)، ولم يلتفت إلى حدِّه، فهو يربط معنى اسم الفاعل بشروط عمله، وينتهي إلى تمكين مفهومه النحوي في الذهن.

واعتذر ابن الحاجب عن الزمخشري لأنه لم يأتِ بحدٍّ لخبر (إِنَّ) بأنه إذا حدَّه بالنظر إلى معناه فهو في الأصل خبر عن المبتدأ، وأنه إذا حدَّه من حيث لفظه فقد قال: «هو المرفوع»، فلا حاجة لحدِّه إذن، قال: «لم يحدَّ خبر (إِنَّ) لأنه إنما يحدُّه باعتبار المعنى أو باعتبار اللفظ، أما باعتبار المعنى فقد تقدَّم ما يرشد إليه، وهو خبر المبتدأ، وأما من حيث اللفظ فقد قال: هو المرفوع»(٥٧).

ولم يتعرَّض ابن يعيش إلى حدِّ خبر (إِنَّ)، وبدأ حديثه عنه بتعداد أَخواتها وتعليل عملها في المبتدأ والخبر(٥٨).

وممَّا يُظهِرُ وَلَعَ ابن الحاجب بالحدِّ النحوي واحتفاءه به وتمسُّكَه بإيراده في مبتدأ كل باب من أبواب «الإيضاح» أنه بدأ الحديث عن المضمرات بحدِّ المضمر علمًا أن الزمخشري لم يحدَّه، إنما استهلَّ الكلام عليه بذكر ضربَيْه المتصل والمنفصل، غير أن ابن الحاجب بدأ بحدٍّ من عنده، فقال: «قال الشيخ: يُحدُّ المضمر بأنه ما كان لمتكلم أو مخاطب أو غائب بقرينة»(٥٩)، ثم تخيَّل معترضاً يعترض على هذا الحدِّ بأن فيه «أَو» والحدُّ لا ينبغي أن يكون فيه شكٌّ أَو تردُّدٌ، فأجاب بأن الغرض من الحدِّ

(٥٦) انظر شرح المفصل: ٦/ ٩٩-١٠٠.
(٥٧) الإيضاح: ١/ ١٧٥.
(٥٨) انظر شرح المفصل ١٠/ ٢٣٦.
(٥٩) الإيضاح: ١/ ٤٣٨.

تعريف المحدود، فإذا حصل هذا التعريف «بأي طريق كان فهو المقصود»[٦٠]، وقد كان حظر أن يتضمن الحدُّ ما يشير إلى التردُّد[٦١]، لكنه تسمَّح هنا واعتذر عن مجيء «أَو» في حدِّه للمضمر.

وبدأ ابن يعيش شرح كلام الزمخشري على المضمرات بذكر المصطلح النحوي للمضمر، فالكوفيون لا يميزون المضمر من المكني لأنهما بمعنى واحد، والبصريون يدرجون المضمر تحت المكني، وخلص إلى قوله: «فكلُّ مضمر مكني، وليس كلُّ مكني مضمراً»[٦٢]، ثم أنشأ يتحدث عن الكناية والغرض من استعمال الضمير في اللغة، وذكر أنه يؤتى به من أَجل الإيجاز وخوفاً من الوقوع في اللَّبْس، واستفاض في بيان ذلك[٦٣].

وهنا يبدو مَعْلَمٌ مهمٌّ من معالم التفكير النحوي عند ابن يعيش، فلم يعبأ بحدِّ المضمر، ونظر إلى المصطلح النحوي له عند الكوفيين والبصريين، ثم أَظهر الوظيفة النحوية لاستخدامه في العربية، ألا وهي رفعُ الاختلاط والإيجازُ، فهو يقصد إلى الجانب المعنوي المتوخَّى من النحو.

وممَّا يؤكد هذا الأمر ويزيده رسوخاً أنه بدأ باب التمييز بأن قال: «التمييز والتفسير والتبيين واحد»[٦٤]، كأنه بهذه التسوية بين هذه المصطلحات يريد أن يقول: المهمُّ أن المعنى المؤدَّى منها واحد، فلا فرق بينها ما دامت تفي بالغرض النحوي الذي هو البيان والإيضاح، قال مبيناً

(٦٠) الإيضاح: ١/ ٤٣٨.

(٦١) انظر ما سلف ص: ٨.

(٦٢) شرح المفصل: ٣/ ١٥٣.

(٦٣) انظر شرح المفصل: ٣/ ١٥٣-١٥٤.

(٦٤) انظر شرح المفصل: ٢/ ١٧٢، وحاشيته: ٢/ ١٧٢.

القصد من التمييز: «والمراد به رفع الإبهام وإزالة اللبس»[٦٥]، ثم بسط الكلام على الإبهام وأنه يكون في المفرد والجملة، وعاج على الشبه بين التمييز والحال، ليُميز كُلًّا من صاحبه.

لكنْ ابن الحاجب لا بدَّ عنده من البدء بالحدِّ، لذا استهلَّ باب التمييز بأن جاء بحدٍّ له من عنده، فقال: «ما يرفع الإبهام المستقرَّ عن ذات مذكورة أو مقدَّرة»[٦٦]، ثم تولَّى شرحه كلمة كلمة، ولم يَرَ حدَّ الزمخشري للتمييز صالحاً[٦٧].

وهذا دأبه في إيضاحه، يأتي بحدٍّ من عنده وينشره، وذلك نحو مجيئه بحدٍّ للمفعول المطلق من عنده، وتسويغه إعراضَ الزمخشري عن حدِّه له بأن اسمه دلَّ عليه، قال: «ولم يتعرَّض لحدِّه في ظاهر كلامه استغناء عنه بما دلَّ عليه من اسمه... وحدُّه «ما فعله فعل فاعل الفعل المذكور»»[٦٨].

وابن يعيش ابتدأ باب المفعول المطلق بالتنبيه على أنه المفعول الحقيقي معلِّلاً ذلك، ومبيناً علة تسميته مصدراً[٦٩]، فهمُّه تفسير المصطلح النحوي.

على أنه لم يسلك هذا المسلك دائماً من الحدِّ النحوي في عدم التفاته إليه، إذ نراه يطوِّل الكلام على حدِّ الحرف، ويذهب مذهب الزمخشري في حدِّه إذ قال: «الحرف ما دلَّ على معنًى في غيره»[٧٠]، ويستدرك عليه ويزيد فيقول: «والحرف كلمة دلَّتْ على معنى في غيرها»[٧١]، ثم يشرح هذا الحدَّ،

---

(٦٥) شرح المفصل: ٢/ ١٧٢.

(٦٦) الإيضاح: ١/ ٣١٤، وهذا الحدُّ هو ما ذكره في الكافية: ١٠٧.

(٦٧) انظر الإيضاح: ١/ ٣١٤-٣١٥.

(٦٨) الإيضاح: ١/ ١٨٦، وهذا الحدُّ هو ما ذكره في الكافية: ٨٤.

(٦٩) انظر شرح المفصل: ١/ ٢٥٦.

(٧٠) شرح المفصل: ٨/ ٥.

(٧١) شرح المفصل: ٨/ ٥.

فيرى أن «كلمة» الواردة فيه ينضوي تحتها الاسم والفعل والحرف، ويقف عند دلالة الحرف على معنى في غيره[٧٢]، ويبحث فيها، وينظر في الحدِّ، فيذهب إلى أن قولهم: ««ما دلَّ على معنى في غيره» أَمثل من قول مَنْ قال: «ما جاء لمعنى في غيره»[٧٣]، لأن في قولهم: «ما جاء لمعنى في غيره إشارة إلى العلّة، والمراد من الحدِّ الدلالة على الذات لا على العلة التي وضع لأَجلها»[٧٤].

فابن يعيش في هذا المقام يتفحَّص الحدَّ النحوي، ويسعى إلى إحكامه، ويحرص على أن ينفي عنه الاعتراض، فقد ساق اعتراض بعضهم عليه بأسماء الاستفهام والجزاء، نحو أين وكيف، فهذه الأسماء «تفيد الاستفهام فيما بعدها، وتفيد الجزاء، فتعلَّق وجود الفعل بعدها على وجود غيره، وهذا معنى الحروف»[٧٥]، ثم انبرى يردُّ هذا الاعتراض بكلام من العربية وطبيعتها غير غريب عنها ولا عن خصائصها[٧٦].

ثم أشار إلى أن منهم مَنْ يضيف إلى حدِّ الحرف: «ولم يكن أَحد جزأَي الجملة»، ورأى أن المقصود من هذه الإضافة إلى الحدّ إخراج أسماء الشرط والاستفهام، لأن «هذه الأسماء وإن دلت على معنى في غيرها من الجهة المذكورة فقد تكون أَحد جزأَي الجملة... من نحو أَين زيد، وكيف عمرو»[٧٧].

ثم التفت إلى احتراز بعضهم في حدِّ الحرف بقوله: «وربما احترز بعضهم من ذلك فقال: ما دلَّ على معنى في غيره فقط»[٧٨]، فكلمة «فقط»

(٧٢) انظر هذه المسألة في حاشية شرح المفصل: ٨/ ٨.
(٧٣) انظر نسبة القولين السالفين في حاشية شرح المفصل: ٨/ ٥-٦.
(٧٤) شرح المفصل: ٨/ ٥، وانظر ما سلف ص: ٧.
(٧٥) شرح المفصل: ٨/ ٦.
(٧٦) انظر شرح المفصل: ٨/ ٦.
(٧٧) شرح المفصل: ٨/ ٦-٧، وانظر حاشيته.
(٧٨) هو أَحسن ما قيل في حدِّ الحرف عند أبي حيان والمرادي، انظر حاشية شرح المفصل: ٨/ ٥-٦.

أَفادت الفصل بين أسماء الاستفهام والشرط والحرف، لأن «هذه الأسماء قد دلت دلالتين، دلالةُ الأسماء ودلالةُ الحروف»(٧٩).

ولم تكن وقفة ابن الحاجب عند حدِّ الحرف كوقفة ابن يعيش، إذ اهتم بشرح حدِّ الزمخشري للحرف، وأَظهر المقصود من قوله: «في غيره» الوارد في الحدِّ، وساق اعتراضاً على قول بعضهم: «الحرف لا يخبر عنه ولا يخبر به»، فقد أُخبر عنه بقولنا: لا يخبر عنه، ثم أَجاب بأن «المحكوم بكونه لا يخبر به ولا يخبر عنه إنما هو ألفاظ الحروف باعتبار معانيها المستعملة هي فيها، وأما قوله: الحرف فليس من ذلك، وكذلك قولهم: مِنْ حرف جر...»(٨٠).

فلم يتوسَّع توسُّعَ ابن يعيش الذي رأيناه قبلاً، ولم يَستَقْصِ الأَقوال في حدِّ الحرف استقصاءه، ولعلَّ مَردَّ ذلك أن ابن يعيش رأى أن الحرف في حاجة إلى فضل شرح وتفسير، لأَننا نجد للحرف الواحد عدة معانٍ، ولأن معنى الكلام أحيانًا يتوقف على معنى حرف فيه.

ونحوٌ من اعتنائه بحدِّ الحرف اعتناؤه بحدِّ الفاعل، فقد أَعرض عن حدِّ الزمخشري إذ قال في حدِّه: «هو ما كان المسند إليه من فعل أَو شبهه مقدَّماً عليه أَبداً»(٨١)، ونظر فيما قاله النحويون في حدِّه، فقال: «واعلمْ أن الفاعل في عُرف النحويين كلُّ اسم ذكرته بعد فعل، وأَسندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم»(٨١).

فكأنّه وجد حدَّ الزمخشري غير مستوعب جميع حالات الفاعل وأَوضاعه، فنبَّه على أن الفاعل لا يقتضي دائماً قيامه بالفعل وتأثيره فيه، لذا

(٧٩) شرح المفصل: ٨/ ٦.
(٨٠) الإيضاح: ٢/ ١٢٩.
(٨١) شرح المفصل: ١/ ١٧٣.

دفع حدَّ بعضهم للفاعل بأنه «كلُّ اسم تقدَّمه فعلٌ غيرُ مغيَّرٍ عن بنيته وأَسندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم»[٨٢]، ورأَى أن التقييد بـ«غير مغيَّر عن بنيته» لا مساغ له، إذ المراد منه فصلُ الفعل المبني للمجهول عن الفعل المبني للمعلوم، ولا حاجة لهذا الفصل لأن الجهة التي يرتفع بها نائب الفاعل هي الجهة التي يرتفع بها الفاعل، قال: «لأن الفعل إذا أُسندَ إلى المفعول، نحو ضُرِبَ زيدٌ، وأُكرمَ بكر صار ارتفاعه من جهة ارتفاع الفاعل، إذ ليس من شرط الفاعل أن يكون موجدًا للفعل أو مؤثِّراً فيه»[٨٣].

ودفع ما احترز به بعضهم فقيَّد الفاعل بوجوب تقديم الفعل عليه لأنه خبرٌ عنه، وعوَّل في ذلك على أن الفعل الذي هو خبر عن الفاعل لم يقدَّم عليه لأنه خبر عنه، بل قُدم لأنه عَمِلَ فيه، قال: «وقال بعضهم في وصفه: هو الاسم الذي يجب تقديمُ خبره لمجرَّد كونه خبراً... إنما وجب تقديم خبر الفاعل لأمر وراء كونه خبراً، وهو كونه عاملاً فيه، ورتبة العامل أن يكون قبل المعمول»[٨٤].

وخَلَصَ إلى أن الفاعل في النحو «أَمر لفظيٌّ»[٨٥]، ويُستدلُّ على ذلك بأن الاسم الذي يقع بعد الفعل المنفيِّ أو المستفهمَ عنه أو المسبوق بحرف استقبال يُعرَبُ فاعلاً، فالفاعل في هذه الحالات «فاعلٌ من حيث إن الفعل مسنَدٌ إليه ومقدَّم عليه، سواء فَعَلَ أم لم يَفعل»[٨٦].

فابن يعيش أَولَى اهتماماً ظاهراً حدَّ الفاعل كما حدُّ الحرف كذلك عنده، وهذا منه قصدٌ إلى توضيح مفهوم الفاعل ومعقوليته، وبيان وظيفته النحوية،

(٨٢) شرح المفصل: ١/ ١٧٣.
(٨٣) شرح المفصل: ١/ ١٧٣، وانظر الحواشي.
(٨٤) شرح المفصل: ١/ ١٧٣.
(٨٥) شرح المفصل: ١/ ١٧٤.
(٨٦) شرح المفصل: ١/ ١٧٤.

وصنيعه هذا أمارة على أنه يرى أن الفاعل هو الأَصل في استحقاق الرفع، وقد صرح بذلك ونسبه إلى حُذاق أصحابه، فقال: «والذي عليه حُذاق أصحابنا اليومَ المذهبُ الأول [أي إن الفاعل هو الأصل في استحقاق الرفع]»(٨٧).

ولم نقف على هذا التفصيل والاستقصاء في حدِّ الفاعل عند ابن الحاجب، فقد تقصَّصَ حدَّ الزمخشري للفاعل إذ قال: «ما كان المسند إليه من فعل أو شبهه مقدَّماً عليه»(٨٨) وشرحه وفسَّر معنى قوله: «مقدَّماً عليه»، وردَّ أن يَرد على الحدّ مثل: «زيد قام»، لأن الفعل لم يقدَّم على الفاعل، ولم يستسغ ورود «أَو» فيه لما تفيده من معنى الشك(٨٩).

وحرص ابن الحاجب على أن يضبط ألفاظ الحدِّ بالحركة المناسبة التي يقتضيها المعنى، فوقف عند كلمة «محتملاته» الواردة في حدِّ الزمخشري للتمييز، ورأى أنها يجب أن تقرأ بفتح الميم الثانية ليس غير، قال الزمخشري: «وهو رفع الإبهام في جملة أو مفرد بالنص على أحد محتملاته»(٩٠). فقال: «قوله: «محتملاته» لا يصحُّ أن يقال إلا محتملاته بفتح الميم، لأن المحتملات بالكسر إنما هي التي انتصب عنها التمييز، أَلا ترى أن قولك عشرون وثلاثون وأربعون محتمِلات لأن تكون من الدراهم والدنانير، فهي محتمِلات بالكسر، والدراهم والدنانير التي تذكر هي محتَملات بالفتح، لأنها التي احتملها المنتصبة هي عنه»(٩١).

ولم يجد ابن يعيش حاجة إلى التنبيه على حركة الميم الثانية في «محتملاته»

(٨٧) شرح المفصل: ١/ ١٧١، وفي حاشيته ذكر مذاهب النحويين في ذلك.
(٨٨) الإيضاح: ١/ ١٢٣.
(٨٩) انظر الإيضاح: ١/ ١٢٣، وما سلف ص: ١٠.
(٩٠) شرح المفصل: ٢/ ١٧٢.
(٩١) الإيضاح: ١/ ٣١٤.

لأن حركتها مفهومة من حدِّ التمييز اقتضاءً، وهذا ما يشي به كلامه[٩٢].

ولم تكن عناية ابن يعيش بالحدِّ النحوي كما هي عند ابن الحاجب، إذ رأيناه يُعْرِضُ عن ذكره في مستهلِّ أبحاث صالحة العدَّة، ويلتفت إلى الكلام على المصطلح النحوي المتصل بذلك المبحث.

نقد الحدِّ النحوي عندهما:

اعترض ابنا الحاجب ويعيش على الزمخشري في الحدِّ النحوي، إلا أن مَجْرى الاعتراض وطبيعته وأُسلوبه كلٌّ أُولئك اختلف فيما بينهما. فمما انتقد ابنُ الحاجب الزمخشريَّ فيه حدُّ الصفة، فقد حدَّها الزمخشري بقوله: «هي الاسم الدالُّ على بعض أحوال الذات»[٩٣]، فلم يستسغ هذا الحدَّ، وبدا له أن الصفة تستخدم باعتبار عامٍّ واعتبار خاصٍّ، وانتهى إلى أن هذا الحدَّ «غير مستقيم فإنه ينتقض بالحال، فإنه يدلُّ على بعض أحوال الذات، وليست بصفة»[٩٤]، ورأى أن الصواب أن يقال: «تابع يدلُّ على معنى في متبوعه من غير تقييد»[٩٥].

ويمكن أن يُردَّ عليه بأن دلالة الصفة على بعض أحوال الذات جاءت من حيث لم يُقْصَدْ إليها، فالغرض من الصفة التخصيص أو الإيضاح، ودلالتها على بعض أَحوال الذات جاءت عرضاً، كما أن المقصود من الحال بيان هيئة صاحبها، لكنها تدل على معنى الوصف، ولا تُعرب صفة، لأن دلالتها تلك ليست من غرض المتكلم، وابن مالك عندما تكلم عليها قال:

الحال وصف فضلة منتصب مُفْهِمُ في حالٍ كفَرْدًا أَذهبُ

(٩٢) انظر شرح المفصل: ٢/ ١٧٢-١٧٣.
(٩٣) الإيضاح: ١/ ٤١٥.
(٩٤) الإيضاح: ١/ ١٤٥.
(٩٥) الإيضاح: ١/ ٤١٥.

فنعتها بأنها وصف، وهي حال بلا ريب، جيء بها لبيان الهيئة.

وانتقد ابن يعيش أَيضاً حدَّ الزمخشري للصفة، ولم يجده حـدًّا حقيقيًّـا، وتعلَّل بأن الصفة تأتي جملة وشبه جملة، فالاسم ليس جنساً لها، وسلف أن الحدَّ لا بدَّ أن يدلَّ على الجنس القريـب(٩٦)، ورأى أن دلالتهـا علـى الـذات منتقضة بدلالة الخبر على بعض أَحوال الذات، وظهر له أن يضاف إلـى حـدِّ الزمخشري «الجاري عليه في إعرابه أَو التابعُ له في إعرابه»(٩٧).

ابن الحاجب اتَّكأ في نقده على العام والخـاص، وابـن يعـيش نظـر مـن داخل اللغة وطبيعتها وخصائصها وقوانينها، ومن شروط الحـدِّ إذ لا بـدَّ فيـه من الإشارة إلى الجنس القريب. وغلبت النزعة المنطقيـة علـى ابـن الحاجـب في نقده. آيـة هـذا أَنـه رأى فـي حـدِّ الزمخشـري للمفعـول معـه دَوْراً(٩٨)، قـال الزمخشري في حدِّ المفعـول معـه: «هـو المنصـوب بعـد الـواو الكائنـة بمعنـى مع»(٩٩)، فتعقَّبه ليفنِّد حدَّه، ورأَى فيه دَوْراً، وهذا لا يجوز أن يكـون فـي الحـدِّ، وليس من شروطه، قال: «قوله: هو المنصوب بعد الواو الكائنة بمعنى مـع» إنمـا يكون ذلك معرِّفاً لما هو موجود فيما يتكلم به المـتكلم، فأمـا إذا قصـد حقيقتـه لتتميَّز عند منشئ الكلام ليعطيه بعد تعقُّله ما يستحقُّه من الإعراب فيُفْضي ذلـك إلى الدَّور، لأنه إنما يعطيه النصب بعد معرفة كونه مفعولاً، فـإذا جعـل النصـب حدًّا فقد توقف كلٌّ منهما على الآخر»(١٠٠).

ولا نقف على هذه النزعة المنطقية الصريحة عند ابن يعيش، فلـم يتعـرَّض

(٩٦) انظر ما سلف ص: ٦.
(٩٧) شرح المفصل: ٣/ ٨٥.
(٩٨) سلفت الإشارة إليه ص: ٨.
(٩٩) شرح المفصل: ٣/ ٨٥.
(١٠٠) الإيضاح: ١/ ٢٨٨.

لحدِّ المفعول معه، وآثر أن يشرع في الحديث عن خصائصه من مجيئه بعد واو بمعنى «مع»، وبعد فعل متعدٍّ، ثم بدأ يعلِّل مجيئه بعدهما منطلقاً من حسٍّ لغوي وذوق نحوي منبِّهاً على معنى الواو والافتقار إليها[١٠١].

ومما كان موضع نقد عند ابن الحاجب حدُّ الزمخشري للمبتدأ والخبر معاً، فقد رأى أن حدَّهما بحدٍّ واحد حائد عن الصواب، وغيرُ ذي نفع وجَدْوَى، لأن الحدَّ عنده إنما يحصل بمدلوله وجَدْواه[١٠٢].

قال الزمخشري في حدِّهما: «هما الاسمان المجرَّدان للإسناد»[١٠٣]، فتقصَّصه ابن الحاجب ناقداً، وقال: «حدَّ المبتدأ والخبر بحدٍّ واحد بعد ذكرهما بخصوصية اسميهما، ومثل ذلك غير مستقيم»[١٠٣]. واعتلَّ لذلك بأن المبتدأ والخبر مختلف أَحدُهما عن الآخر، فلا يجوز أَن «يُحَدَّ مختلفان بحقيقة واحدة»[١٠٣]، وظهرت آثار المنطق في احتجاجه وتمثيله إذ قال: «فكما يمتنع أن يقال: الإنسان والفرس جسم متحرك، ويُقصد به تحديدُهما فكذلك هذا»[١٠٣].

وحدَّ ابن يعيش كلًّا من المبتدأ والخبر بحدٍّ خاصٍّ به، فقال في حدِّ المبتدأ: «المبتدأ كلُّ اسم ابتدأته وجرَّدته من العوامل اللفظية للإخبار عنه»[١٠٤]، وحدَّ الخبر فقال: «اعلمْ أن خبر المبتدأ هو الجزء المستفاد الذي يستفيده السامع، ويصير مع المبتدأ كلاماً تامًّا»[١٠٥].

فابن يعيش فصل حدَّ المبتدأ عن حدِّ الخبر كما ابنُ الحاجب، وظهر الخلاف في استدلالهما، فالأخير ذهب إلى تمثيل أَهل المنطق، وجاء ابن يعيش

(١٠١) انظر شرح المفصل: ٢/ ١١٦.
(١٠٢) انظر ما سلف ص: ١٠، والإيضاح: ١/ ١٤٤.
(١٠٣) الإيضاح: ١/ ١٤٤.
(١٠٤) شرح المفصل: ١/ ١٩٥.
(١٠٥) شرح المفصل: ١/ ٢٠٣.

بخصائص للمبتدأ والخبر من اعتبارات العربية وحقائقها وقصدها ومقتضاها.

ومما كان موضع نقد من هذين النحويينِ حدُّ الفعل، فابن يعيش نظر في حدِّ الزمخشري له، واستدرك عليه وزاد، قال الزمخشري: «الفعل ما دلَّ على اقتران حدث بزمان»[١٠٦]، فأَتبعه فقال: «فأما الفعل فكلٌّ كلمة تدلُّ على معنى في نفسها مقترنة بزمان»[١٠٦]، فزاد «كلّ» على الحدِّ، وفي هذه الزيادة خلاف بين النحويين[١٠٧]، لأنها من أَلفاظ العموم، والحدُّ لا ينبغي له أن يحتوي لفظاً من هذا القبيل[١٠٨]، ثم ذكر أن بعضهم يضيف إليه «بزمان محصَّل»[١٠٩]، ولم يَرَ مساغاً لهذه الزيادة لأن الفعل «وُضع للدلالة على الحدث وزمان وجوده، ولولا ذلك لكان المصدر كافياً»[١١٠]، ثم انتقد حدَّ الزمخشري السالف واستردأه متعلِّلاً بأن فيه لفظاً من أَلفاظ العموم، وهو «ما»، والغرض من حدِّ الفعل الدلالة على الحدث المقترن بالزمان لا الدلالة على اقتران الحدث والزمان، لأن دلالة الاقتران محصَّلة من تلازم الحدث والزمان[١١١]. ولأن دلالته على الحدث تخرجه من قسيمي الكلمة الآخرين، فابن يعيش يجمع بين الاتكاء على اللغة وخصائصها وبين الاعتماد على شروط الحدِّ.

ولم يَسْتَجد ابن الحاجب حدَّ الزمخشري للفعل أَيضاً، فقال: «قوله: ما دلَّ على اقتران حدث بزمان ليس بجيد»[١١٢]، ووقف عند مسألة الاقتران ووجد

---

(١٠٦) شرح المفصل: ٧/ ٥.

(١٠٧) انظر هذا الخلاف في التذييل والتكميل: ١/ ٤٦-٤٨.

(١٠٨) انظر ما سلف ص: ٦.

(١٠٩) من أجل هذه الزيادة انظر شرح المفصل: ٧/ ٥.

(١١٠) شرح المفصل: ٧/ ٥.

(١١١) انظر شرح المفصل: ٧/ ٦.

(١١٢) الإيضاح: ٢/ ٧.

أنها مستفادة من دلالة الفعل على الحدث والزمان دلالة واحدة، وانتهى إلى أن ذكر الاقتران في الحدِّ لا يفيد معنًى، وأن «الحدث والزمان مدلولٌ باعتبار وضعه، فكان التعرُّض لهما باعتبار حدود الألفاظ هو الوجه الأَليق»(١١٣).

فلم تختلف جهة النقد عندهما في هذا الموضع، لأنهما رأَيا أن دلالة الفعل على الحدث والزمان مستفادة من وضع الفعل في اللغة، واقترانهما من دلالة الفعل عليهما جملة واحدة، فلا حاجة إلى ذكر الاقتران في الحدِّ. فهما إذن عوَّلا على الدلالة اللغوية للفعل ليس غير، وهذا من قبيل تلاقي الأفكار، لأن التكوين الفكري مختلف عندهما.

وأبدى ابن الحاجب رغبة في إحكام الحدِّ واستقامته وشموله، فلم يُعْجبه حدُّ الزمخشري للإمالة، إذ قال: «وهي أن تنحو بالألف نحو الكسرة»(١١٤)، فساق بضعة حدود للإمالة، ودفع قول الزمخشري في حدِّه: «بالألف نحو الكسرة»، فوقف عند مدلول الكسرة وموقعها وانتهى إلى ردِّ حدِّه.

ولم يقف ابن يعيش عند حدِّ الإمالة، وانصرف إلى بيان معناها لغة، وشرح طريقة أَدائها، وأظهر معناها، فقال: «عدول بالألف عن استوائه وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخمة وبين مخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفتها»(١١٥).

على أن ابن الحاجب وافق حدود الزمخشري في غير ما موضع، من ذلك حدُّ المثنَّى، قال الزمخشري فيه: «هو ما لحقت آخره زيادتان ألفٌ أو ياءٌ مفتوحٌ ما قبلهما ونونٌ مكسورة»(١١٦)، فامتدح هذا الحدَّ، ورآه هو

(١١٣) الإيضاح: ٢/ ٧.
(١١٤) الإيضاح: ٢/ ٢٨٨.
(١١٥) شرح المفصل: ٩/ ٩٦.
(١١٦) الإيضاح: ١/ ٥٠٦.

الذي يسدِّد معنى المثنى، وبه يحقَّق المطلوبُ من حدِّه، قال: «هذا هو الحدُّ الذي يستقيم في حدِّ المثنى»[١١٧].

ثم انتقد مَن قال في حدِّه: «ضمُّ شيء إلى مثله»، وعلَّل فساده[١١٧]، والحدُّ الذي دفعه هو ما حدَّ به ابن يعيش المثنى[١١٨].

والظاهر أن ابن يعيش ذهب إلى إيضاح مفهوم المثنى وماهيته، واستعان بالمعنى اللغوي لمادة «ثَنَى» وهو العطف، ورأى أن الزيادة التي تزاد على الاسم لتثنيته نحو الألف أو الياء يُقصد بها التعويض من الاسم المحذوف والدلالة على التثنية.

فما عدَّه الزمخشري وابن الحاجب من صُلب الحدِّ رآه ابن يعيش من العلامات الدالة على المثنى، لا مما يدلُّ على جوهره، قال: «فالزائد الأول وهو الألف أو الياء يكون عوضاً من الاسم المحذوف ودالًّا على التثنية»[١١٩].

ومما وافق فيه ابنا الحاجب ويعيش حدود الزمخشري ما حدَّ به الاسم إذ قال: «الاسم ما دلَّ على معنى في نفسه دلالة مجرَّدة عن الاقتران»[١٢٠]، فهو عندهما حدٌّ مستقيم يفي بالغرض، ويُميز الاسم من الفعل، وذادا عنه[١٢١].

نتائج البحث:

- تعويل النحاة الأوائل على التمثيل للاسم والإشارة إلى خصائصه اللغوية فيما يشبه أن يكون حدًّا له.

---

(١١٧) الإيضاح: ١/ ٥٠٦.

(١١٨) انظر شرح المفصل: ٤/ ٢٢٥.

(١١٩) شرح المفصل: ٤/ ٢٢٥.

(١٢٠) شرح المفصل: ١/ ٥١.

(١٢١) الإيضاح: ١/ ١٦-١٧.

- وقف البحث على أن أغراض المنطقيين ووسائلهم وتعبيراتهم غير ما عليه النحويون في هذه الأشياء.
- ظهور أثر المنطق في الحدِّ النحوي في القرن الرابع الهجري.
- الكشف عن مفهوم الحدِّ النحوي وماهيته وإظهار عناصره عند ابني الحاجب ويعيش والإشارة إلى موافقة هذه العناصر لما وضعه النحويون والمنطقيون شروطاً للحدِّ السديد.
- ظهور آثار المنطق عند ابن الحاجب في بحثه في الحدِّ النحوي أكثر من ظهورها عند ابن يعيش.
- عناية ابن الحاجب بالحدِّ النحوي واهتمامه به فاقت عناية ابن يعيش.
- سعي هذين النحويين لإحكام الحدِّ النحوي وتقديمه على صورة توضح ذات المحدود وجوهره وتفصله من غيره.
- نقد الحدِّ النحوي من حيث وفاؤه بالغرض منه وتفسيره وقراءته في كتاب «المفصل».
- إبراز أهمية الحدِّ النحوي، وتمييزه من الخاصة.

* * *

المصادر والمراجع

- ابن الحاجب النحوي، تأليف: أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٥.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٧٣.
- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين، دمشق، ط٢، ٢٠١٠.
- الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، تحقيق أ.د. مازن المبارك، ط٢، دار النفائس، ١٩٧٣.
- إيضاح المبهم عن معاني السلم، لأحمد الدمنهوري، تحقيق د. عمر الطباع، دار المعارف، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١.
- التبيين عن مذاهب النحويين، للعكبري، تحقيق د. عبد الرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- التذييل والتكميل، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق د. حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.
- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديد، بيروت.
- الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل، للبطليوسي، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.
- رسالة في الحدود، للرماني، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤.
- الرماني النحوي، في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، تأليف أ.د. مازن المبارك، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤.

- شرح الكافية للرضي الأستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠١٣.
- طرق الاستدلال ومقدماتها عند المناطقة والأصوليين، تأليف د. يعقوب الباحسين، مكتبة الرشيد، الرياض، ط٢، ٢٠٠١.
- الكافية، لابن الحاجب، تحقيق د. طارق نجم عبد الله، جدة، ١٩٨٦.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، ١٩٦٦.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- معجم التعريفات، للشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر.
- المعجم الفلسفي، للدكتور جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لطاش كبري زاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- المقتضب، للمبرد، تحقيق عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- المقرر في توضيح منطق المظفر، الحيدري السيد رائد، إيران، قم، ط١.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

الأبحاث:

- «نظرات في كتاب معاني القرآن للفراء»، أ.د.إبراهيم محمد عبد الله، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد: ٨٧، ج٢، ص٤١٠-٤١٢.

* * *

التعريفُ والنقد

ليلى الصباغ
وكتابها: الجاليات الأوربية في بلاد الشام
في العصر العثماني

أ. د. عبد النبي اصطيف(*)

تُعَدُّ ليلى الصباغ، بإجماع المعنيين بتاريخ البحث العلمي في جامعة دمشق، واحدة من أبرز أساتذتها في ميدان الدراسات التاريخية الحديثة. وفضلاً على كونها من فضليات النساء الدمشقيات خلقاً، وسلوكاً، وعلماً، وعطاءً، فإنها تركت لنا تراثاً قيماً ينبغي تدبّره بالنقاش الجاد والعميق، والتطوير الواعد والنشر، لما فيه من خير وفائدة.

وعمل **الدكتورة ليلى الصباغ في دراسة الجاليات الأوربية**[1] **في مرحلة حرجة من تاريخ بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر** جدير بوقفة تأمل، لأنه **عمل رائد أصيل يكشف عن الجانب الأهم في شخصيتها العلمية**، وهو السعي إلى تجنب السير في مستن الدروب، والمضي **في المنعرجات الصعبة بحثاً عن الجديد، واستكشافاً للآفاق الواعدة، بغرض**

(*) أستاذ في جامعة دمشق – كلية الآداب.

(١) انظر: د. ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٩) مجلدان يقعان في (١٠٧٦) صفحة.

إنتاج المعرفة التي يحتاجها المجتمع، والوطن، والأمة، ويتمكن بها من معرفة نفسه، ومعرفة الآخر، ومعرفة العالم من حوله.

والحقيقة أن كتاب **الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر** هو نص **رسالة ليلى الصباغ التي أعدَّتها بإشراف الأستاذ المرحوم الدكتور محمد أحمد أنيس، والتي نالت عليها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٦،** وتأخر نشرها حتى عام ١٩٨٩م، أي نحواً من ربع قرن، ومع ذلك فإنها لم تُتَجاوز من جانب الباحثين اللاحقين إلا في بعض جوانبها.

وتكمن أهمية الكتاب/ الرسالة – التي تصدّرها إهداء، يَشِي بإيمان المؤلفة بدور المرأة في تنشئة الأجيال الجديدة من أبناء وبنات، يمضي على هذا النحو: «**إلى سيدتي الكاملة أمي**» –، في:

- عنايته بحقبة تكاد تكون مهملة تماماً من جانب الباحثين العرب والمسلمين، وهو ما يتضح من النظر إلى مكتبة الكتاب التي تخلو من أية دراسة سابقة لموضوع الرسالة، **وهي حقبة مهمة جدًّا يمكن أن تشرح الكثير مما جرى في المشرق العربي في الأزمان اللاحقة، خاصة لأنها شهدت ألواناً من التفاعل الغني والمتنوع بين المشرق العربي وأوربة على مختلف المستويات: الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.**
- **غنى مكتبته التي تضم مراجع بالعثمانية، والتركية، والفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والألمانية، فضلاً على الكتب التي سجلت رحلات السياح الغربيين إلى المنطقة، والتي تعدّ مصدراً غنيًّا للمعلومات عن حال الجاليات الأوربية في المشرق العربي في تلك الحقبة.**
- وفضلاً على كل ما تقدّم فإن الكتاب **يقدِّم مسحاً دقيقاً وموثَّقاً لجذور**

الاستعمار الأوربي للمنطقة العربية، وهذا مما غفل عنه الكثير من الدراسات العربية التي عُنيت بالتمدد الاستعماري في الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وعلى أي حال فإن من اللافت للنظر وَعْيَ الباحثة التام لأهمية موضوعها، وهي أهمية تتوضح في دواعي اختيارها له، والتي تشمل:

١- الكشف عن دور المشرق العربي في التطورات التي شهدتها مطالع العصور الحديثة، فقد كان هذان القرنان فسحة تفاعل حضاري أثارت في الغرب اهتمامات أدبية وفكرية وعلمية جديدة.

٢- الكشف عن الجذور العميقة للاستعمار الغربي للمنطقة العربية.

٣- الكشف عن تحول الفكرة الصليبية من مجالها الحربي إلى مجالها الثقافي والفكري.

٤- دراسة الامتيازات التي استندت إليها الدول في تثبيت جالياتها على أرض بلاد الشام، والتي اعتمدت عليها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية.

٥- تأكيد حقيقة أن الاتصال بين سورية، **التي تقصد بها الباحثة بلاد الشام أو سورية الطبيعية** (ص٨)[٢] والغرب الأوربي لم ينقطع، بل إن سورية في هذين القرنين فتحت أبوابها أمام أوربة كلها دون تمييز.

٦- الكشف عن جوانب اهتمام أوربة بالشرق والسعي إلى فهم طبيعته، وإلى دراسة أحوال سكانه، ولغاتهم وثقافاتهم ومجتمعاتهم وحضاراتهم وتقاليدهم، وهذا ما شكل بجملته ما بات يدعى بـ«سحر الشرق».

(٢) تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين إلى صفحات الكتاب المذكور في الحاشية السابقة.

وإذا ما انتقلنا إلى محتويات الكتاب بجزأَيه فإننا نجدها موزعة على تسعة فصول، وعلى ثبت موسع بالمصادر والمراجع، وعلى الفهارس العامة، وعلى ثلاث خرائط.

فأما الفصل الأول فقد خصصته المؤلفة لدراسة الأصول التاريخية للجاليات الأوربية في سورية (ص١٧-٧٠)، في حين خصصت الفصل الثاني لدراسة أحوال الجاليات الأوربية والامتيازات التي مُنحت للدول الأوربية منذ ضَمِّ العثمانيين لبلاد الشام إلى الدولة العثمانية (ص ٧١-١٩٣). وأما الفصل الثالث فقد انصرفت الباحثة فيه إلى دراسة مسألة «**الامتيازات**»، والتي كانت «مسمار جحا» في تعامل أوربة لاحقاً مع تركة الرجل المريض. وأما الفصل الرابع فقد درست الباحثة فيه «إسكالات الشام» ص ٢٣٣ - ٣٤٢) والمقصود بالإسكالات **الموانئ والمدن الشامية التي أقام فيها الأجانب في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكانت محطات لتجارتهم ونشاطاتهم المختلفة.**

وأما الفصل الخامس فهو معنيٌّ بالحياة الاقتصادية للجاليات (ص ٣٤٣-٥٣٢)، في حين يُعنى الفصل السادس بحياتها الإدارية (٥٣٣-٦٤٠)، ويُعنى الفصل السابع بالحياة الاجتماعية لهذه الجاليات (ص ٦٤١-٧٦٦)، وينصرف الفصل الثامن إلى تدبر الجاليات الدينية (ص ٦٦٧-٨٥٠)، ليختتم الكتاب بفصل موسع هو الفصل التاسع تُجمِل فيه المؤلفة نتائج إقامة الجاليات الأوربية في المشرق العربي: والتي تشمل النتائج الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية (ص ٨٥٢-٩١٦).

وأما النتائج الاقتصادية فقد رصدتها الباحثة في جوانب تطور الاقتصاد الشامي في الميدان التجاري والصناعي والزراعي، وفي جوانب من التطور الاقتصادي في مواطن الجاليات.

وأما النتائج الاجتماعية فقد شملت احتكاك الجاليات الأوربية بالمجتمع السوري، وهجرة المسيحيين من الريف إلى المدينة، وظهور طبقة برجوازية غنية من المسيحيين واليهود، فضلاً على الانشقاقات المسيحية في المجتمعات العربية، وهجرات اليهود، ونقل بعض العادات والتقاليد و«حس الشرق» إلى أوربة.

وأما النتائج الفكرية فتمثلت بظهور نهضة فكرية في أوساط الفئات العربية المسيحية، وبدء الطباعة، وظهور تيارات فكرية جديدة في أوساط اليهود ذات طابع ديني قومي، وانبثاق أدب الرحلات والمراسلات، والتوسع في تأثر الأدب الأوربي بالشرق، ونمو حركة الاستشراق، والاهتمام بتدريس اللغات الشرقية، ولاسيما اللغة العربية، والاهتمام بجمع المخطوطات العربية والإسلامية ونقلها إلى العواصم الأوربية.

وأما النتائج السياسية فإنها تتبدى في تنافس الدول الأوربية على النفوذ في سورية الطبيعية أو بلاد الشام، وتمهيد الجاليات الأوربية للاستعمار السافر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وأما ثبت المراجع والمصادر فيشمل سرداً بالوثائق، وقائمة بالمراجع العربية والتركية، وأخرى برحلات السياح الأجانب، وثالثة بالمراجع الأجنبية، إلى جانب الفهارس العامة، وثلاث خرائط لحوض البحر المتوسط، والساحل الشامي وشرقي البحر المتوسط، والجزيرة العربية وجوارها الشرقي.

لقد نجحت الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها المهم في تجاوز **صمت المؤرخين العرب عن الجاليات الأوربية في منطقة مهمة من العالم القديم هي قلبه، بلاد الشام (ص ١٥)، مثلما تجاوزت مشكلات تشعب البحث**

وتفرعه، وصعوبة الحصول على الوثائق الأصلية، وضرورة التنقل بين بلدان عديدة للاطلاع على ما في مراكز الوثائق فيها من مستندات، وعلى تنوع اللغات التي تجب مراجعة تلك الوثائق الكثيفة بها (ص ١٥-١٦)، وقدمت عملاً ممتازاً ينتمي إلى الطبقة العالية من طبقات البحث العلمي، هو في نهاية المطاف صدقة جارية عن روحها النبيلة، لأنها قدمت بحقٍّ علماً يُنتفع به وتفيد منه الأجيال التي تنحني لذكراها الطيبة، إقراراً بفضلها، وإجلالاً لخدماتها الجلَّى لهذه الأمة، التي تفخر بأنها أمة من حَمَلة الرسالة.

* * *

نظرات في بعض قرارات مجمع اللغة العربيّة في الألفاظ والأساليب

د. عبد الناصر إسماعيل عسّاف(*)

(٢)

٢١- أجاز المجمعُ في قراره الرابع والثلاثين [م٨٧، ج٣] قولَهم: «دونما توقّف»، على أنّ «ما» زائدة، معتمداً على جواز زيادة «ما» بعد بعض الظروف التي مثَّل لها بـ«عندما وبينما وبعدما».

وفي كلام المجمع على ذلك ما يدعوني إلى التعقيب:

١- لم يُؤتَ تناولُ المجمع للمسألة ما ينبغي من الإحكام والاستيعاب؛ إذ كان من الواجب أن يسع المجمع بكلامه وقراره زيادةَ «ما» بعد «دون» أينما كانت، لا أن يقتصر على قولهم: «دونما توقّف»؛ وأن ينبّه على تمييز «ما» الزائدة من «ما» المصدرية بعد «دون» حكماً وخطّاً، فإذا كان التالي لـ«ما» مفرداً كانت «ما» زائدة، وكتبت متّصلة بـ«دون»، نحو: «دونما توقّف»، وإذا كان ذلك التالي جملة كانت «ما» مصدريّة، وكُتِبت منفصلة عن «دون»، نحو: «دون ما يلزم»(*).

٢- لم يستقرِ المجمعُ شواهدَ المسألة أو أمثلتها في كتب التراث. ولو نهض لذلك لانتهى إلى أنّ زيادة «ما» بعد «دون» من المولّد القديم، وأنّ

(*) عضو الهيئة التدريسية في كليّة الآداب - جامعة دمشق.

(*) هذا من المتعالَم وله مكانه في كتب الإملاء. [المجلة]

المحدثين أكثروا منه؛ ولاستأنس بشيء ممّا ورد في كلام القدماء من ذلك. فمن ذلك قول ذي الوزارتين ابن لُبُّون (ت نحو ٤٩٠هـ) في موشّح له[١]:

فخـــــر آل داوود دونمـــــا إنكـــــار

وقول لسان الدين بن الخطيب:

رُحمـى بـلا مـنٍّ أمـنٌ دونمـا رَهَـبٍ وحفـظُ أذِمَّـةٍ وذِمـار

٣- التمثيلُ لزيادة «ما» بعد الظروف بـ«عندما وبعدما» غيرُ صحيح؛ لأنّ تدبّرَ ما كانت فيه «ما» في كلام العرب بعد هذين الظرفين «عند، وبعد» يدلّنا على أنّ «ما» الواقعةَ بعدهما مصدريّة؛ إذ لو كانت زائدة لكان «عند، وبعد» مضافين إلى جملة، وهما لا يُضافان إلّا إلى مفرد. ومن ثَمّ وجب الحكمُ على «ما» بعدهما بأنّها مصدريّة مراعاة للأصل واستصحاباً للحال.

٢٢- علّل المجمعُ رأيَه بجواز قولهم: «طلب منه»، بتعدية الفعل بحرف الجرّ «من» في قراره السادس والثلاثين [م٨٧، ج٣] بورود ذلك في عبارة (المعجم الوسيط) في تفسير بعض ما لا علاقة له بمادّة (طلب)، وورودِه كثيراً في كتب ما بعد عصر الاحتجاج. فكان بذلك كأنّه يصدّق احتجاجَ مَن خطَّأَ ذلك بـ«أنّها لم ترد في المعاجم القديمة».

ولو استوعب المجمعُ معاجمَ العربيّة في استقرائه، ونظر نظرَ المدقّق، لكان له من بعض تلك المعاجم دليلُ نصٍّ يؤيّده. فهذا الزمخشريّ في (أساس البلاغة) (طلب) يقول: «طلَبَ منّي فأطلبته: فأسعفته»؛ وذاك الفيّومي يقول في شرح بعض ما كان من مادّة (طلب): «الطِّلاب مثل كتاب: ما تطلبه من غيرك».

وبهذا تسقط حجّةُ من خطّأَ هذه العبارةَ، وتزول شبهةُ التوليد التي تلوح من وراء استدلال المجمع. ومن ثمّ ينبغي أن يضمّن المجمعُ قرارَه ما يدلّ

(١) لسان الدين بن الخطيب، جيش التوشيح، ١٥٩، وانظر فيه أيضاً ٨٦.

على فصاحة هذا الاستعمال، فيقول: قولهم: «طلب منه» بمعنى طالبه أو سأله شيئاً، صحيح فصيح.

٢٣- أجاز المجمعُ في قراره السابع والثلاثين [م٨٧، ج٣] قولَهم: «طيلة النهار» بمعنى طَوال النهار، معتمداً على ما نقلَه من (اللسان) و(التاج)، فقال في التعليل: «جاء في اللسان والتاج»: أطال اللهُ طِيلَتَه، أي عمره، وطال طِوَلُك وطِيَلُك، أي عمرك. قال القطامي:

إنّا محيُّوك فاسلم أيُّها الطلل وإنْ بِليتَ وإن طالت بك الطِّوَل

ويروى: الطِّيَل جمع طِيْلة بمعنى طَوال، وكلتاهما ههنا بمعنى المدى.

هكذا ورد في كلمة المجمع. وفي ذلك تحريف؛ لأنّ قول القَطاميّ ورد في هذين المعجمين وسواهما في سياقه دليلاً على مجيء «الطِوَل والطِيَل» بمعنى «الغَيْبة».

قال الجوهري: «وطالَ طِوَالُك وطِيَلُك، أي عُمرك، ويقال غيبتك. قال القطامي:..... البيت. ويروى «الطِّيَلُ».»

وقال ابن منظور: «وطالَ طِوَلُك وطِيَلُك، أي عُمرك، ويقال غيبتك. قال القطامي:..... البيت. ويروى الطِّيَلُ جمع طِيلة، والطِّوَل جمع طِوَلة،....».

وقال الزبيديّ: «وقال الزَّجّاج: طال طِيَلُك، وطِوَلُك: أي طالت مُدَّتك، أو عُمُرُك، نقله الجوهريّ، وهو مجاز أيضاً، أو غيبتك، نقله الجوهريّ أيضاً. قال القطاميّ:..... البيت. ويروى الطِّيَلُ جمع طِيلة، والطِّوَل جمع طِوَلة،...»[٢].

فإهمالُ السياق، وتفسيرُ الشاهد بخلاف ما يقتضيه ذلك السياق، لاختيارِ المعنى الذي يريده المجمع، ضربٌ من التحريف والتحكُّم الذي لا ينبغي.

(٢) انظر على التوالي: الصحاح، اللسان، التاج (طول). وفي الصحاح كما أثبتُّ «طِوَالك». ولعلّ الصحيح الذي يدلّ عليه كلام الزبيديّ، ويشي به كلام ابن منظور «طِوَلك».

على أنّ تخريجَ قول الناس: «طِيْلَة النهار» أيسرُ من أن يُهتَمّ له كبير اهتمام؛ لأنّ «الطِّيلة» كما يدلّ قول الزجّاج الذي ذكره الزبيدي تكون بمعنى المدَّة، فإذا قيل «طِيلة النهار» كان المعنى مدّة النهار، وهو بذلك يدلّ بأخرة على معنى طول النهار.

هذا، وفي تعبير المجمع عن ذلك وتخريجه شيءٌ من تقييد وتضييق غيرُهما أحسن. فلو وسع المجمعُ بكلامه كلَّ عبارة نُسِبت «الطِّيلة» فيها إلى زمان كاليوم والليلة والأسبوع والشهر....إلخ لكان تعبيرُه أحكم. ثمّ لو خرّج الكلامَ في تعليله على أنّ نسبةَ «الطيلة» إلى النهار والليل ونحوهما، وهي في الأصل بمعنى العمر، من باب الاستعارة والمجاز، استُعير ما كان خاصّاً بالأحياء ونُسِب إلى الزمان لما بينهما من جامع المدى والطول؛ لكان سائغاً حسناً.

٢٤- أجاز المجمعُ في قراره الثامن والثلاثين [م٨٧، ج٣] قولَ المعاصرين: «العائلة» بمعنى الأسرة، وخرّج ذلك على وجهين:

الأوّل: العائلة من العائل، وهو اسم فاعل من عالَ عِيالَه: إذا أنفق عليهم وكفاهم معاشَهم، «فالعائلة هي التي تنفق على عيالها وأهل بيتها. فيمكن قبول كلمة (العائلة) على أنّها الجهة المنفقة على العيال، وهم أهل البيت، لأنّ أسرة الرجل أهل بيته. »

الثاني: أنّ العائلة اسم فاعل أريد به اسم المفعول، فالعائلة هي المُعالة كما ذهب إلى ذلك (المعجم الوسيط).

وفي التوجيه الأوّل قلقٌ؛ لأنّ توجيه (العائلة) على أنّها الجهة المنفقة على العيال، يقتضي اقتصارَ مفهوم «العائلة» على من كانت له يد في الإنفاق، وإخراج عيال الرجل الذين يعولهم ويتكفَّل بهم، خلافاً للواقع؛ لأنّ المنفِقَ والمنفَقَ عليه قطعة من العائلة. على أنّ العبارة التعليلية الأخيرة

«لأنّ أسرةَ الرجل أهل بيته» تذرُّ الاختلاف في هذا التوجيه، وتصله بالوجه الثاني، لأنّ أسرة الرجل مُعالةٌ لا عائلة.

٢٥- أجاز المجمع في قراره الثالث والأربعين [م٨٧، ج٤] اقتران «أبداً» بنفي الماضي في نحو قولهم: «ما فعلت هذا أبداً»، وعوّل فيه على ما عوّل عليه مجمع اللغة العربيّة في القاهرة في ذلك من استدلال وتعليل. وذلك حسن، بيد أنّ قراره افتقر إلى شيء من الإحكام والاستيعاب.

ولو زان المجمع قرارَه في ضوء تعليله واستدلاله، وأراد له أن يكون محكماً مستوعباً، لقال: يُستخدَم «أبداً» في الغالب لنفي المستقبل، و«قطُّ» لنفي الماضي نحو «لن أفعله أبداً، ولم أفعله، أو ما فعلته قطُّ»؛ واستخدام «أبداً» مقترناً بنفي الماضي، نحو قولهم: «ما فعلت ذلك أبداً، ولم أفعله أبداً» صحيحٌ فصيح، لوروده في كلام العرب، وإن كان قليلاً.

وللمجمع أن يُفيد في ذلك ممّا انتهى إليه بعض الباحثين، ووقف عليه من شواهد وأمثلة دالّة على مصاحبة «أبداً» للجملة المنفية في الماضي في أصول تراثنا، يعود بعضها إلى عصر الاحتجاج في اللغة[٣]. ومن ذلك مثلاً قول يزيد ابن مفرّغ (ت ٦٩هـ)[٤]:

لولا الدعيُّ ولولا ما تعرّض لي ... من الحوادث ما فارقتها أبداً

وقول الجاحظ في حديثه عن ذكر النعام: «فإنّ الظليم متى انكسرت إحدى رجليه لم يبرح مكانه أبداً عاش أو مات»[٥].

٢٦- بدا لي في تناول المجمع إذ تناول في قراره الخامس والأربعين [م٨٧، ج٤] جمْعَ «مدير» على «مدراء» ما يوجب التعقيب والنظر.

(٣) د. عباس السوسوة، العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية، ١٦١ - ١٦٣.

(٤) ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري، جمعه وحقّقه د. عبد القدوس أبو صالح، ٨٩.

(٥) الجاحظ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، ٣٥١.

١ – نصّ المجمعُ حيث علّل لقراره في منع جمع «مدير» على «مدراء» على أنّ العرب صاغت من «المتراس» صياغة اشتقاق، فقالت: «تَمَتْرَس»، وأن القياس «تترَّس»؛ ونصّ أيضاً «أنّه لم يُسمَع توهُّمٌ في الجمع، فلا يُقاس عليه».

وفي هذا حكمان لا يصحّان: الأوّل أنّ العرب صاغت من «المتراس» الفعل «تَمَتْرَس». وهذا شيءٌ غريب، لا نجد له أثراً أو دليلاً في كلام من يُحتَجّ بكلامه، ولا في معاجم العربيّة(*).

الثاني الحكم بنفي سماع توهُّم في الجمع يقاس عليه جمعُ «مدير «على» مدراء». وهذا قول من لم يستوف النظر في كلام العلماء؛ لأنّ بعضَ العلماء نصَّ على شيء من ذلك، فهذا الفرّاء مثلاً يقول: «قالت العرب في المصير، وهو من صرت: مُصران للجميع، ومسيل الماء، وهو مَفْعِل: مُسْلان للجميع، فشبّهوا مَفعِلاً بفعِيل»(٦).

وذلك الرضيّ الأستراباذي ينصّ على أنّ توهّم أصالة ميم «مَسيل» حملَهم على أن جمعوها على مُسْلان وأمسِلة كقُفزان وأقفِزة في جمع قَفيز، وحقّه مسايل(٧).

ولو كان ذلك بين يدي المجمع لاعتدَّ به في تقديري، وقاس جمعَ «مدراء» عليه قياساً، فخلع عليه حكم الجواز؛ لأنّ الحائل دون ذلك كما دلّ كلام المجمع هو انتفاء سماع توهّم في الجمع يُقاس عليه.

(*) أجل، هذا صحيح، وقد عُدِل في الأصل إلى التمثيل بفعل (تَمَسْكَنَ) من المسكين، والقياس فيه (تَسَكَّن). [المجلة]

(٦) معاني القرآن ٢/ ١٥٣.

(٧) شرح الشافية للرضي، ١/ ٢٩، ٦٨، ٢/ ٣٣٦، ٣/ ١٣٤، وانظر: اللغة العربية ثوابت ومتغيّرات، د. محمد عبدو فلفل، ٦٠، ٦٨.

وإذا بدا للمجمع أن يُعيد النظر فيما كان من كلامه تعليلاً وقراراً في ضوء ذلك، فإنّ قياس «مدراء» لزوال الحائل لا يسلم من التوقّف والنظر؛ لما يغشى المقيس عليه من قلّة وشذوذ.

٢- لم يبلغ المجمع في تناوله جمع «مدراء» مبلغَ التمام من الاستقراء، ولو بلغه لأفاد ممّا انتهى إليه بعض الباحثين في «مدراء»، إذ قال: وقيست منذ القرن التاسع على وزراء، وأوّل ما نجده - حسب علمنا - عند القلقشندي (ت ٨٢١هـ): «المدراء: طائفة من الأعوان بديوان الإنشاء، مهمتهم أخذ المكاتبات وإدارتها على كاتب السرّ ومَن دونه من كتّاب الديوان»(٨).

ومن ثَمّ كان من المستحسن التنبيهُ على أنّ جمع «مدير» على «مدراء» من مولّد المتأخّرين، وأنّه فشا في كلام المعاصرين واستشرى.

٢٧- كان كلامُ المجمع في قراره السابع والأربعين [م٨٧، ج٤] الذي تناول فيه كلمة «المصداقيّة» التي يستعملها المعاصرون، ممّا أخذ الاضطراب فيه مأخذه.

فقد اقترح المجمعُ جوازَ هذه الكلمة بمعنى ما يصدّق القول أو دليل الصِّدق. وهو ما يعني بآخرة أنّ هذه الكلمة «المصداقيّة» بمعنى كلمة «مِصداق» التي نصّت عليها المعاجم. ثمّ صرّح في معظم ما كان من تعليله أنّ «المصداقيّة» يمكن أن تُعدَّ مصدراً صناعيّاً مبنيّاً من مبالغة اسم الفاعل «مِصداق» الذي فُسِّر في المعاجم بمعنى ما يُصدِّق الشيءَ أو حقيقتَه، أو دليلَ الصِّدق؛ وأنّ معنى هذا المصدر الصِّناعيّ: الصدق وما يلازمه من خلق مثل الأمانة والشجاعة والحياء. وهو بهذا التوجيه ينحرف عن ذلك الاقتراح،

(٨) العربيّة الفصحى المعاصرة ٦٣، وكلام القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ١/ ١٣٩، وانظر فيه أيضاً: ٣/ ٤٩٤، ٦/ ٢٠٧.

ويجري على خلاف ما يقتضيه. ثمّ انقلب المجمع في الفقرة الثالثة من ذلك التعليل على ذلك، إذ ناقش الغرضَ الموجبَ لتوليد كلمة جديدة (مصداقيّة) إذا كانت كلمةُ (مصداق) تؤدِّي المعنى المراد؛ وبيّن أنّ من مذاهب العربيّة التوسُّعَ في توليد الألفاظ المطابقة في المعنى لتلبية التعبير البلاغيّ أو الشعريّ أو لمجرد التجديد. فكان بذلك يعلن بما لا شكّ فيه أنّ كلمة «مصداقيّة» التي يستعملها الناس في زماننا بمعنى «مِصداق» التي نصّت عليها المعاجم.

وإذا كانت الحال كذلك فأين تلاشى المصدرُ الصناعيُّ ؟ وأين دلالته الجديدةُ المختلفة عن دلالة مبالغة اسم الفاعل الذي بُني منه «مِصداق»؟! وأين بنية الاستدلال المترابطة المحكمة؟ أم هو الاضطراب ونقض الغزل بعد إبرامه؟!

حتى إذا انتهيتَ إلى القرار كنت كأنّك تقرأ الاقتراحَ مرّة ثانية، إذ ما من شيء فيه يُشعِرك بما ذهب إليه في التعليل من حمل هذه الكلمة «المصداقيّة» على المصدر الصناعيّ.

فهل ثمّة حاجة إلى الحكم أو التعليق بعد، وقد وشى الوصف به أو بنحوه، وأغنى عنه؟

٢٨- أجاز المجمعُ في قراره الثامن والأربعين [م٨٧،ج٤] استعمالَ «من خلال كذا» في نحو: «عرفته من خلال كتبه»، بمعنى بوساطة أو بطريقة؛ وعلَّل لذلك بما فيه نظر.

أجاز المجمع في تعليله ذاك دخولَ حرف الجرّ «من» لابتداء الغاية على «خلال» حملاً على «أثناء» لأنّ «خلال» تشاركها في الظرفيّة، وإذا دخل حرف الجرّ «في» على «أثناء» في الأصل أمكن أن يدخل حرف الجرّ «من» الدالّ على الغاية على «خلال»، ثمّ قال: «ويصبح قولهم: عرفت فلاناً من خلال الجرائد، أي مبتدئاً معرفته من خلال الجرائد».

وفي هذا نظرٌ من وجهين:

١ – حملُ «خلال» على «أثناء» لإجازة دخول حرف الجرّ «من» عليها تأويلاً، قولُ من غاب عنه أنّ دخول «من» التي لابتداء الغاية على «خلال» ثابتٌ ثبوتاً لاشكّ فيه. ومن شواهده مثلاً قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣، الروم: ٤٨]، وقول عليّ ﷺ[٩]:

ومحمّدٌ فينا كأنّ جبينه شمسٌ تجلّت من خلال غمام

وقول عليّ بن الجهم[١٠]:

طلعتْ وهي في ثياب حداد طلعة البدر من خلال سحاب

وقول عمر بن أبي ربيعة[١١]:

شفّ عنها مرقّقٌ جَنَديٌّ فهي كالشمس من خلال السحاب

وأنشد ابن برّي لشاعر[١٢]:

يُسائلن: من هذا الصريع الذي نرى؟ وينظرْن خلساً من خلال المراجل

٢ – توجيهُ «من خلال كذا» في هذا التعليل على أنّ «مِنْ» فيه لابتداء الغاية، وأنّ «عرفت فلاناً من خلال الجرائد» معناه مبتدئاً معرفته من خلال الجرائد = جارٍ على خلاف ما صرّح به المجمعُ في ثلاثة مواضع من كلامه على هذا الاستعمال، من أنّ قولهم: «من خلال كذا» بمعنى بوساطة أو بطريقة، وهو ما يعني بآخرة أنّ «من» فيه في ضوء تصريح المجمع للسببيّة أو الواسطة.

وفي هذا اختلافٌ بيّن، إلّا أن يقال: إنّ المعنى الأوّل الظاهر من ذلك

---

(٩) ديوان الإمام علي، جمعه وضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٨٠.

(١٠) ديوان علي بن الجهم، ١١٧.

(١١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ٦١.

(١٢) لسان العرب، وتاج العروس (مرجل).

هو ابتداء الغاية، وإنّ اقتضاء العبارة يُفضي إلى معنى السببيّة أو الوساطة، وهو المعنى الثاني (الاقتضائيّ أو التأويليّ).

هذا، ولا يعدم المرءُ معنى السببيّة أو الواسطة ظاهراً بيّناً في عبارة «من خلال» التي وردت في بعض ما انتهى إلينا من شواهد وأمثلة فيها. ومن ذلك قول الشريف المرتضى(١٣):

لـمّا بلـوتُ الأصـدقاء ووَدَّهـم خلصت إليه من خلال التجـارب

وقول أبي حيان التوحيدي في كتابه (أخلاق الـوزيرين): «وأزيـدك مـن خلال ذلك كلّه خبرة بالدهر وأهله...»(١٤).

٢٩- أجاز المجمع في قراره التاسع والأربعين [م٨٧، ج٤] استعمالَ «مؤقَّت» بالهمزة، على الرغم مما أشعر به تعليله ثمّة من امتناع ذلك؛ إذ قال: وجاء في كتب العربيّة: «وأمّا إبدال الهمزة من الواو فعلى ضربين: مقيس وشاذّ، فالمقيس إبدالها من كلّ واو انضمّت ضمّاً لازماً، نحو: وجوه وأُجوه، ووُعِد وأُعِد، ووُقِّتت وأُقِّتت، والمسموع ما عدا ذلك...»؛ وعقّب بقوله: «يفهم من هذا أنّ «أُقِّتَتْ» لغة في «وُقِّتَتْ» في هذه الصيغة حصراً، أي إذا جاءت الواو مضمومة، وليس في كلّ تصريفات (وقت). والمعروف أنّ العرب تُبدِل الهمزة واواً للتخفيف، وليس العكس،...».

ورأي المجمع في «مؤقَّت» بالهمزة الممتدّ من التعليل إلى النتيجة ذو بنية منطقيّة ومنهجيّة مضطربة؛ لاختلاف المقدمة والنتيجة.

على أنّ ذلك الفهم الذي نصّ عليه المجمع، وانتهى إليه من قراءة بعض ما كان في كتب العربيّة، يُعترَض من وجهين:

---

(١٣) الثعالبي، يتيمة الدهر، شرح وتحقيق: د. مفيد قميحة، ٥/ ٧١.

(١٤) أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، تح: محمد بن تاويت الطنجي، ٨.

الأول: أن الحكم الصرفيّ أو الصوتيّ في العربيّة يطّرد أحياناً في تصريفات الكلمة الواحدة جميعاً، وإن فُقِدت علّة الحكم الواجب في بعضها، للمجانسة.

الثاني: أن بناء «مُؤقَّت» ثابت لا خلاف فيه، فالزبيديّ مثلاً نصّ عليه نصًّا، إذ قال: «الأَقْت بالقاف لغةٌ في الوقت، كذا صحّحه جماعة، أو إبدال، أو لحن. والتأقيت كالتوقيت: تحديد الأوقات. وهو مؤقّت من ذلك»(١٥). وقد استعمله العلماء كثيراً، فقد ورد مثلاً في كلام الفرّاء وأبي هلال العسكري والفيروزآبادي وابن منظور(١٦).

وقول المجمع يزيّن فهمَه: «والمعروف أنّ العرب تُبدِل الهمزة واواً للتخفيف، وليس العكس،....» = مُعترَض؛ لما فيه من إطلاق لا يصحّ؛ لأنّ التخفيف يكون أحياناً بإبدال الواو المثقلة بالضمّ همزة، وعلى ذلك يدلّ قولُ ابن منظور وغيره في تفسير إبدال الواو همزة في «أُقِّتت»: «وذلك لأنّ ضمّة الواو ثقيلة».

٣٠- بدا في كلام المجمع في قراره الخمسين [م٨٧، ج٤] الذي تناول فيه خمسة مصادر استعملها الناس في زماننا: «الميوعة، الليونة، السيولة، الخصوبة، العمولة» = ما لا تفسير له، من وجهين:

١- اقترح المجمع ثمة الحكمَ بجواز تلك المصادر الخمسة التي نصّ عليها نصّاً؛ حتى إذا وصل إلى القرار اكتفى بالحكم على جواز مصدرين فقط، فقال: «القرار: جواز قولهم: ميوعة، وليونة»!، دون أن نحظى بما

(١٥) تاج العروس (أقت)، وانظر: الحسن والإحسان في ما خلا منه اللسان، جمعه عبد الله البارودي (أقت).

(١٦) انظر مثلاً: (معاني القرآن) ٢/ ١٠٤، والفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ٥٨، والقاموس المحيط (أمت)، ولسان العرب (وقت).

يفسّر غياب المصادر الثلاثة الأخرى، فهل كان ضياعها دليل منع، أم كان علامة سهو وغفلة، أم كان من سقط الطباعة ؟! ذلك ما لم نجد جواباً عنه في كلام المجمع في موضعه، أو في موضع آخر.

٢- تمسّك المجمع في تعليله لجواز تلك المصادر - وكلامه فيه عامّ يتناول تلك المصادر الخمسة وأمثالها - بما كان عليه مجمع اللغة العربيّة في القاهرة من إقرار صوغ مصدر «فُعُولة» من كلّ فعل ثلاثيّ بتحويله إلى الباب الخامس (فَعُل - يفعُل) إذا احتملت دلالته الثبوت والاستمرار.

وفي هذا القياس ما يدعو إلى التوقّف والنظر؛ لأنّ التحويل الصَّرفيّ للفعل الثلاثيّ الأجوف اليائيّ إلى الباب الخامس يقتضي تغيير البنية الصوتيّة في مضارعه، وقلب الياء واواً، ونقله إلى الأجوف الواويّ «يميُع ←يمْيَع ← يمُوع» و«يليُن ← يلْيَن ← يلُون» و«يسيُل ← يسْيَل ← يسُول».

وهذا يحتاج إلى تفسير وتبيين لا أثر له في كلام المجمعَين. وهذه الحلقة المفقودة تقتضي معرفةَ حال كلّ فعل ثلاثيّ أجوف يائيّ؛ فإذا ثبت له شقيق أو مضارعٌ واويٌّ نصًّا أو استعمالاً، جاز أن يُبنى مصدره على وزن «فُعُولة»، إذا احتيج إليه، واحتمل الدلالة على معنى ثابت مستمرّ كالغريزة، كما ورد في قرار مجمع اللغة العربيّة في القاهرة؛ لأنّ ثبوت ذلك يساعد على قبول تحويل الفعل الثلاثيّ الأجوف اليائيّ إلى الباب الخامس، ويدلّ عليه.

ومن هنا ربّما جاز تحويل «ماع يمِيع» إلى الباب الخامس، وبناء مصدر «ميُوعة» منه؛ لثبوت قرين واويّ له. قال الزبيديّ (موع): «وفي اللسان: ماعَ الصُّفْرُ في النار مَوعاً: ذاب. وهذا على المعاقبة: ماع مَيْعاً ومَوْعاً».

لكن هل ورد شيء من ذلك في «لان» و«سال»؟

٣١- افتقر كلامُ المجمع في قراره الثالث والخمسين [م٨٧، ج٤] إذ تناول استعمال المعاصرين كلمة «الواجهة» إلى شيء من الاستيعاب والإحكام. فقد كان ينبغي أن يذكر فيما ذكر ما عليه المعاصرون من اتّساع في استعمال «الواجهة» للإنسان بمعنى الوجه.

وكان من الواجب أن يُحكِم تعليلَه، وينأى به عمّا لا يصحّ من الاستنتاج والتأويل؛ فكلامُ اللغويين في المعاجم (اللسان) و(التاج) و(المعجم الوسيط) الذي ساقه المجمعُ ثمّة لا يُفهَم منه ما فهمه منه المجمع: «أنّ العرب استعملت الفعل (وَجَهَ) الثلاثيّ بمعنى (اتجّه)». وإذا كان معتمد المجمع في ذلك قولهم: «تَجهتُ إليه أتَّجهُ أي توجَّهتُ؛ لأنّ أصل التاء فيهما واو» فقد أخطأ النجعة، وعبارة «لأنّ أصل التاء فيهما واو» مبنيّة على فرْض وتصوّر عقليّ، لا على استعمال ورواية. واستقراءُ معاجم العربيّة يدلّنا على أن الفعل الثلاثيّ «وَجَهَ» بمعنى اتّجه من المهمل الذي لم تستعمله العرب.

وإذا سقط بهذا استنتاجُ المجمع، وهو المقدّمةُ التي اتّخذها أساساً بنى عليه ما وراءه؛ فقد سقط كلّ ما قام عليه من كون «واجهة» اسم فاعل من «وَجَه»، وحمْل «وَجَهَ» على «واجَهَ»، بحيث يكون معنى اسم الفاعل «واجهة» بآخرة مُوَاجِهة، ويكون في الأصل صفةً لموصوف استُغني عنه (الناحية الواجهة)، ثمّ غلب عليها الاسميّة.

وإذا استدلَّ المجمع بما كان من ورود هذه الكلمة مراراً فيما انتهى إلينا من كلام المتأخّرين، ومنها الأمثلةُ التي اختارها المجمعُ، استدلالَ استئناس صحيحاً دالًّا على أنّ هذه الكلمة من مولّد المتأخّرين، فقد كان يحسن به أن يذكر ما نصّ عليه البستانيّ في (محيط المحيط) (وجه) من أنّها عامّيّة، إذ

قال: «الواجهة: مستقبَلُ كلّ شيء، وهي من كلام العامّة»؛ وكان يحسن به أن ينصّ على أنّ هذه الكلمة من عامّي المتأخّرين والمحدثين أو مولّدهم.

وإذا سقط الاستدلالُ بما استنجد به المجمع في تسويغ هذه الكلمة، كان ينبغي أن ينصّ على أن وراء ذلك التسويغ كثرةَ استعمالها وفشوّها.

٣٢- صحَّحَ المجمع في قراره الثالث [م٨٨، ج١] قولَ المعاصرين في جمع «بائس» بمعنى فقير أو محتاج على «بؤساء»؛ وعدّه جمعاً قياسيًّا، وذكر في أثناء تعليل ذلك أنّ جمع «فُعَلاء» قياسيّ في صفة المذكّر العاقل الذي على وزن «فاعل» الدالّة على سجيّة مدحٍ أو ذمٍّ كعالم وعلماء، وجاهل وجهلاء، وعقّب على ذلك بقوله: «وهذا الصنف الثاني منطبقٌ تماماً على كلمة «بائس» التي هي صفةٌ لمذكّر عاقل على وزن (فاعل) ».

ومثلُ هذا ممّا يدعو المرءَ إلى القول: إنّ تسويغ استعمال «بؤساء» بعلّة الكثرة والفشوّ أولى من إطلاق قياسه على جمع «فاعل» إذا كان صفة لمذكّر عاقل دالّة على سجيّة مدحٍ أو ذمٍّ على «فُعَلاء»؛ وادّعاءِ مطابقة «بائس» بمعنى الفقير أو المحتاج لهذا الصنف؛ لأنّ «بائس» وافق ذلك في اللفظ دون المعنى، وإلّا فأين سجيّةُ المدح أو الذمّ التي في هذا الوصف، وهي قطعةٌ لا تنفكّ من شرط جمعه على «فُعَلاء»؟

والتشبُّث باللفظ وحده دون الالتفات إلى المعنى، والتصريح بآخرة بأنّ هذا الصنف الثاني منطبقٌ تماماً على كلمة «بائس» = تحكُّمٌ واعتلالٌ بعيد عن أصول الصنعة والمنهج.

ومن المناسب في تقديري الإشارة إلى التفسير الذي فسّر به د. محمّد عبدو فلفل جمع «بائس» على «بؤساء»، إذ عدّه في مجلة المجمع [م٨٨، ج١، ١١٥] من قبيل القياس على ما يشارك كلمة «بائس» في المعنى

الصرفي، وفي الحقل الدلاليّ المعجميّ العامّ، وفي السياق الاستعمالي: «فقير وفقراء، وضعيف وضعفاء».

٣٣- أجاز المجمع في قراره الرابع [م٨٨، ج١] قولَ المعاصرين: «بتَّ في الأمر» بمعنى أعطى حكماً قاطعاً فيه، على أنّ الفعل «بتَّ» متعدٍّ بحرف الجرّ «في»؛ وذكر في مقام التعليل ما يوجب التعقيب؛ لأنّه لا يصحّ اعتماده، والاحتجاج به.

١- استند المجمع فيما ذهب إليه من تعدية الفعل «بتَّ» بحرف الجرّ «في» بوقوعه مقترناً بهذا الحرف في (المعجم الوسيط) في مادّة «قطع»: «قطَعَ برأيه: بتَّ فيه»، الذي عقّب عليه المجمعُ بقوله: «جاء متعدّياً بـ(في) في عبارة المعجم الوسيط، ومع أن واضعي المعجم الوسيط استعملوه ولكنّهم لم يوردوه في مادّة (بتَّ) ». ا.هـ.

واستعمال واضعي المعجم الوسيط ذلك في مقام التفسير ليس دليلاً على صحّة مذهب المجمع في كون الفعل متعدياً بالحرف، ولا إشعار فيه بجوازه. فلا يصحّ الاعتماد عليه، إلّا أن تكون عبارةُ واضعي المعجم الوسيط حجّة مبرّأة.

٢- حَمَلَ المجمعُ الفعل «بتّ» فيما ذهب إليه من تعديته بالحرف «في» على الفعل «قَطَعَ» تضميناً؛ إذ رأى أنّ الفعل «قَطَعَ» قد يُعَدَّى بذلك الحرف، وهو ما استدلّ له بما ورد في كلام بعض العلماء.

لكنّ تأمُّلَ تلك الأمثلة مثالاً مثالاً يدلّنا على أنّ الفعل «قطع» فيها متعدٍّ بالباء لا بالحرف «في».

قال ابن جني(الخصائص ١/ ٥٣): «لا يُقطَع فيها بيقين».

وقال ابن حزم (المحلّى ٩/ ١٢٢): «فهؤلاء عمر وعثمان وزيد بن ثابت لا يقطعون فيه بشيء».

وقال السبكي في فتاويه (كتاب الصيام ١/ ٤١٧): «ومنها ما لا يقطعون فيه بعدم الإمكان».

فالفعل «قطع» في هذه الأمثلة متعدٍّ بالباء: «بيقين، بشيء، بعدم»، وحرف الجرّ «في» فيها ظرف لا غير. وهذا ما تدلّ عليه بعض المعاجم نصّاً أو إشارة. قال الصاحب بن عباد: «فَرَزَ فلان عليَّ برأيه: قطَعَ به»؛ وقال: «الإجرار: أن تُتبِع رأيَه رأيَك. وجَرَّ به: إذا قَطَعَ به»(١٧).

وفي المعجم الوسيط (قطع): «قطَعَ برأيه: بتَّ فيه».

وبذلك يسقط اعتلالُ المجمع لما ذهب إليه في تعدية الفعل «بتَّ» بحرف الجرّ «في» حملاً على الفعل «قطع» تضميناً. ومن ثَمّ كان الواجب أن يحفظ المجمعُ لهذا الفعل «بتَّ» أصلَه في تعديته بنفسه، على أن يكون مفعوله مقدّراً: أي بتَّ رأيه أو حكمه أو قولَه فيه. وما ورد في كلام المجمع من عزو هذا التخريج في تعليله إلى (دوزي) سهوٌ؛ لأنّ كلامَ (دوزي) في كتابه (١/ ٢٣٦) خلوٌ من ذلك نصًّا أو إشارة، والفعل «بتّ» فيما ذكره (دوزي) ثمّةَ ناقلاً من معجم بوشر (المعجم الفرنسي العربيّ) متعدٍّ بنفسه، قال: «بتَّ الأمرَ: جزم به وأمضاه.....، قرار. بتَّ الرأيَ في الأمر: حكم، قرّر».

ومن ثمّ كان المناسب أن تعيد اللجنةُ النظرَ في رأيها، وتنتهي بآخرة في قرارها إلى أن: الأصل الفصيح في الفعل «بتّ» أن يكون لازماً أو متعدياً بنفسه، وقول المعاصرين: «بتَّ فيه» جائزٌ على تقدير حذف المفعول، أي بتّ رأيَه فيه.

٣٤- خلت عبارة المجمع في كلامه على «بَحْت وبحتة» في قراره الخامس [م٨٨، ج١] من الدقّة والإحكام في موضعين منه: الاقتراح

(١٧) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، مكتبة المشكاة، (فرز) ٢/ ٢٩٤، و(جر) ٢/ ٧٨.

وقرار اللجنة، إذ قال: صحّة قولهم: «بحت وبحتة» صفة بمعنى صرف وخالص مما يخالطه.

والمناسب للقضية التي تناولها المجمعُ في ذلك القرار أن يقول في هذين الموضعين: جوازُ قولهم: «بحت وبحتة» في وصف المؤنّث، بمعنى صرفة وخالصة مما يخالطها؛ وكلاهما فصيح.

٣٥- افتقر كلامُ المجمع على كلمة «البداية» في قراره السابع [م٨٨، ج١] إلى استقراءٍ كافٍ وتتبّع دقيق. ولو كان له من ذلك ما ينبغي لكان فيه نصٌّ على ورود هذه الكلمة «البداية» في بعض معاجم اللغة العربيّة القديمة والحديثة، واختلافِ رأي العلماء فيها.

قال الفيّوميّ (بدأ): «البداية بالياء مكان الهمز: عاميّ، نصّ عليه ابن برّي وجماعة»(*).

وقال الزبيدي (بدأ، بدي): «وأمّا البِداية بالكسر والتحتيّة بدل الهمزة، فقال المطرّزيّ: لغةٌ عاميّة[١٨]، وعدّها ابن برّي من الأغلاط، ولكن قال ابن القطّاع: هي لغة أنصاريّة، بدأت بالشيء، وبدِيت به: قدّمته، وأنشد قول ابن رواحة[١٩]:

باسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيرَه شقِينا»

وقال البستاني في محيطه (بدأ): «البداية: الابتداء على ما في كنز اللغات، وقيل: عاميّة». على أنّ في بعض ما ورد في هذه النصوص ما يدعو إلى النظر والتوقّف. من ذلك الاختلافُ في قول ابن برّي (ت ٥٨٢هـ) في هذه الكلمة؛ إذ نُسِب إليه القولُ بأنّها عاميّة تارة، ونُسِب إليه تغليطها تارة أخرى.

(*) وهل ما قال عنه (عامي) في زمن ما هو عاميٌّ دائماً. قالوا عن الصيف (عامية) فهل هي كذلك الآن.. [المجلة]

(١٨) المطرزيّ، المغرب في ترتيب المعرب، (بدأ).

(١٩) ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته و شعره، د. وليد قصاب، ١٤٢.

والصواب في ذلك ما ورد في كلام الزبيديّ؛ لأنّ ابن برّي عدّ هذه الكلمة «البداية» فيما ذكر من (غلط الضعفاء من الفقهاء)[٢٠].

ومنه تصريح الزبيديّ بأنّ «البداية» في قول ابن القطاع (ت ٥١٥هـ) لغةٌ أنصاريّة.

ولعلّ الصواب في ذلك أن يقال: وهي لغة أنصاريّة في قياس ما حكاه ابن القطّاع من لغة الأنصار: «بدأت بالشيء، وبدِيْت به: قدّمته» - ولغة الأنصار، أو لغة أهل المدينة كما قال بعض العلماء «بدِيت» بكسر الدال، نقلها ونصّ عليها غير واحد [٢١] -؛ لأنّ ابن القطّاع لم ينصّ على أن «البداية» لغة أنصاريّة.

قال ابن القطاع: «بدأْت بالشيء وبَدِيت به: قدّمته، وهي لغة للأنصار، قال ابن رواحة:

باسم الإله وبه بدِينا»[٢٢]

وعلى ذلك جرى البعليّ (ت ٧٠٩هـ)، فقال: «فأمّا بداية بلفظ هداية، فلم أرها مصرَّحاً بها، لكن تتخرّج على لغة من قال: بدِيت الشيء، وبدِيت به بغير همز، وهي لغة الأنصار، قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه...»[٢٣].

وربّما كان هذا التخريجُ القديم أنسبَ ممّا رآه المجمع في قراراته من حمل كلمة «البداية» على المزاوجة بكلمة «النهاية»، اعتداداً بكثرة ما تلجأ

(٢٠) ص١٤. وممّن حكم على هذه الكلمة باللحن النووي رحمه الله في تحرير ألفاظ التنبيه ٥١.

(٢١) انظر: الصحاح (بدا)، ابن برّي، التنبيه والإيضاح عمّا وقع في الصحاح، ٦/ ٢٤، النووي، تهذيب الأسماء واللغات، (بدا)، البعلي، المطّلع على أبواب الفقه، ١٦، والبعلي، المطلع على ألفاظ المقنع، ٣٠.

(٢٢) ابن القطاع، الأفعال، ١/ ١٠٢.

(٢٣) البعلي، المطلع على ألفاظ المقنع، ٣٠، وانظر: الخفاجي، شفاء الغليل، ٥٣.

إليه العربية من ذلك، أو على أنّها مصدر «بـادأ = بـداء» زيـدت فيـه التـاء، أو مصدر مرّة منه «بِداءة»؛ مع قلب الهمزة ياءً فيهما.

يحملني على ذلك أنّ التوجيه المبنيَّ علـى المزاوجـة يقتضـي اقتـران «البداية» بـ«النهاية» فـي الكلـم اقترانـاً لا فكـاك منـه؛ أو أن تكـون «البدايـة» استُخدِمت أول ما استُخدمت مقترنةً بـ«النهاية». وهذا مـا يحتـاج إلـى دليـل تاريخيّ صحيح صعب المنال، إن لم يكن متعذَّراً.

وقـد يؤيّـد ذلـك أنّ هـذه الكلمـة «بدايـة» ممّـا اسـتعمل قبـل أن يكـون (البداية والنهاية) لابن كثير، فقـد اسـتُعمِلت فـي القـرن السـادس الهجـري، خلافاً لما ورد في كلام د. محمّد عبدو فلفل في مجلة المجمع [م٨٨، ج١، ١١١] من استعمال هذه الكلمة وفشوّها منذ القرن الثامن للهجرة.

على أنّ الحكم على العربيّة بكثرة اللجوء إلى المزاوجة ممّا يحتاج إلـى فحص ومراجعة ينتهيان بنا إلى الاطمئنان إلى الحكـم بتلـك الكثـرة. ولعـلّ ممّا يؤيّد ذلك قول الصغاني: «وقول العامّة: البداية موازاة للنهاية لحـنٌ، ولا يقاس على الغدايا والعشايا، فإنّها مسموعٌ بخلاف البداية»[٢٤].

زد على ذلك أنّ حمل «البدايـة» فـي التـوجيهين الآخـرين علـى الفعـل «بادأ» مصدراً زيدت التـاء فيـه «بِـداءة»، أو مصـدر مـرّة «بـداءة»، مـع قلـب الهمزة فيهما ياءً، مبنيّ على ما لـم يثبت في كلام العرب، ولم تذكره المعاجم المعتمدة، أعني الفعل «بادأ»، فهو من لغة المعاصرين[٢٥]؛ وأنّ كلمة «بدايـة»

(٢٤) الصغاني، العباب الزاخر واللباب الفاخر، ١/ ٢٤.

(٢٥) انظر : د. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١/ ١٦٧.

دالّةٌ على مطلق الابتداء دلالة المصدر، دون تقييد بعدد أو تخصيص بشيء، خلافاً لما يقتضيه بناء مصدر المرّة من تقييد الدلالة بعدد.

٣٦- لم يبلغ تناولُ المجمع في قراره التاسع [م٨٨، ج١] إذ تناولَ استعمالَ المعاصرين «ابتزَّ وابتزاز» مبلغَ الاستيعاب والإحكام. ودليل ذلك عندي أمران:

١ - نفيُ ورود الفعل «ابتزَّ» ومصدره «ابتزاز»، بمعنى أخذَ مالاً أو موافقةً من أحدهم بوساطة التخويف أو التهديد، في المعاجم القديمة والحديثة نفيَ إطلاق.

وهذا النفيُ مردودٌ بشقّيه؛ لأنّ الفعل ومصدره وردا وروداً صريحاً في (معجم اللغة العربيّة المعاصرة)، وهو من المعاجم الحديثة التي استعان بها المجمعُ في بعض قراراته، ونصَّ عليه أحياناً نصًّا[٢٦].

ووقوعُ ذلك في المعاجم القديمة ضمنيٌّ لا ينبغي أن يُنكَر؛ لأنّ بعضَ تلك المعاجم نصّ على أن البَزَّ والابتزاز بمعنى أخْذِ الشيء وانتزاعه بجفاء وقهر[٢٧]. وهذا المعنى لا يختلف عمّا نصّ عليه المجمعُ من معنى «ابتزّ» و«ابتزاز» في الاستعمال اللغويّ المعاصر إلّا في التعبير.فـ(الأخْذ) ثابتٌ لم يتغيّر، و(المال والموافقة) بعض ما يدلّ عليه لفظ (الشيء)، و(التخويف والتهديد) شيء من (القهر) أو بعض مظاهره.

ومن ثمّ لم يكن في تعبير المعاصرين بالفعل «ابتزَّ» وما يؤخذ منه، عن أخذ المال أو الموافقة بشيء من تهديد وتخويف، زيادةُ دلالة، وكان من صميم اللغة العربيّة الفصحى، أو امتداداً لتعبير القدماء، لا ينبتّ عنه ولا يخرج عنه.

٢ - الحكمُ على تعبير «ابتزّ» وتصريفاته في الاستعمال اللغويّ المعاصر

(٢٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، ١/ ٢٠٠.

(٢٧) انظر: التاج (بزز).

حيث كان بالجواز وحده، دون تمييز صوره بعضها من بعض، حكمٌ مجمَلٌ يحوجه شيء من الدقّة. ولو صدر مثلُه عن تأمّل وتحقيق لقام على تفصيل مداره على معرفة المعنى المراد، ولا سيّما ما اتّصل بحال الأخذ وهيئته، فإذا أراد المتكلّمُ أو الكاتب من قوله «ابتزَّ» أخْذَ شيء بتهديد أو تخويف، كان المناسبُ أن يوصف بأنّه صحيح فصيح؛ وإذا كان المرادُ أخذَ شيء أو استغلاله بضرب من مكر واحتيال وتزيين وترغيب وُصِفَ بأنّه محدَث جائز، فكان موصولاً بالقديم من وجه الأخذ والنزع، ومفترقاً عنه من وجه الاحتيال له بالترغيب.

٣٧- افتقرت عبارةُ المجمع في قراره الحادي عشر [م٨٨، ج١] إذ تناول كلمتي «بسَطَه ومبسوط» في الاقتراح وقرار اللجنة إلى الإحكام والاستيعاب. فنصُّ كلامه في ذينك الموضعين، وهو: «فصاحةُ قولهم: «بسَطَه» بمعنى سرَّه، و«مبسوط» بمعنى مسرور، واشتقاقاتهما»، لا يستوعبُ كلَّ ما يؤخَذ من مادّة «بسط» بمعنى السرور، ويلصق باسم المفعول «مبسوط» ما لا يُنسَب إليه من الاشتقاق منه، وصدور بعض المشتقّات عنه.

ولو قُيِّض للمجمع أن يُعيد النظرَ في نصّه ليكون أحكمَ وأوعبَ لقال: قولُهم «بسَطَه» بمعنى سرَّه، وما أُخِذ من مادّته من تصريفات ومشتقّات بمعنى السرور، من الكَلِم الصحيح الفصيح.

ومثلُ هذا الحكم يستوعب كلَّ فعل أو مصدر أو مشتقّ صدر عن مادّة «بسط» بمعنى السرور، ولا يغادر منها شيئاً؛ وينفي عن عبارته الأولى ما كان فيها من قلق مصدره كلمة «اشتقاقاتهما» التي يعود فيها ضمير المثنّى إلى الفعل «بسطه» واسم المفعول «مبسوط»، ويلصق بالمبسوط ما لا يُلصق به.

وقد كان من الحسن في رأيي أن يذكر المجمعُ في التعليل في كلامه على «بَسَط» هنا كلاماً صريحاً ذكره الزبيدي ورد فيه نصٌّ على أنّ البسط بمعنى

السرور من كلام العرب. قال: «قالَ شيخُنا: فإطلاق البَسْط بمعنى السرور من كلام العرب، وليس مجازاً ولا مولّداً خلافاً لمن زعم ذلك.. قلتُ: أمّا زعْمُهم كونه مولّداً فخطأ، كيف وقد ورد في كلامه صلّى الله عليه وسلّم، وأمّا كونه مجازاً فصحيح، صرّح به الزمخشري في أساس البلاغة»(٢٨).

٣٨- قرّر المجمعُ في قراره الثالث عشر [م٨٨، ج١] «جوازَ قولهم: «البَطّال» بمعنى (المتعطِّل عن العمل)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربيّ»؛ واستدلّ لذلك بورود هذه الكلمة «بطَّال» في (تاج العروس) بهذا المعنى.

ومثلُ هذا يقتضي أن ينصّ المجمعُ في قراره على فصاحة هذه الكلمة، وأن ينبّه على قدم استعمال هذه الكلمة. ثمّ إذا كانت هذه الكلمة واردةً في بعض المعاجم وغيرها، بالمعنى الذي يشيع في استعمال المعاصرين(٢٩)، فهل من حاجة إلى دعوة المجمع إلى إضافة هذه الكلمة في المعجم العربيّ؟!

ومن ثَمّ كان من الواجب أن يكون قرارُ المجمع: قول المعاصرين: «بطَّال» بمعنى متعطِّل عن العمل، صحيح فصيح، استعمله القدماء، ونصّت عليه بعضُ معاجم العربيّة.

ثمّ إذا كان القرارُ الذي انتهى إليه المجمعُ متعلّقاً بكلمة «البطَّال»، ولا علاقة للمتبطِّل به؛ إذ كان خلواً منه نصّاً أو إشارة، فلمَ سيقت هذه الكلمة «المتبطِّل» في كلام المجمع، وكانت بمنزلة الندّ لكلمة «البطَّال»، وهي ليست سنداً أو تُكأَة للاستدلال على إجازة كلمة «البطّال»؟!

---

(٢٨) التاج (بسط)، وانظر: أساس البلاغة (بسط).

(٢٩) انظر مثلاً: الصحاح، ومختار الصحاح، والمصباح المنير، ولسان العرب، وتاج العروس (بطل)، و أدب الكاتب، ابن قتيبة، ٣٣٩.

٣٩- بدا لي كلامُ المجمع في قراره الخامس عشر [م٨٨، ج١] الذي تناولَ فيه الكلمةَ العامّيّةَ المحدَثة «بُكْرة» بمعنى غداً، في ارتباط النتيجة بمقدّماتها، مختلفاً اختلافاً شديداً يصل إلى حدّ القطيعة.

فقد كان أن اقترح المجمعُ جوازَ قول الناس في استعمالهم اليوميّ: «بُكْرة» بمعنى غداً، و«بعد بُكْرة» بمعنى بعد غدٍ، وإن كان الأَولى أن يقال: غداً، وبعد غدٍ. ثمّ علّل ذلك بما اشتمل على إشارات ترشّح ذلك على الظاهر وتزكّيه، إذ ساق بعض ما كان في (اللسان) و(التاج) متعلّقاً بالبُكرة، ومنه قولُ الأزهري الذي كان «في التهذيب: البُكْرة من الغد»؛ وساق من (المعجم الوسيط) قوله: «البُكرة: أوّل النهار إلى طلوع الشمس، والعامّةُ يسمُّون الغدَ بُكرةً وباكراً».

ثمّ علّقَ على ذلك بقوله: «وواضحٌ من هذا أن (بُكْرة) بمعنى غداً عاميّة محدثة. ولكنّ عبارة تهذيب اللغة: «البُكرة من الغد» قد توحي بأنّ دلالةَ الكلمة على الغد قد يكون له أصل كصلة الغداة بالغد»، وصرّح ثمّة بما كان في دلالة الكلمة المحدثة من تطوّر.

وكلُّ ذلك يزكّي الحكمَ بجواز هذا الاستعمال، دون أن تعترضه إشارةُ منعٍ أو قرينةُ إنكار. حتى إذا انتهى القارئ إلى القرار فاجأته اللجنةُ بعدم جواز ذلك.

هكذا أجرى المجمعُ كلامَه في هذا القرار، فكان ارتباط نتيجته بمقدّماتها دليلاً على بنية منطقيّة ومنهجيّة مضطربة(*) تمكّن بها الاختلاف.

ولو أُذِن للقارئ أن يبني على تعليل المجمع بما فيه من بيّنات وقرائن النتيجةَ المناسبةَ، لقال بلا تردّد: قولُ المحدثين في عامّيّتهم: «بُكْرة» بمعنى

(*) ليس كذلك فالاقتراح هو لمعدِّ المذكرة، أما القرار فهو للجنة ثم للمجلس فلا اضطراب في المنهج. [المجلة]

غداً، جائزٌ، والأولى استعمال «غداً». ولو كان له أن يَزيد في التعليل لقال: إطلاقُ «بُكْرة» على الغد بتمامه، وخروجُ اللفظ «بُكْرة» من معنى الجزء، وهو غدوة اليوم التالي، فيه ضربٌ من الاتّساع الذي تغذيه أصولُ العربيّة، ومنها المجازُ المرسل.

على أنّ عبارة (التهذيب) كما وردت في (اللسان)، ونقلها منه (التاج) «البُكرةُ من الغد»، وهي الدليل المركزي الذي يعتمد عليه القول بالجواز، لا تسلم من الطعن؛ لاحتمال أن تكون كلمة (الغد) فيها محرّفةً من (الغداة)، بدليل أن الثابت في مطبوعة (التهذيب): «البُكْرَة من الغداة» بتمام (الغداة). وعلى ذلك جرى صاحب (المصباح).

فإذا صحّ ذلك سقط الاستدلال بها، وتلاشى دليل القول بجواز هذه الكلمة العامّيّة المحدثة «بُكْرة» بمعنى غداً.

هذا بعض ما قادني إليه النظرُ في تلك القرارات الصادرة عن المجمع، التي بدا لي فيها بين حين وآخر شيءٌ من جرأة، وأشياءُ من التقليد والمعاد المكرور. وهذه النظرات التي عُنيت أكثرَ ما عُنيت بالجزئيّات والتفاصيل تدلّ على ما وراءها من نتائج كليّة، وخلاصات عامّة، من أظهرها افتقارُ بعض تلك القرارات إلى الاستيعاب والإحكام في التناول والاستدلال والصياغة افتقاراً كلّيّاً أو جزئيّاً. على أنّي لست هنا في مقام التصريح بما وراء هذه النظرات في كلّ موضع موضع، وقد امتدّ بي الكلامُ وطال طولاً، فليكن لتلك النظرات أو لبعضها أن تدلّ على ما كان فيها من ذلك إشارة أو تلميحاً. والحمد لله أوّلاً وآخراً. ١

* * *

المصادر والمراجع

- أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي، تح: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر - بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢.
- أدب الكاتب، ابن قتيبة، تح: محمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٩.
- ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تح: د. رجب عثمان محمد، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١٩٩٨،١.
- أساس البلاغة، الزمخشري، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨.
- إصلاح المنطق، ابن السكيت، تح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف.
- الأفعال، ابن القطاع، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣.
- الألفاظ والأساليب، إعداد وتعليق: مسعود عبد السلام حجازي، مجمع اللغة العربية- القاهرة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠.
- الإيضاح شرح المفصل، ابن الحاجب، تح: د. إبراهيم عبد الله، دار سعد الدين - دمشق، ط ١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥.
- تاج العروس، الزبيدي، تح: مجموعة من المحققين، الكويت، ط١، ١٩٦٥ - ٢٠٠١. وط المطبعة الخيرية - مصر، ط١، ١٣٠٦هـ.
- تحرير ألفاظ التنبيه، النووي، تح: عبد الغني الدقر، دار القلم - دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ.

- تكملة المعاجم العربيّة، دوزي، ترجمه: د. محمد سليم النعيمي، وجمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، ط ١، ١٩٧٨ - ٢٠٠٠.
- التكملة والذيل والصلة، الصغاني، ج ١، تح: عبد العليم الطحاوي، وج ٢، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتب - القاهرة، ١٩٧١.
- التنبيه والإيضاح عمّا وقع في الصحاح، ابن برّي، ج٦، تح: عبد الوهاب عوض الله، مجمع اللغة العربيّة في القاهرة، ط ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠.
- تهذيب الأسماء واللغات، النووي، دار الكتب العلمية، مصورة المطبعة المنيرية.
- تهذيب اللغة، الأزهري، ج ٧، تح: د. عبد السلام سرحان، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- جيش التوشيح، لسان الدين ابن الخطيب، تح: هلال ناجي ومحمد ماصور، مطبعة المنار - تونس.
- الحسن والإحسان في ما خلا منه اللسان، جمعه عبد الله البارودي، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض.
- ديوان الإمام علي، جمعه وضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، د. وليد قصاب، دار العلوم، ط ١، ١٤٠١هـ-١٩٨٢.
- ديوان علي بن الجهم، تح: خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، اعتنى به د. فائز محمد، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٦.

- ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري، جمعه وحقّقه د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢.
- الشافية في علم الصرف، ابن الحاجب، دراسة وتحقيق د. حسن العثمان، المكتبة المكّيّة، مكة المكرّمة، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥.
- شرح الشافية، رضي الدين الأستراباذي، تح: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد؛ بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٧٥.
- شرح الشافية، ركن الدين الأستراباذي، دراسة وتحقيق، عبد الناصر عسّاف، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربيّة وآدابها، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢.
- شرح المفصل، ابن يعيش، القاهرة، مكتبة المتنبي.
- شفاء الغليل، الخفاجي، المطبعة الوهبيّة، ١٢٨٢هـ.
- صبح الأعشى، القلقشندي، دار الكتب المصرية.
- الصحاح، الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط ٤، ١٩٩٠.
- العباب الزاخر واللباب الفاخر، الصغاني، تح: د. فير محمد حسن، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ط ١، ١٣٩٨هـ-١٩٨٧.
- العربيّة الفصحى المعاصرة وأصولها التراثيّة، د. عباس السوسوة، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٢.
- غلط الضعفاء من الفقهاء، ابن برّي، تح: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة – القاهرة.

- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تح: مكتب التحقيق في مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥.
- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتب.
- كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠.
- لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف - القاهرة. وط بولاق، ١٣٠٠هـ.
- اللغة العربية ثوابت ومتغيّرات، د. محمد عبدو فلفل، دار الينابيع - دمشق، ط١، ٢٠٠٢.
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تح: د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠.
- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، نسخ وترتيب وتنسيق مكتبة مشكاة الإسلامية.
- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٧.
- مختار الصحاح، الرازي، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٦.
- المصباح المنير، الفيوميّ، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٧.
- المطّلع على أبواب الفقه، البعلي، تح: محمد بشير الإدلبي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١.
- المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي، حققه وعلّق عليه: محمود الأرناؤوط، وياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي جدّة، ط ١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣.
- معاني القرآن للفراء، ج ٢، تح: محمد علي النجار، الدار المصريّة للتأليف والترجمة.

- معجم اللغة العربيّة المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب - القاهرة، ط ١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤.
- المغرب في ترتيب المعرب، المطرّزي، تح: محمود فاخوري، عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد - حلب، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩.
- المفتاح في الصرف، عبد القاهر الجرجاني، تح: د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧.
- يتيمة الدهر، الثعالبي، شرح وتحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣.

* * *

ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر
في كتاب سيبويه(**)
تأليف الدكتور محمود فجّال(***)

أ. د. عبد الإله نبهان(*)

عنوان هذا الكتاب وثيق الدلالة على موضوعه ومباحثه، وخصوصاً

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(**) نُشر الكتاب في الرياض عام / ١٤٣٠هـ/ في / ٥٢٩/ صفحة، ولم تُذكر جهة النشر.

(***) الدكتور محمود بن يوسف فجّال، وُلد في حلب سنة / ١٩٣٩/ ، ونال درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر بالقاهرة سنة / ١٣٩٨هـ/ ، وعمل بالتعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية، وتوفي بالرياض سنة / ٢٠١٥/ ، وله عدد من الآثار:

- الحديث النبوي في النحو العربي، نادي أبها الأدبي، مط. العبيكان، الرياض / ١٤٠٧هـ/ .
- السير الحثيث إلى الاستشهاد بالحديث النبوي، نادي أبها الأدبي، مط. العبيكان، الرياض / ١٤٠٧هـ/ .
- الإصباح في شرح الاقتراح، دار القلم، بيروت / ١٤٠٩هـ/ .
- الاقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي (تحقيق)، مط. الثغر، خميس مشيط / ١٤٠٩هـ/ .
- تخريج أحاديث الرضي في شرح الكافية للبغدادي (تحقيق)، النادي الأدبي، الدمام / ١٤١٦هـ/ .
- فيض الانشراح في روض طيّ الاقتراح لابن الطيب الفاسي (تحقيق)، دار البحوث، دبي / ١٤٢١هـ/ .

وكان الدكتور المرحوم محمود فجّال قد نال درجة الدكتوراه بتحقيقه كتاب (الكافي في شرح الهادي للزنجاني / ت٦٥٥هـ/) في جامعة الأزهر بالقاهرة / ١٣٩٨هـ/ .

لدى دارسي النحو وأصوله، وإذا ما نظرت إلى آثار المؤلِّف في الحاشية فإنك ترى أن ثلاثة كتب منها تنحو إلى الكلام على الحديث النبوي في النحو العربي، وذلك منذ عام / ١٤٠٧هـ/ ، فلا عجب أن توّج المرحوم الدكتور فجال نتاجه العلمي ببحث جعل عنوانه: (ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر في كتاب سيبويه)، وذلك في (٥٢٩) صفحة.

وقضية الاستشهاد بالحديث والأثر في النحو العربي، قضيةٌ كثر فيها القول والبحث لدى المتأخرين من النحاة، ثم أتى الباحثون المعاصرون فخاضوا فيها، وألَّفوا الكتب، وكتبوا البحوث، وفيها من التكرار ما فيها، ومن انعدام الثمرة ما فيها، فهذا يؤيد، وهذا يعارض، وذلك يتوسط، وذاك يضع شروطاً، وآخر يرى أن سيبويه لم يحتج بالحديث، وآخر يرى أنه ذكر عدة أحاديث، ثم جاء فلان فقال كذا، وفلان قال كذا... وهكذا.

وفي عام / ١٩٧٠/ صنع أستاذنا العلامة المرحوم أحمد راتب النفاخ / ت١٩٩٢/ (فهرس شواهد سيبويه: شواهد القرآن، شواهد الحديث، شواهد الشعر)، وفي هذا العنوان نجد إشارة واضحة إلى وجود شواهد حديثية في كتاب سيبويه، فإذا ما رجعنا إليها وجدنا الأستاذ يقدّم لنا خمسة أحاديث مخرّجةً أحسن تخريج، ثم أعطاني بعد ذلك أربعة أحاديث أضفتها إلى ما في الفهرس فبلغت آنذاك تسعة أحاديث، والحديث لا يعني هنا حديثاً تامًّا، إنه غالباً جملة من حديث أو كلمة أو كلمتان:

- كقوله ﷺ: «فبها ونعمت».
- أو كقوله ﷺ: «إنّ الله ينهاكم عن قيل وقال».

ولم يكن سيبويه ينصّ على أن هذا الكلام من الحديث أو من الأثر، وإنما كان يرد عنده على أنه من قول العرب؛ لذلك كان اكتشاف كونه حديثاً

يعتمد على معرفة حافظٍ للحديث مزاولٍ قراءتَه ومراجعةَ كتبه؛ ليكتشف أن هذه العبارة أو الكلمة من الحديث.

هذا، وكانت الدكتورة خديجة الحديثي قد استعرضت في كتابها (موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف)[١] الأحاديث التي احتج بها النحاة بعد سيبويه، وهذا لا يدخل في نطاق تعريفنا بكتاب الدكتور فجال.

واضح من عنوان الكتاب أن المؤلِّف قد استقرّ رأيه على أنّ سيبويه ممّن ارتكز النحو عنده على الاستشهاد بالحديث والأثر، وفي سبيل ذلك ألّف كتاباً كبيراً مقدّماً فيه الدليل والبرهان على ما ذهب إليه في العنوان.

جعل المؤلِّف كتابه قسمين، وجاء القسم الأول في ثلاثة أبواب، وكل باب مقسّم إلى فصول، وبعض الفصول مقسّم إلى مطالب، أما القسم الثاني فقد خُصص لذكر الأساليب والألفاظ الموافقة للحديث والأثر مما ورد لدى سيبويه، وقدّم لكتابه بمقدمة لخص فيها ما اجتمع في الكتاب، وعدّد أقسامه وأبوابه وفصوله ومطالبه، وقال في المقدمة: «والحق أقول: إن الاستشهاد بالحديث الشريف في النحو واللغة واردٌ كثيراً، والذي قال بعدم صحة الاستشهاد منكِرٌ لما هو واقع، وكان عليه أن يقول إن النحاة لم يكثروا من الاستشهاد بالحديث كما أكثروا من الاستشهاد بالقرآن والشعر، وكان عليهم ألا يأتوا بالأمثلة المصنوعة من زيد وعمروٍ وهند، فيأتوا بما يشبه الأضاحيك ويتركوا الحديث الشريف»[٢]، ثم قال: «قرأت في الكتاب لـ(سيبويه) فلم أجد رفضه للاستشهاد بالحديث والأثر، لا تصريحاً ولا تلويحاً، بل قد وضعت يديّ على أساليبَ وألفاظٍ موافقةٍ للحديث والأثر، سواء أقصد أنها حديث أو

(١) منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية / ١٩٨١/ .

(٢) ارتكاز الفكر النحوي ٦.

أثر أم لم يقصد، وُجد فيها الشاهد أم لم يوجد، ولم يشرْ إلى أيٍّ منها أنه حديث أو أثر وإنما احتجّ بها ومثّل كما يحتجّ بأي كلام عربي منثور»[٣].

الفصل الأول من الباب الأول وفيه عشرة مطالب: وفيه تحدَّث الدكتور فجّال بالتفصيل عن سيبويه: حياته ونشأته، واسمه ومعناه، وسبب توجُّهه إلى علم العربية، وذكر شيوخه وتلاميذه ومكانة كتابه، والمناظرة بينه وبين الكسائي[٤] / ت١٨٩هـ/ ، ثم ناقش هذه الأخبار إلى أن وصل إلى وفاته عام / ١٨٠هـ/ ، ثم حلل شخصيته بين النشأة والخاتمة.

وفي الفصل الثاني تحدَّث المؤلِّف عن منهج سيبويه، وقسمه إلى خمسة مطالب، وفيها ذكر أن سيبويه لم ينسب الأبيات الشعرية إلى قائليها، وأن ذلك كان من عمل أبي عمر الجرْمي[٥] / ت٢٢٥هـ/ ومَنْ أتى بعده، ثم تحدَّث عن أسلوب سيبويه وطريقته في إيراد الحديث والأثر في كتابه، وعلل سبب إحجام سيبويه عن نسبة الحديث والأثر، ونصّ أخيراً على دقة سيبويه في كل ما ذكره.

وسم المؤلِّف الباب الثاني بعنوان (الحديث والأثر)، وفيه كلام عن الاحتجاج بالحديث والأثر على إثبات القواعد النحوية، ثم تحدَّث في فصل خاص عن موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث، وبيّن أن النحاة السابقين لم يرفضوا الاحتجاج بالحديث والأثر، ثم بحث في الأسباب التي دعت ابن الضائع الأندلسي[٦] / ت٦٨٠هـ/ وأبا حيان الأندلسي[٧] / ت٧٤٥هـ/ إلى القول بعدم احتجاج النحاة بالحديث، ثم خصص فصلاً بيّن فيه دقة العلماء في

(٣) الموضع السابق ٧.
(٤) الكسائي: علي بن حمزة.
(٥) الجرْمي: صالح بن إسحاق.
(٦) ابن الضائع: علي بن محمد.
(٧) أبو حيان النحوي الأندلسي: محمد بن يوسف.

رواية الحديث، فتحدَّث عن عناية علماء العربية برواية الحديث، وبيّن أنّ سيبويه كان أوّل المحتجين بالحديث والأثر وإن لم يصرح بذلك، وذكر بعد ذلك شروط الاحتجاج بالحديث والأثر في النحو العربي.

أما الباب الثالث فاشتمل على مباحث تحت عنوان: (الحديث الشريف والشعر)، قارن فيه بين ما قيل في الحديث بخصوص الاحتجاج وما قيل في الشعر، وبيّن الفروق بين الروايتين رواية الحديث ورواية الشعر، وذكر مآخذ النقّاد على الشعر الجاهلي والمآخذ النحوية على بعض الأبيات، وذكر مخالفة سيبويه لروايات الدواوين، ثم ذكر مزايا الحديث الشريف أسلوباً ومضموناً.

أما القسم الثاني – وهو القسم الأكبر من الكتاب ـ فقد خصص لسرد الأساليب والألفاظ الموافقة للحديث والأثر في كتاب سيبويه، قال المؤلِّف: «قمت باستقراء الألفاظ في (الكتاب)، فوجدت مجموعة كبيرة موافقة لكلام النبي ﷺ ولكلام الصحابة ﷺ مما له أصل في كتب السنة، فذكرت أولاً لفظ الشاهد وثانياً نص (الكتاب) والتعليق عليه، وثالثاً تخريج الشاهد، ورابعاً من استشهد به من النحاة»[٨].

هذه هي الخطّة التي اتّبعها المرحوم فجّال في استخراج الألفاظ والأساليب الموافقة للحديث من كتاب سيبويه، ولمَّا كان شغوفاً في الأصل بمطالعة كتب السنن فإنه تمكَّن من استخراج سبع وثلاثين ومئة عبارة، أورد ما قاله سيبويه لدن كل منها، ثم خرّجها من كتب السنن وذكر الرواية فيها إن كان لها رواية أخرى، ثم ذكر مَنْ احتجّ بها من النحاة، وسنذكر مثالاً واحداً تامًّا مما أتى به.

الشاهد الثاني والخمسون: (مشْبِخة).

قال سيبويه: «باب ما يكون من الأسماء صفة منفرداً، وليس بفاعل ولا

(٨) ارتكاز الفكر النحوي ١٠.

صفةٍ تُشبَّه بالفاعل كـ (الحسن) وأشباهه، وذلك قولك: (مررتُ بحيّةٍ ذراعٌ طولُها)، و(مررتُ بثوب سبعٌ طوله)، و(مررتُ برجلٍ مئةٌ إبلُه)، فهذه تكون صفاتٍ كما كانت (خيرٌ منك) صفةً يدلّك على ذلك قول العرب: (أخذ بنو فلانٍ من بني فلانٍ إبلاً مئةً)، فجعلوا (مئةً) وصْفاً... واعلم أن العرب يقولون: (قومٌ معلوجاءُ)، و(قومٌ مَشْيخةٌ)، و(قوم مشيوخاء)، يجعلونه صفة بمنزلة: (شيوخ)، و(علوج)»[٩].

تخريج (مشيخة):

أخرج البخاري في (صحيحه) في كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون / ٥٧٢٩/ ، عن عبد الله بن عباس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرْغ لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجتَ لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقيةُ الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدِمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصارَ. فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعُ لي من كان ههنا من **مشْيخة** قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف عليه منهم رجلان. فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمَهم على هذا الوباء، فنادى عمرُ في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظهرٍ فأصْبِحُوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو

(٩) ارتكاز الفكر النحوي ٢٩٦ عن كتاب سيبويه ٢: ٢٨، ٣٥.

كان لك إبلٌ هبطت وادياً لهُ عدْوتان إحداهما خصبة والأخرى جَدْبة، أليس إنْ رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله؟ وإن رعيتَ الجدْبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إنّ عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. قال: فحمِد الله عمرُ ثم انصرف»(١٠).

ومسلم في (صحيحه) في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها / ٥٧٨٤/ / ٢٢١٩/ .

وممن استشهد به:

ابن جني في: الخصائص ٣: ٦٧، ٣١١، وسر صناعة الإعراب ٢: ٥٦٨.

ما تقدم كان نموذجاً من أصل (١٣٧) جاءت في نحوٍ من (٣٢٠) صفحة مستوفاة التخريج والإحالات مع الضبط التام.

والحق يقال: إن المرحوم الدكتور محمود فجّال قد بذل جهداً رائعاً تجاوز فيه كلَّ مَنْ سبقه في استخراج الحديث والأثر من كتاب سيبويه، كما بذل جهداً كبيراً في تخريج تلك الأحاديث والآثار ـ ومنها لا يعدو كلمة أو كلمتين ـ من الكتب الكبيرة الضخمة، ووضع بذلك حدّاً للجدل في مسألة الاحتجاج بالحديث، وأتى بالدليل الناصع والبرهان الساطع على أن سيبويه قد احتجّ حقيقةً بالحديث والأثر، فجزاه الله كلّ خيرٍ جرّاء ما بذله في بحثه من جهد في البحث والتنقيب والترتيب والتهذيب.

* * *

(١٠) ارتكاز الفكر النحوي ٢٩٦، ٢٩٧.

المقالاتُ والآراء

حذْف ياء المتكلم
وثلاث ياءاتٍ أُخر

د. مكي الحسني(*)

أولًا: من المعلوم أنه يجوز حذف المفعول به أحيانًا، لِغرضٍ لفظي أو معنوي، بشرط ألّا يَخْتلَّ المعنى أو يَفسد بحذفه.

- **فمن اللفظي**: المحافظة على وزن الشعر، كقول أحمد شوقي:

ما في الحياة لأنْ تُعا تِبَ أو تُحاسِبَ مُتَّسَعْ

أي تعاتبَ المخطئَ أو تحاسبَه.

ومنه: المحافظة على تناسب الفواصل (أي نهايات الجمل المتصلة اتصالًا معنويًّا) كقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

لم يقُل (قَلاكَ، أي كرِهَكَ) ليكون مناسبًا في وزنه للفعل سجا.

- **ومن المعنوي**: عدم تَعلُّق الغرض به، كقول البخيل لمن يعيبه بالبُخل: طالما أنفقتُ، وساعدتُ، وعاونتُ... أي طالما أنفقتُ **المالَ**، وساعدتُ **فلانًا**، وعاونتُ **فلانًا**...

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

لأن الغرض المهم من الجملة ليس فلانًا وفلانًا من الأشخاص المعيَّنة؛ إنما الغرض هو: البذل والإعطاء لهذا أو لذاك بغير تعيين.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ [الليل: ٥]. أي أعطى المالَ واتقى اللهَ...

- وقد ورد حذف المفعول به بصيغة ضميرٍ متصلٍ هو ياء المتكلم في التنزيل العزيز، الذي نزل بلغة العرب، المألوفة لديهم والمفهومة. فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال: ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

وقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

النون المكسورة في أكرمنِ وأهانِن وغيرهما من الأفعال هي نون الوقاية، وهي مكسورة أبدًا.

والياء المحذوفة في محل نصب مفعول به.

ثانيًا: حذف ياء المتكلم (المضاف إليه)

أ- إذا كانت الإضافة معنوية (محضة)، كأنْ يكون المضاف اسمًا جامدًا مثلًا، جاز حذف ياء المتكلم مع بقاء الكسرة قبلها، بشرط ألّا يحدث بسبب الحذف لبْسٌ أو فسادٌ للمعنى.

فإذا قال أحدهم: وقفْتُ نفسي على خدمة وطني، جاز له أن يقول أيضًا: وقفتُ نفسِ على خدمة وطنِ.

ونجد هذا الحذف في التنزيل العزيز؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

أيْ: وعيدي، ولولا أن ياء المتكلم محذوفة لوجب نصب كلمة (وعيد) كما يقتضي سياقُ الآية. وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقال: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١].

الأصل: **يا ربِّي**. ومن المعلوم جواز حذف أدوات النداء جميعًا. وحُذفتِ الياء مع بقاء الكسرة قبلها دليلًا عليها.

وقال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

ب-) أما إذا كانت الإضافة لفظية (غير محضة) كأنْ يكون المضاف اسمًا مشتقًّا فلا يجوز حذف الياء، نحو، أهدى إليَّ **مَحبوبي** كتابًا نفيسًا كان دائمًا **مطلوبي**.

ثالثًا- حذف ياء الاسم المنقوص (جوازًا)

من المعلوم أن الاسم المنقوص هو اسم آخره ياء مكسورٌ ما قبلها، نحو، القاضي، المحامي، الجاني... وتُحذف ياؤه **وجوبًا** في حالتين:

- **الأولى**: أن يكون مفردًا مجرّدًا من (أل) والإضافة، فتُحذف ياؤه ويُنوَّن بالكسر في حالتي **رفعه وجَرِّه فقط**، نحو: حكَمَ قاضٍ على جانٍ.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

أما في **حالة النصب** فإن ياءه تثبُت، فنقول مثلًا: رأيت قاضيًا ومحاميًا. ولكنْ إذا حُلِّي بـ (أل) ثَبَتَتِ الياء في حالتي الرفع والجر، فضلًا على النصب، نحو جاء القاضيْ، مررتُ بالقاضي، رأيتُ القاضيَ.

- **الثانية:** أن يُجمع جمع مذكر سالمًا، نحو: شكا المحامون الجانِيْن إلى القاضِيْن. ولكن **يجوز حذف يائه ولو كان مُحَلًّى بـ (أل)** على طريقة بعض قبائل العرب في حالتي الرفع والجر، وبِلُغَتِهم نزل القرآن.

قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] أي قطعوا الصخر بوادي القرى.

وقال: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[الحج: ٢٥]. البادي: الطارئ.

وقال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]. المتعالي على خَلْقِه.

وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾[الكهف: ١٧].

وقال: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١].

رابعًا- حذف ياء الفعل الناقص اليائيّ جوازًا

من المعلوم أن الفعل الناقص هو المنتهي بألِفٍ أو واوٍ أو ياء، أي آخره حرف عِلّة، نحو:

سَعى يَسعى- غزا يغزو- مشى يمشي

والمضارع المعتل الآخر بالياء يُجزم بحذفها **وجوبًا. ومن الجائز حذفها لغير جازم**، قصدًا للتخفيف، أو مراعاةِ الفواصل، تَبَعًا لبعض القبائل العربية. وجاء القرآن الكريم **بإثبات الياء وحذفها في المضارع المرفوع**.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[يوسف: ٦٥] بإثبات الياء؛ أي أيَّ شيء نطلب من إكرامٍ أعظم من هذا؟

وقال: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾[الكهف: ٦٤] بحذف الياء. وقُرئت هذه الآية بإثبات الياء: ذلك ما كنا نبغي.

وقال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[الفجر: ١-٤] بحذف الياء. أي: **يَسْري** (الليلُ) مُقبلًا ومُدبرًا.

* * *

عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد اللّه بن طاهر حين ولاه المأمون الرقة ومضر

أ.د. عيسى علي العاكوب(*)

- في سِياق الموضوع:

عرَفتِ الثّقافةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ جِنساً أدبيًّا ذا أهمّيّة خاصّة في موضوعه وتأثيره وصلته بالحياة العامّة والخاصّة، وذلكم هو «أدَبُ سياسةِ الـمُلوك» أو «الآدابُ السُّلْطانيّة» أو «نصيحةُ الـمُلوك». والظّاهرُ أنّ تاريخَ هذه الثّقافة وَرِثَ مصنّفاتٍ وآثاراً ممّا يتّصلُ بهذا الجِنْس مِن ميراثِ الأمم السّابقة التي كان لها أن تَدخُلَ في دين الله أفواجاً وأفراداً في العهود الأولى، كما هي الحالُ في كتابِ «عَهْد أرْدَشير» الفارسيِّ السّاسانيّ للمُلوكِ الآتينَ مِن بعْدِه، الذي حقّقَه الأستاذُ الدّكتور إحسان عبّاس، رحِمَه اللهُ، وأحاط إخراجَه باهتمامٍ جيّد جعَلَ إطارَهُ ومادّتَه في مُتناوَل الدّارسينَ، وأصدرَتْه دارُ صادر في بيروت سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٧م. وقد أنزلتِ الثّقافةُ العربيّةُ الإسلاميّة هذا الجَنسَ الأدبيَّ مُنزَلاً عَلِيًّا، إذ نراهُ يَبرزُ في صُورةِ تيّارٍ واضحِ المعالِمِ في نَهْرِ هذه الثّقافة. وقد استَعْلَنَ هذا التّيارُ في طائفةٍ مِن المصنَّفاتِ المتخصِّصةِ بموضوعه، وفي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

مقبوساتٍ مِن أصولٍ سابقةٍ للإسلام تَلْحظُها أبصارُ الدّارسينَ في كثيرٍ مِن مصادر التّراثِ الأدبيّ، التي تنتمي إلى صِنفِ الاختيارات.

ومِن الآثار التي تجتليها البصائرُ في جُمْلةِ المؤلَّفات العربيّة في «أدَب سياسةِ المُلوك» ذلك الكتابُ أو العَهْدُ الذي كتبَهُ طاهِرُ بنُ الحُسَين (ت ٢٠٧هـ) لابنِه عبدِ الله بنِ طاهر (ت ٢٣٠هـ) حينَ ولّاهُ الخليفةُ العبّاسيّ المأمونُ (١٧٠ – ٢١٨هـ) الرَّقّةَ وديارَ مُضَر، قاصِداً أن يضعَ بينَ يدَي ابنِه دُستوراً مُختصَراً في أصولِ الحُكْم وإدارةِ شؤون العبادِ والبلاد. وكُنّا قد نَشَرْنا في عددٍ سابقٍ[1] مِن أعدادِ مجلّةِ مَجْمعِنا الكريم هذه بحثاً مستفيضاً عنوانُه: «القرآنُ الكريمُ وأدَبُ السّياسةِ الملوكيّة العربيُّ – قراءةٌ في عَهْدِ طاهرِ بن الحُسَيْن لابنِه عبدِ الله بنِ طاهر»، تناوَلْنا فيه موضوعَ العهودِ والوصايا ونصائحِ الملوك في الأدَب العربيّ القديم، وعَرّفْنا ثَمّةَ بطاهرِ بنِ الحُسَيْن، وبابنِه عبدِ الله، وبهذا العهد الذي كتبَه طاهِرٌ لابنِه عبدِ الله. ولأنّ الأمرَ كذلك، رأينا أن نكتفيَ هنا بأن نُقدِّمَ للقارئ الكريم قراءةً اجتهَدْنا في أن تأتي صَحيحةً، ضابِطةً، مُطابقةً قدرَ المُستطاعِ لأَصْلِ العهد كما كتبَه مؤلّفُه، وذلك اعتماداً على روايتَي الكتابِ أو العهد اللّتَيْنِ وقعْنا عليهما في تاريخِ الطّبريّ (جـ ٦/ ٢١١ نَشْرة دار القلم في بيروت) ومقدِّمةِ ابنِ خَلْدون (جـ ٢/ ٧٢٤، نَشْرة علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ٢٠٠٤م).

وابتغاءَ مزيدِ اطّلاعٍ على كتابةِ العَهْد ومُناسَبة ذلك، وتعرُّفِ كاتبِه ومَن كُتِبَ له وأسْرتهما ونشأةِ كلٍّ منهما وكِفاياته، في مقدور القارئ الكريم العودةُ إلى بحثنا الذي أشَرْنا إليه تَوًّا. فسيجدُ ثَمّةَ كلَّ ما يُساعدُه على الإحاطة بالسّياقِ التاريخيّ والسّياسيّ والفكريّ لهذا الكتاب أو العهد، الذي

(١) مجلّة مجمع اللّغة العربيّة في دمشق، مج٨٩/ ج١.

يقرِّظُه ابنُ خَلْدون على هذا النّحو: «ومِن أحسَنِ ما كُتبَ في ذلك [السّياسة الملوكيّة] وأُودِعَ، كتابُ طاهرِ بنِ الحُسَيْن لابنِه عبدِ الله بن طاهر لَمّا ولّاهُ المأمونُ الرّقّةَ.. فكتبَ إليه أبوه طاهرٌ كتابَه المشهورَ الذي عَهِدَ إليه فيه ووصّاهُ بجميع ما يحتاجُ إليه في دولتِه وسُلْطانِه مِن الآدابِ الدّينيّة والخُلُقيّة والسّياسةِ الشّرْعيّة والمُلوكيّة، وحَثَّه على مكارمِ الأخلاق ومَحاسِنِ الشِّيَم، بما لا يستغني عنه مَلِكٌ ولا سُوقةٌ» (مقدّمة ابن خَلْدون جـ ٢/ ٧٢٥). هذا العهدُ الذي يبدو أنّ المأمونَ طاب به نَفْساً، فأمر أن يُكتبَ به إلى عُمّاله في أصقاع الدّولة المختلفة؛ ليكونَ مِنهاجَ عمَل، ودُستورَ إدارةٍ، وضابطَ سُلوك. وفي هذا يقولُ ابن خَلْدون: «وحَدّثَ الأخباريّونَ أنَّ هذا الكتابَ لَمّا ظهرَ وشاعَ أمرُهُ أُعجِبَ به النّاسُ، واتّصَلَ بالمأمون، فلَمّا قُرئ عليه قال: ما أبقى أبو الطّيّب، يعني طاهراً، شيئاً مِن أمورِ الدّنيا والدّين، والتّدبيرِ والرّأي والسّياسة، وصَلاحِ المُلْكِ والرّعيّة، وحِفْظِ السُّلْطانِ وطاعةِ الخُلَفاءِ وتقويم الخِلافة، إلّا وقد أحكمَهُ وأوصى به. ثمّ أمرَ المأمونُ فكُتِبَ به إلى جميع العُمّالِ في النّواحي؛ لِيقتدوا به ويعمَلُوا بما فيه. **هذا أحسَنُ ما وقفْتُ عليه في هذه السّياسة**. واللهُ أعْلَمُ» (المقدّمة ٢/ ٧٣٥).

- مَتْنُ العَهْد:

بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم. أمّا بَعْدُ فعَلَيْكَ بِتَقْوى اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وخَشيتِهِ، ومُراقَبتِه عَزَّ وجَلَّ، ومُزايَلَةِ سَخَطِه، وحِفْظِ رَعِيّتكَ. والزَمْ ما ألبسَكَ اللهُ مِن العافيةِ بالذِّكْرِ لِمَعادِكَ وما أنتَ صائرٌ إليه، وموقوفٌ علَيه، ومسؤولٌ عنه، والعَمَلِ في ذلك كُلِّه بما يَعْصِمُكَ مِن الله عَزَّ وجَلَّ ويُنجيكَ يومَ القيامةِ مِن عَذابِه وأَليمِ عِقابِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه قد أحسَنَ إلَيكَ، وأوجبَ عليكَ الرأفةَ بِمَنِ استَرْعاكَ أمْرَهُمْ مِن عبادِه، وألزَمَكَ العَدْلَ فيهم، والقيامَ

بِحَقِّهِ وحُدودِه عليهم، والذّبَّ عَنْهم، والدّفْعَ عن حَريمِهم وبيْضَتِهِم، والحَقْنَ لِدِمائهم، والأَمْنَ لِسَبيلِهم، وإدخالَ الرّاحَةِ علَيهم في مَعايِشِهم، ومُؤاخِذُكَ بِما فرَضَ عليكَ مِن ذلك، ومُوقِفُكَ علَيه، وسائلُكَ عنه، ومُثيبُكَ علَيه بِما قدّمْتَ وأخّرْتَ. ففَرِّغْ لِذلكَ فِكْرَكَ وعَقْلَكَ وبَصَرَكَ ورُؤيتَكَ، ولا يُذْهِلْكَ عنه ذاهِلٌ، ولا يشغَلْكَ عنْهُ شاغلٌ؛ فإنّهُ رأسُ أمْرِكَ، ومِلاكُ شأنِكَ، وأوّلُ ما يُوفِّقُكَ اللهُ به لِرُشْدِكَ.

– وليكُنْ أوّلُ ما تُلْزِمُ به نفسَكَ وتَنْسُبُ إليه فِعْلَكَ المُواظَبةَ على ما افترضَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ علَيكَ مِن الصَّلَواتِ الخَمْسِ، والجماعةِ علَيها بالنّاس قِبَلَكَ، في مَواقيتها، على سُنَنِها مِن إسباغِ الوَضُوءِ لها، وافتتاحِ ذِكْرِ الله عَزَّ وجَلَّ فيها، ورَتِّلْ في قراءتِكَ، وتمَكّنْ في رُكوعِكَ وسُجودِكَ وتشهُّدِكَ. ولتَصْدُقْ فيها لِربِّكَ نِيَّتُكَ، واحضُضْ علَيها جَماعةَ مَنْ معَكَ وتحتَ يَدِكَ، وادأَبْ علَيها؛ فإنّها كما قال الله عَزَّ وجَلَّ تَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ وتنهى عن الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ.

– ثُمّ أَتْبِعْ ذلكَ الأخْذَ بسُنَنِ رَسولِ الله ﷺ، والمُثابَرةَ على خلائقِه، واقتفاءَ آثارِ السَّلَفِ الصّالح مِن بَعْدِه.

– وإذا وَرَدَ علَيكَ أمْرٌ فاستعِنْ علَيهِ باستخارةِ الله عَزَّ وجَلَّ وتَقْواهُ، ولُزومِ ما أنزلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في كتابِه مِن أَمْرِهِ ونَهْيِهِ وحَلالِهِ وحَرامِهِ، وائتمامِ ما جاءتْ به الآثارُ عن النّبيّ ﷺ، ثُمّ قُمْ فيه بِما يَحِقُّ لِلهِ علَيك.

– وَلَا تَمِلْ عن العَدْلِ، فيما أحبَبْتَ أو كرِهْتَ، لِقَريبٍ مِن النّاسِ أو بعيد.

– وآثِرِ الفِقْهَ وأهلَه، والدّينَ وحمَلَتَه، وكتابَ الله عَزَّ وجَلَّ والعامِلينَ به؛ فإنّ أفضلَ ما تَزيَّنَ به المَرْءُ الفِقْهُ في دِينِ الله، والطّلَبُ لَهُ، والحَثُّ علَيهِ، والمعرِفةُ بِما يُتقرَّبُ به مِنه إلى الله عَزَّ وجَلَّ؛ فإنّه الدّليلُ على الخَيْرِ كُلِّه، والقائدُ إليهِ والآمِرُ به، والنّاهي عن المعاصي والمُوبِقاتِ كُلِّها. وبِها، معَ

توفيقِ الله عَزَّ وجَلَّ، تَزْدادُ العبادُ معرفةً بـالله عَـزَّ وجَـلَّ، وإجـلالاً لَـهُ ودَرَكـاً للدَّرَجاتِ العُلَى في الـمَعادِ، معَ ما فـي ظُهـورِه للنّـاسِ مِـن التّـوقيرِ لِأمْـرِكَ، والهيبةِ لِسُلْطانِكَ، والأنَسةِ بِكَ، والثّقةِ بعَدْلِك.

– وعلَيكَ بالاقتصادِ في الأمورِ كُلِّها، فلَيْسَ شيءٌ أبينَ نَفْعاً، ولا أحضـرَ أَمْناً، ولا أجمعَ فَضْلاً، مِن القَصْد. والقَصْدُ داعِيةٌ إلى الرُّشْـدِ، والرُّشْـدُ دَليـلٌ على التّوفيـق، والتّوفيـقُ قائـدٌ إلـى السّـعادة. وقِـوامُ الـدّينِ والسُّـنَنِ الهاديـةِ بالاقتصاد، فآثِرْهُ فـي دُنْيـاكَ كُلِّهـا. وَلَا تُقصِّـرْ فـي طَلَـبِ الآخِـرةِ، والأجْـرِ، والأعمالِ الصّالحةِ، والسُّنَنِ المعروفة، ومَعالِمِ الرُّشْدِ؛ فـلا غايـةَ للاسـتِكْثارِ مِن البِرِّ والسَّعْيِ له، إذا كان يُطْلَـبُ بـه وَجْـهُ الله تعـالى، ومَرْضـاتُه، ومُرافَقـةُ أوليائه في دارِ كَرامتِه. واعلَمْ أنّ القَصْدَ في شأنِ الدّنيا يُورِثُ العِزَّ، ويُحصِّـنُ مِن الذّنوب، وإنّكَ لَنْ تَحُوطَ نفسَكَ ومَنْ يَليكَ ولا تستَصْلِحُ أمورَكَ بأفضـلَ مِنه. فَأْتِهِ، واهتدِ به، تَتِمَّ أمورُكَ وتَزِدْ مَقْدِرتُكَ، وتصلُحْ خاصّتُكَ وعامّتُكَ.

– وأحْسِنِ الظّنَّ باللهِ، عَزَّ وجَلَّ، يستَقِمْ لَـكَ رَعيّتُـكَ، والـتَمِسِ الوسـيلةَ إليه في الأمورِ كُلِّها، تستَدِمْ به النّعمةَ علَيكَ.

– وَلَا تَتَّهِمَنَّ أحداً مِن النّاسِ فيما تُوَلِّيهِ مِـن عَمَلِـكَ قبْـلَ تَكَشُّـفِ أَمْـرِه بالتُّهَمة؛ فإنّ إيقاعَ التُّهَمِ بالبُرَآءِ والظُّنونَ السّيّئةَ بهم مأثَمٌ. فاجْعَلْ مِـن شـأنِكَ حُسْنَ الظّنّ بأصحابِكَ، واطرُدْ عنْكَ سُوءَ الظّنّ بهم، وارفُضْـهُ عـنهم، يُعِنْـكَ ذلكَ على اصْطِناعِهم ورياضتهم.

– وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوُّ اللهِ الشّيطانُ في أمْرِكَ مَغْمَزاً؛ فإنّه إنّما يَكتفـي بالقليـلِ مِـن وَهْنِكَ، فيُدخِلُ علَيكَ مِن الغَمِّ في سُوءِ الظّنّ مـا يُنغِّصُـكَ لَـذاذةَ عَيْشِـكَ. واعلَـمْ أنّكَ تَجِدُ بحُسْنِ الظّنِّ قوّةً وراحةً، وتُكفَى به ما أحبَبْتَ كِفايتَه مِن أُمورِك، وتـدعو به النّاسَ إلى مَحبّتِكَ والاستقامةِ في الأمورِ كُلِّهـا لَـكَ. وَلَا يمنَعْـكَ حُسْـنُ الظّـنّ

بأصحابِكَ، والرّأفةُ برعيّتِكَ، أن تستعمِلَ المَسألةَ، والبحْثَ عن أمورِكَ، والمُباشَرةَ لِأمورِ الأولياءِ، والحِياطةَ للرّعيّة، والنّظَرَ فيما يُقيمُها ويُصلِحُها، بل لِتكُنِ المُباشَرةُ لِأمورِ الأولياءِ، والحِياطةُ للرّعيّةِ، والنّظَرُ في حوائجهم، وحَمْلُ مؤوناتِهم، آثَرَ عنْدَكَ مِمّا سوى ذلك؛ فإنّه أقوَمُ للدّينِ، وأَحْيا لِلسُّنّةِ. وأَخْلِصْ نِيَّتَكَ في جَميعِ هذا، وتفرَّدْ بتقويمِ نفسِكَ تَفرُّدَ مَن يعْلَمُ أنّه مَسؤولٌ عمّا صنَعَ، ومَجْزِيٌّ بِما أحسَنَ، ومُؤاخَذٌ بِما أساء؛ فإنّ الله عَزَّ وجَلَّ جعَلَ الدّينَ حِرْزاً وعِزًّا، ورَفَعَ مَن اتّبعَه وعزّزَه. فاسْلُكْ بمَنْ تَسوسُه وتَرْعاهُ نَهْجَ الدّين وطريقةَ الهُدى.

– وأَقِمْ حُدودَ اللهِ تعالى في أصحابِ الجَرائمِ على قدرِ مَنازِلهم وما استحقّوه، ولا تُعطِّلْ ذلكَ، ولا تَهاوَنْ به، ولا تُؤخِّرْ عُقوبةَ أهْلِ العقوبةِ؛ فإنّ في تَفريطِكَ في ذلكَ لَما يُفْسِدُ علَيكَ حُسْنَ ظَنِّكَ، واعْزِمْ على أمْرِكَ في ذلكَ بالسُّنَنِ المعروفةِ. وَجانِبِ الشُّبَهَ والبِدَعاتِ يَسْلَمْ لكَ دِينُكَ، وتَتِمَّ لكَ مُروءتُكَ.

– وإذا عاهدتَ عَهْداً فَفِ به، وإذا وَعَدْتَ الخيْرَ فأنجِزْهُ. واقْبَلِ الحسَنةَ، وادفَعْ بها. واغْمِضْ عن عَيْبِ كُلِّ ذي عَيْبٍ مِن رَعيّتِكَ. واشْدُدْ لِسانَكَ عن قَوْلِ الكَذبِ والزُّورِ، وأبغِضْ أهْلَه. وأَقْصِ أهْلَ النّميمةِ؛ فإنّ أوّلَ فَسادِ أمْرِكَ، في عاجِلِ الأمُورِ وآجِلِها، تقريبُ الكَذوبِ والجُرْأةُ على الكذبِ؛ لِأنَّ الكذبَ رأسُ المآثِمِ، والزُّورَ والنّميمةَ خاتِمتُها؛ لأنّ النَّميمةَ لا يَسْلَمُ صاحِبُها، وقائلَها لا يسْلَمُ له صاحِبٌ، ولا يستقيمُ لِمُطيعِها أمْرٌ.

– وأَحِبَّ أهْلَ الصِّدْقِ والصَّلاحِ. وأَعِزَّ الأشرافَ بالحَقّ. وواصِلِ الضُّعفاءَ، وصِلِ الرَّحِمَ، وابتَغِ بذلكَ وَجْهَ اللهِ تعالى وعِزّةَ أمْرِه، والتمِسْ فيه ثَوابَه والدّارَ الآخِرةَ. واجتنِبْ سُوءَ الأهواءِ، والجَوْرَ، واصْرِفْ عنهُما رأيَكَ، وأظهِرْ بَراءتَكَ مِن ذلكَ لِرَعيّتِكَ. وأنعِمْ بالعَدْلِ سِياستَهم، وقُمْ بِالحَقِّ فيهم، وبالمعرفةِ التي تنتهي بِكَ إلى سبيلِ الهُدى.

– وامْلِكْ نفسَكَ عندَ الغضَب. وآثِرِ الوَقارَ والحِلْمَ، وإيّاكَ والحِدَّةَ والطَّيْشَ والغُرورَ فيما أنتَ بسَبيلِه. وإيّاكَ أن تقولَ إنّي مُسَلَّطٌ أفعَلُ ما أشاءُ؛ فإنّ ذلكَ سَريعٌ فِيكَ إلى نَقْصِ الرّأيِ وقِلّةِ اليقينِ باللهِ وَحْدَه لا شريكَ له. وأخلِصْ لِلهِ وَحْدَهُ النّيّةَ فيه واليقينَ به.

– واعلَمْ أنّ المُلْكَ لِلهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ ويَنزِعُهُ مِمّن يَشاءُ. ولَنْ تجِدَ تغيُّرَ النّعمةِ وحُلولَ النّقمةِ إلى أحَدٍ أسْرَعَ مِنه إلى جَهَلةِ النّعمةِ مِن أصحابِ السُّلْطانِ والمَبْسُوطِ لهم في الدَّوْلةِ، إذا كفروا بنِعَمِ اللهِ وإحسانِه، واستطالوا بِما آتاهمُ اللهُ مِن فَضْلِه.

– ودَعْ عنْكَ شَرَهَ نفسِكَ. ولتكُنْ ذَخائرُكَ وكُنوزُكَ التي تَذْخَرُ وتكنِزُ: البِرَّ، والتّقوى، والمَعْدَلةَ، واستصلاحَ الرّعيّةِ، وعِمارةَ بِلادِهم، والتّفقُّدَ لأمورِهم، والحِفْظَ لِدِمائهم، والإغاثةَ لِمَلْهوفِهم. واعلَمْ أنّ الأموالَ إذا كثُرَتْ وذُخِرَتْ في الخزائنِ لا تُثْمِرُ، وإذا كانَتْ في إصلاحِ الرّعيّةِ وإعطاءِ حُقوقِهم وكَفِّ الأذيّةِ عنهم نمَتْ ورَبَتْ وصلَحَتْ بها العامّةُ وتزيّنتْ بها الوُلاةُ، وطابَ بها الزّمانُ، واعتُقِدَ فيها العِزُّ والمَنَعةُ. فَلْيكُنْ كَنْزُ خزائنِكَ تفريقَ الأموالِ في عِمارةِ الإسلامِ وأهْلِه، ووَفِّرْ مِنه على أولياءِ أميرِ المؤمنينَ قِبَلَكَ حقوقَهم، وأوفِ رعيّتَكَ مِن ذلكَ حِصَصَهم، وتعهّدْ ما يُصْلِحُ أمورَهم ومَعايشَهم؛ فإنّكَ إذا فعَلْتَ ذلكَ قَرّتِ النّعمةُ علَيكَ، واستوجَبْتَ المَزيدَ مِن الله تعالى، وكنتَ بِذلكَ على جِبايةِ خَراجِكَ وجَمْعِ أموالِ رعيّتِكَ وعمَلِكَ أقدَرَ، وكان الجميعُ لِما شَمِلَهم مِن عَدْلِكَ وإحسانِكَ أسْلَسَ لِطاعتِكَ، وأطيبَ أنفُساً لِكُلِّ ما أردتَ. فاجْهَدْ نفسَكَ فِيما حَدّدتُ لَكَ في هذا الباب، ولتَعْظُمْ حِسْبتُكَ فيه؛ فإنّما يبقى مِن المال ما أُنفِقَ في سبيلِ حَقِّه. واعرِفْ لِلشّاكرينَ شُكْرَهم، وأَثِبْهُمْ علَيه.

– وإيّاكَ أن تُنسِيَكَ الـدّنيا وغُرورُهـا هَـوْلَ الآخِـرةِ، فتتهـاونَ بِمـا يَحِـقُّ علَيكَ؛ فإنّ التّهاوُنَ يُورِثُ التّفريطَ، والتّفريطَ يُورِثُ البَوارَ. وليكُنْ عمَلُكَ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ وفيه، تبارَكَ وتعالى. وارْجُ الثّوابَ مِنْـهُ؛ فـإنّ الله سُـبحانَه قـد أسـبغَ علَيكَ نعمتَه في الدّنيا، وأظهَرَ لدَيْكَ فضْلَهُ، فاعتصِمْ بالشُّكْرِ، وعلَيهِ فاعتمِدْ، يَـزِدْكَ اللهُ خَيْـراً وإحسـاناً؛ فـإنّ اللهَ يُثيـبُ بِقـدرِ شُـكْرِ الشّـاكِرينَ، وإحسـانِ الـمُحْسِنينَ، وقَضَى الحَقَّ فيما حَمَّلَ مِن النِّعَمِ، وألبسَ مِن العافيةِ والكرامة.

– وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْباً، وَلَا تُمالِئَنَّ حاسِداً، وَلَا تَـرْحَمَنَّ فـاجِراً، وَلَا تَصِـلَنَّ كَفوراً، وَلَا تُداهِنَنَّ عَدُوًّا، ولَا تُصدِّقَنَّ نَمّامـاً، وَلَا تـأمَنَنَّ غَـدّاراً، وَلَا تُـوالِيَنَّ فاسِقاً، ولا تَتّبِعَنَّ غاوياً، ولا تَحْمَـدَنَّ مُرائيـاً، وَلَا تَحْقِـرَنَّ إنسـاناً، وَلَا تَـرُدّنَّ سائلاً فقيراً، وَلَا تُحَسِّنَنَّ باطلاً، وَلَا تُلاحِظَـنَّ مُضْـحِكاً، وَلَا تُخْلِفَـنَّ وَعْـداً، ولا تَزْهُوَنَّ فَخْراً، وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَباً، وَلَا تَأتِيَنَّ بَذْخاً، وَلَا تَمْشِـيَنَّ مَرَحـاً، وَلَا تركبَنَّ سَـفَهاً، وَلَا تُفـرِّطَنَّ فـي طَلَـبِ الآخِـرة، وَلَا تَـرْفعَنَّ للنَّمّـامِ عَيْنـاً، ولا تَغمِضَنَّ عن الظّالِمِ رَهْبةً مِنه أو مَخافةً، وَلَا تُبطِلَنَّ ثَوابَ الآخِرةِ بالدّنيا.

– وأكثِرْ مُشـاوَرةَ الفُقَهـاءِ. واسـتعمِلْ نفسَـكَ بـالحِلْمِ. وخُـذْ عـن أهْـلِ التّجارِبِ وذَوِي العَقْلِ والـرّأيِ والحِكْمـة. وَلَا تُـدْخِلَنَّ فـي مَشـورتِكَ أهْـلَ الدِّقّةِ والبُخْلِ، ولا تَسْمَعَنَّ لهم قَولاً؛ فإنّ ضَرَرَهم أكثَرُ مِن مَنفعتِهم.

– ولَيْسَ شيءٌ أسرعَ فَساداً لِمـا اسـتقبَلْتَ فيـه أمْـرَ رَعيّتِـكَ مِـن الشُّـحّ. واعْلَمْ أنّكَ إذا كُنْتَ حَريصاً كنْتَ كثيرَ الأخْذِ، قليلَ العطيّة، وإذا كنْتَ كذلكَ لم يستقِمْ لَكَ أمرُكَ إلّا قليلاً؛ فإنّ رَعيّتَكَ إنّما تَعقِدُ على مَحبّتكَ بالكَفِّ عـن أموالِهم، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهم، ويَدومُ صَفاءُ أوليائـكَ لَـكَ بالإفضـالِ علَـيهم، وحُسْنِ العطيّةِ لهم. فاجتَنِبِ الشُّحَّ، واعلَمْ أنّه أوّلُ ما عَصَى به الإنسـانُ رَبَّـه، وأنّ العاصِيَ بِمَنْزِلةِ خِـزْيٍ، وهـو قَـوْلُ اللهِ عَـزَّ وجَـلّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فسَهِّلْ طَريقَ الجُودِ بالحَقِّ، واجْعَلْ لِلْمُسْلمينَ كُلِّهم مِن فَيْئِكَ حَظًّا ونصيباً، وأَيْقِنْ أنّ الجُودَ مِن أفضَلِ أعمالِ العِباد، فأَعدِدْهُ لنفسِك خُلُقاً، وارْضَ به عَمَلاً ومَذْهَباً.

- وتفقّدْ أُمورَ الجُنْدِ في دَواوينِهم ومَكاتِبهم، وأَدْرِرْ علَيهم أرزاقَهم، ووسِّعْ علَيهم في مَعايشِهم؛ ليُذْهِبَ بذلِكَ اللهُ فاقتَهم، ويُقوِّمَ لكَ أمْرَهم، ويَزيدَ به قُلوبَهم في طاعتِكَ وأَمْرِكَ خُلوصاً وانشراحاً. وحَسْبُ ذي سُلْطانٍ مِن السّعادةِ أن يكونَ على جُندِه ورَعيّتِه ذا رَحْمةٍ في عَدْلِهِ وحِيطتِه وإنصافِه وعِنايتِهِ وشَفَقتِهِ وبِرِّه وتوسعتِه. فزايِلْ مَكْروهَ أَحَدِ البابَيْنِ، باستشعارِ فَضْلِ البابِ الآخَرِ ولُزومِ العمَلِ به، تَلْقَ إن شاء اللهُ نَجاحاً وصَلاحاً وفَلاحاً.

- واعلَمْ أنّ القضاءَ مِن الله تعالى بالمكانِ الذي ليسَ فَوْقَه شيءٌ مِن الأمورِ؛ لِأنّه مِيزانُ اللهِ الذي يعتدِلُ علَيه الأحوالُ في الأرض، وبإقامةِ العَدْلِ في القضاءِ والعمَلِ تَصلُحُ الرّعيّةُ، وتُؤمَنُ السُّبُلُ، ويَنتصِفُ المظلومُ، ويأخذُ النّاسُ حقوقَهم، وتَحسُنُ المعيشةُ، ويُؤدَّى حَقُّ الطّاعةِ، ويَرزُقُ اللهُ العافيةَ والسّلامةَ، ويقومُ الدّينُ، وتُجْرَى السُّنَنُ والشّرائعُ، وعلى مَجاريها ينتجِزُ الحَقُّ والعَدْلُ في القضاء.

- واشتدَّ في أمْرِ الله عَزَّ وجَلَّ. وتَورَّعْ عن النَّطْفِ[٢] وامْضِ لإقامةِ الحُدود. وأقْلِلِ العَجَلةَ، وابعُدْ مِن الضّجَرِ والقَلَق. واقنَعْ بالقِسَمِ، ولتسكُنْ رِيحُكَ، ويَقَرَّ جِدُّكَ. وانتفِعْ بتجربتِكَ. وانتبِهْ في صَمْتِكَ، واسدُدْ في مَنْطِقِكَ. وأنصِفِ الخَصْمَ. وقِفْ عندَ الشُّبْهةِ. وابلُغْ في الحُجّة.

- ولا يأخُذْكَ في أحَدٍ مِن رَعيّتِكَ مُحاباةٌ، وَلَا مُحاماةٌ، ولا لَوْمُ لائمٍ. وتثبّتْ، وتأنَّ، وراقِبْ، وانظُرْ، وتدبَّرْ، وتفكَّرْ، واعتبِرْ، وتَواضَعْ لِربِّكَ.

(٢) القَذْفُ بالفُجور.

وارأَفْ بجَميعِ الرّعيّة. وسَلِّطِ الحَقَّ على نفسِكَ. وَلَا تُسْرِعَنَّ إلى سَفْكِ دَمٍ؛ فإنّ الدِّماءَ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ بمَكانٍ عَظيمٍ انتهاكاً لها بغَيرِ حَقِّها.

- وانظُرْ هذا الخَراجَ الذي قد استقامَتْ علَيه الرَّعيّةُ، وجعَلَهُ اللهُ للإسلامِ عِزًّا ورِفْعةً، ولِأَهْلِهِ سَعةً ومَنَعةً، ولِعَدُوِّهِ وعَدُوِّهم كَبْتاً وغَيظاً، ولِأهلِ الكُفْرِ مِن مُعاديهم ذُلًّا وصَغاراً، فوزِّعْهُ بينَ أصحابِه بالحقِّ والعَدْلِ والتّسويةِ والعُمومِ فيه، ولا ترفَعَنَّ مِنه شيئاً عن شَريفٍ لِشَرَفِه، ولا عن غَنيٍّ لِغِناهُ، وَلَا عن كاتِبٍ لَكَ، وَلَا عن أحَدٍ مِن خاصّتِكَ، وَلَا تأخُذَنَّ مِنه فوقَ الاحتمالِ له. وَلَا تُكلِّفَنَّ أَمْراً فيه شَطَطٌ. واحْمِلِ النّاسَ كُلَّهم على أَمْرِ الحَقّ؛ فإنّ ذلكَ أجْمَعُ لِأُلفتِهم، وألزَمُ لرِضاءِ العامّةِ.

- واعلَمْ أنّكَ جُعِلْتَ بوِلايتِكَ خازِناً وحافِظاً وراعِياً، وإنّما سُمِّيَ أهْلُ عمَلِكَ رَعيّتَكَ؛ لِأنّكَ راعِيهم وقَيِّمُهم: تأخُذُ مِنهم ما أعطَوْكَ مِن عَفْوِهم ومَقْدِرتِهم، وتُنفِقُه في قِوامِ أمْرِهم وصَلاحِهم وتَقْويمِ أَوَدِهم. فاستَعْمِلْ علَيهم في كُوَرِ[٣] عَمَلِكَ ذَوِي الرّأيِ والتّدبيرِ والتّجربةِ والخِبْرةِ بالعَمَلِ، والعِلْمِ بالسّياسةِ، والعَفافِ. ووَسِّعْ علَيهم في الرّزقِ؛ فإنّ ذلكَ مِن الحُقوقِ اللّازمة لَكَ فيما تقلّدتَ وأُسْنِدَ إلَيْكَ. ولا يَشْغَلْكَ عنه شاغِلٌ، وَلَا يَصْرِفْكَ عنه صارِفٌ، فإنّكَ متى آثَرْتَهُ وقُمْتَ فيه بالواجبِ استدعَيْتَ به زيادةَ النِّعْمةِ مِن ربِّكَ، وحُسْنَ الأُحْدوثةِ في عمَلِكَ، واستَجْرَرْتَ به المَحبّةَ مِن رَعيّتِكَ، وأُعِنْتَ على الصَّلاح؛ فدَرَّتِ الخَيْراتُ ببَلَدِكَ، وفَشَتِ العمارةُ بِناحيتِكَ، وظهَرَ الخِصْبُ في كُوَرِكَ، فكَثُرَ خَراجُكَ، وتوفّرَتْ أموالُكَ، وقَويتَ بذلكَ على ارتياضِ جُنْدِكَ، وإرضاءِ العامّةِ بإفاضةِ العَطاءِ فيهم مِن نَفْسِكَ، وكُنْتَ محمودَ السّياسةِ، مَرْضِيَّ العَدْلِ في ذلك عنْدَ عَدُوِّكَ، وكُنْتَ في أُمورِكَ كُلِّها

(٣) جَمعُ كُورة: المدينةُ والصُّقْعُ.

ذا عَدْلٍ وقوّةٍ وآلةٍ وعُدّة. فَنافِسْ في هذا، وَلَا تُقدِّمْ علَيه شيئاً، تُحْمَدْ مَغبَّةُ[٤] أمْرِكَ، إن شاء الله.

- واجعَلْ في كُلِّ كُورةٍ مِن عمَلِكَ أَميناً يُخبِرُكَ أخبارَ عُمّالِكَ، ويكتُبُ إليكَ بسِيرتِهم وأعمالِهم، حتّى كأنّكَ معَ كُلِّ عامِلٍ في عمَلِه مُعايِنٌ لِأَمْرِه كلِّه. وإن أردتَّ أن تأمُرَه بأمْرٍ فانظُرْ في عَواقِبِ ما أردتَّ مِن ذلكَ: فإنْ رأيتَ السّلامةَ فيه والعافيةَ ورَجَوْتَ فيه حُسْنَ الدّفاعِ والنُّصْحِ والصُّنْعِ فأَمْضِهِ، وإلّا فتَوقَّفْ عنه، وراجِعْ أهْلَ البصَرِ والعِلْمِ به، ثُمّ خُذْ فيه عُدّتَه؛ فإنّه رُبّما نظَرَ الرّجُلُ في أمْرٍ مِن أمْرِهِ وقد واتاهُ على ما يهوَى فقَوّاهُ ذلكَ وأعجبَه، وإن لم ينظُرْ في عَواقِبِه أهلكَهُ، ونقضَ علَيه أمْرَه.

- فاستَعْمِلِ الحَزْمَ في كُلِّ ما أردتَّ، وباشِرْهُ بعْدَ عَوْنِ الله عَزَّ وجَلَّ بالقوّةِ. وأكثِرِ استخارةَ ربِّكَ في جَميعِ أُمورِكَ. وافرُغْ مِن عَمَلِ يومِكَ، وَلَا تُؤخِّرْهُ لِغَدِكَ، وأكثِرْ مُباشَرتَه بنَفْسِكَ؛ فإنّ لِغَدٍ أُموراً وحَوادِثَ تُلْهيكَ عن عمَلِ يومِكَ الذي أخّرتَ. واعلَمْ أنّ اليَوْمَ إذا مضى ذهَبَ بما فيه، فإذا أخّرْتَ عمَلَه اجتمَعَ علَيكَ عَمَلُ يومَيْنِ، فشغَلَكَ ذلكَ حتّى تُعْرِض عنه. فإذا أمضَيْتَ لِكُلِّ يومٍ عمَلَه أرَحْتَ نفْسَكَ وبدَنَكَ، وأحكَمْتَ أُمورَ سُلْطانِكَ.

- وانظُرْ أحرارَ النّاسِ، وذَوِي الشّرَفِ مِنهم، ثمّ استَيْقِنْ صَفاءَ طَويّتِهم وتهذيبَ مَودّتِهم لكَ ومُظاهَرتَهم بالنُّصْحِ والمُخالَصةِ على أمْرِك، فاستَخْلِصْهم وأحسِنْ إلَيهم.

- وتعاهَدْ أهْلَ البُيوتاتِ مِمَّنْ قد دخلَتْ علَيهم الحاجةُ، فاحتَمِلْ مَؤونتَهم، وأَصْلِحْ حالَهم حتّى لا يجدوا لِخَلّتهم[٥] مُنافِراً.

---

(٤) عاقبتُه ونتيجتُه.

(٥) الخَلّةُ: الحاجةُ والفقْرُ.

– وأفْرِدْ نفسَكَ للنّظَرِ في أُمورِ الفُقَراءِ والـمَساكينِ، ومَـن لا يقْـدِرُ علـى رَفْعِ مَظْلِمةٍ إليكَ، والـمُحتَقَرِ الذي لا عِلْمَ له بطَلَبِ حَقِّه، فاسأَلْ عنـه أخْفَـى مَسْألةٍ، ووكِّلْ بأمثالِـهِ أهْـلَ الصَّـلاحِ مِـن رَعيّتِـكَ، ومُـرْهُم برَفْـعِ حَـوائجِهم وخِلالِهم إلَيكَ؛ لتنظُرَ فيها بِما يُصْلِحُ اللهُ أمْرَهم.

– وتعاهَدْ ذَوي البأساءِ ويَتاماهم وأرامِلَهم، واجعَـلْ لهـم أرزاقـاً مِـن بَيْـتِ المال اقتداءً بأميرِ المؤمنينَ، أعزَّهُ الله تعالى، فـي العَطْـفِ علَـيهم والصِّـلة لهـم؛ لِيُصْلِحَ اللهُ بذلكَ عَيْشَهم، ويَرزُقَكَ به بَرَكةً وزيادةً. وأَجْرِ لِلْأَضِـرّاءِ[٦] مِـن بَيْـتِ المال. وقَدِّمْ حَمَلةَ القرآنِ مِنهم والحافِظينَ لِأكثَرِه، في الجِرايةِ، على غَيْرِهم.

– وانصِـبْ لِمَرْضـى الـمُسْلِمينَ دُوراً تُـؤويهم، وقُوّامـاً يَرْفُقـونَ بهـم، وأطبّاءَ يعالجونَ أسقامَهم، وأسعِفْهم بِشَهواتِهم ما لم يُؤدِّ ذلكَ إلى سَرَفٍ في بَيْتِ المال.

– واعلَمْ أنّ النّاسَ إذا أُعطُوا حُقوقَهم وأفضلَ أَمانِيِّهم لم يُرْضِهم ذلـكَ، ولـم تَطِبْ أنفسُهم دونَ رَفْعِ حَوائجِهم إلـى وُلاتِهـم، طَمَعـاً فـي نَيْـلِ الزّيـادةِ وفَضْلِ الرِّفْقِ مِنهم. ورُبّما بَرِمَ[٧] الـمُتصَفِّحُ لِأمورِ النّاسِ لِكَثْرةِ ما يَرِدُ علَيـه، ويشغَلُ فكْرَه وذهنَه مِنها ما يَنالُه بـه مَؤونـةٌ ومَشـقّةٌ. ولـيسَ مَـنْ يرغَـبُ فـي العَدْلِ، ويعْرِفُ مَحاسِنَ أُمـورِه فـي العاجِـلِ وفَضْـلَ ثـوابِ الآجِـلِ، كالـذي يَسْتقِلُّ ما يُقرِّبُهُ إلى الله تعالى ويلتمِسُ رحمتَه به.

– وأكثِرِ الإِذْنَ للنّاسِ علَيكَ، وأبرِزْ لهم وَجْهَكَ، وسَكِّنْ لهم أَحْراسَكَ، واخفِضْ لهم جَناحَكَ، وأظهِرْ لهم بِشْرَكَ، ولِنْ لهُمْ فـي المسـألةِ والــمَنْطِق، واعطِفْ علَيهم بجُودِكَ وفَضْلِكَ.

---

(٦) جَمعُ ضَرير: الذّاهبُ البصَر.

(٧) سَئمَ ومَلَّ.

– وإذا أَعطَيْتَ فأَعْطِ بسَمَاحةٍ، وطِيبِ نَفْسٍ، والتماسٍ لِلصَّنيعةِ والأجْرِ، غيرَ مُكَدِّرٍ ولا مَنّان؛ فإنّ العَطِيّةَ على ذلكَ تِجارةٌ مُرَبّحةٌ، إن شاء الله تعالى.

– واعتَبِرْ بِما تَرَى مِن أمورِ الدّنيا، ومَن مَضَى مِن قَبْلِكَ مِن أهْلِ السُّلْطانِ والرّياسةِ في القُرونِ الخاليةِ والأُمَمِ البائدة، ثمّ اعتصِمْ في أَحْوالِكَ كُلِّها بأَمْرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى والوقوفِ عندَ مَحَبّتِه والعَمَلِ بشَريعتِه وسُنّتِه، وبإقامةِ دِينِه وكتابِه. واجتَنِبْ ما فارقَ ذلكَ وخالَفَه ودَعا إلى سَخَطِ الله عَزَّ وجَلَّ.

– واعْرِفْ ما يجْمَعُ عُمّالُكَ مِن الأموالِ وما يُنفِقُونَ مِنها، ولا تجمَعْ حَراماً، ولا تُنفِقْ إسرافاً.

– وأكثِرْ مُجالَسةَ العُلَماءِ ومُشاورَتَهم ومُخالطتَهم.

– وليكُنْ هَواكَ اتّباعَ السُّنَنِ وإقامتَها وإيثارَ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَعاليها. وليكُنْ أكْرَمُ دُخلائِكَ وخاصّتِكَ علَيكَ مَن إذا رأى عَيْباً فيكَ لم تمنَعْهُ هَيبتُكَ مِن إنهاءِ ذلكَ إليكَ في سِرٍّ، وإعلامِكَ بما فيه مِن النَّقْص؛ فإنّ أولئكَ أنصَحُ أوليائِكَ ومُظاهِريكَ.

– وانظُرْ عُمّالَكَ الذينَ بحَضْرتِكَ وكُتّابَكَ، فَوَقِّتْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنهم في كُلِّ يومٍ وقتاً يدخُلُ علَيكَ فيه بكُتُبِه ومُؤامَرتِه وما عنْدَه مِن حَوائجِ عُمّالِكَ وأَمْرِ كُوَرِكَ ورَعيّتِكَ، ثُمّ فَرِّغْ لِما يُورِدُه علَيكَ مِن ذلكَ سَمْعَكَ وبصَرَكَ وفَهْمَكَ وعَقْلَكَ، وكرِّرِ النّظَرَ إليه والتّدَبُّرَ له، فما كان مُوافِقاً لِلْحَزْمِ والحَقِّ فأَمْضِه، واستَخِرِ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فيه، وما كان مُخالِفاً لِذلكَ فاصْرِفْهُ إلى التّثبُّتِ مِنه والمَسْألةِ عنه.

– وَلَا تَمْنُنْ على رَعيّتِكَ، وَلَا على غَيْرِهم، بِمَعْروفٍ تُؤتيهِ إليهمْ، ولا تَقْبَلْ مِن أحَدٍ مِنهم إلّا الوفاءَ والاستقامةَ والعَوْنَ في أُمورِ أميرِ المؤمنينَ، ولا تَضَعَنَّ المعروفَ إلّا على ذلكَ.

– وتفهَّمْ كِتابي إليكَ، وأكثِرِ النّظَرَ فيه والعمَلَ به.

– واستَعِنْ باللهِ على جَميعِ أُمورِكَ، واستَخِرْه؛ فإنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ معَ الصَّلاحِ وأهْلِه.

– وليكُنْ أعظَمُ سِيرتِكَ وأفضَلُ رَغْبتِكَ ما كان لِلّهِ عَزَّ وجَلَّ رِضاً، ولِدينِه نِظاماً، ولأهْلِهِ عِزًّا وتمكيناً، وللذّمّةِ والمِلّةِ عَدْلاً وصَلاحاً.

– وأنا أسألُ اللهَ، عَزَّ وجَلَّ، أن يُحْسِنَ عَوْنَكَ وتوفيقَكَ ورُشْدَكَ وكَلاءَكَ، وأن يُنزِلَ عليكَ فضْلَهُ ورَحْمتَه بتَمامِ فَضْلِهِ علَيكَ وكرامتِه لكَ، حتّى يجعَلَكَ أفضَلَ أمثالِكَ نَصيباً، وأوفرَهم حَظًّا، وأَسْناهم ذِكْراً وأَمْراً، وأن يُهلِكَ عَدُوَّكَ ومَن ناواكَ وبَغَى عليكَ، ويرزقَكَ مِن رَعيّتِكَ العافيةَ، ويَحْجُزَ الشّيطانَ عنكَ ووَساوِسَه، حتّى يَستَعْلِيَ أمْرُكَ بالعزِّ والقوّةِ والتّوفيق، إنّه قَريبٌ مُجيب.

* * *

المعجم التاريخي للمصطلحات الطبية

د. نشأت الحمارنة(*)
اكتمال رجب(**)

البَرَدة

البَرَدَة اصطلاحٌ طبِّيٌّ في علم أمراض العين استعمله العرب حينما ترجموا التراث الإغريقيَّ وما يزال مستعملاً حتى اليوم، وهو اسمٌ لمرضٍ التهابيٍّ يصيبُ غُدَّةً من الغُدد[1] التي تقع في سُمْك الجفن. وقد أخذ العربُ وصف هذا المرض من الإغريق كما استوحوا من اللُّغة اليونانيَّة معنى هذا الاسم.

لقد شبَّه الإغريق هذا المرض من حيث الشَّكل (بحبَّة البَرَد الصَّغيرة)، وقد فهم العرب هذا المعنى وأرادوا نقله إلى العربيَّة فلم يجدوا فيها كلمةً مُفردةً تعني (حبَّة البَرَد) لذلك استحدثوا كلمةً جديدةً هي (البَرَدَة) لكي تحملَ هذه الدِّلالة الاصطلاحيَّة.

فنحن لا نعرف في معجمات اللُّغة – قبل عصر الترجمة – كلمة (بَرَدَة)

(*) طبيب عيون باحث في تاريخ الطب – الأردن.

(**) باحثة في تاريخ طب العيون من سورية.

(١) يحتوي الجفن على غدد تسمَّى (غدد مايبوميوس Meibomian Glands) وهي غدد دهنية موجودة في سمك الغضروف الجفني (Tarsus).

بهذا المعنى الطِّبِّيِّ، ولكنَّنا نجد في هذه المعجمات كلمة (بَرَد) بمعنى (حَبِّ الغَمام)[٢] أو (حَبِّ المُزن)[٣].

ولذلك فإنَّه من الطبيعيِّ ألّا نجد كلمة (بَرَدَة) بهذه الدِّلالة الطِّبِّيَّة إلَّا في المعجمات الطِّبِّيَّة التي ظهرت بعد عصر الترجمة وهي تشير إلى اسم أحد الأمراض التي تصيب الجَفْنَ.

وخلاصة القول إنَّ المرضَ يُسَمَّى باليونانيَّة (حَبَّة البَرَد) أو (البَرَد الصَّغير)[٤] وأنَّ التراجمةَ العرب استحدثوا من كلمة (بَرَد) كلمةَ (بَرَدَة).

فالتراجمة العرب في نقلهم لاسم هذا المرض سلكوا الطريقة نفسها التي سلكوها في تعاملهم مع اسم (الشَّعيرة)، إلَّا أنَّ اللُّغة العربيَّة كانت تمتلك كلمةً مفردةً تعني (حبَّة الشَّعير) دون أنْ يكون لهذه الكلمة دلالةٌ في حقل الطِّبِّ، وما فعله التراجمة هنا هو أنَّهم أعطوا لهذه الكلمة القديمة دلالةً جديدةً؛ أيّ إنَّهم أعطوها (معنىً اصطلاحيًّا)، أمَّا في حالة (البَرَدَة)[٥] فإنَّهم اضطروا إلى استحداث كلمةٍ جديدةٍ في اللُّغة من جذرٍ قديمٍ لم يكن يحمل هذا المعنى في حقل الطِّبِّ فصار للكلمة المستحدثة وظيفةٌ اصطلاحيَّةٌ.

---

(٢) في لسان العرب (٣/ ٨٥). وفي القاموس المحيط: (١/ ٢٧٦).

(٣) لسان العرب: (١/ ٢٩٣).

(٤) الدبيان: حنين بن إسحاق: (٢/ ٣٧٣، ٤١٠، ٤١٧): «والمعنى الأول للبرد هو: حبُّ الغمام. (القاموس: برد). ومصطلح بردٍ هذا يقابله في المصطلحات الإغريقية الطبية Chalazion، وهي مركبة من جزأين الأول Chalaza بمعنى البرد المعروف (ليدل وسكوت Liddel. Scott ٨٧٩) ثم اللاحقة الإغريقية التي تفيد التصغير (جودوين Goodwin ١٨٨/ ٨٤٤) ليصبح المعنى البَرَد الصغير أو (البُريد) وهو ما عبر عنه حنين بمعناه (البَرَد) مع إسقاط التصغير. فدلت كلمة برد على المرض بسبب الترجمة».

(٥) في اللُّغة يقال: الشَّعيرة: لحبة الشَّعير الواحدة. ومن الشعيرة أُخذ اسم المرض المعروف (الشَّعيرة) ، لشبه المرض بالشَّعيرة أي بحبة الشعير. وفي اللُّغة يقال: (البَرَدُ) لحبِّ الغمام ، ولا يقال لواحدته (البَرَدَة).

في دراستنا للتراث الطِّبِّيِّ العربيِّ وجدنا أنَّ بعض المحقّقين[٦] لم يفهموا عبارةً كتبها بعض النُّساخ بشكلٍ خاطئ ولذلك تركوا هذه العبارة على حالها وفي حقيقة الأمر فإنَّ هذه العبارة إنَّما جاءت نتيجةً لسهوٍ وقع فيه الناسخ فكتب (البَرَدَةُ تشبهُ البَرَدَةَ) والصَّحيح هو (والبَرَدَةُ تشبه البَرَدَ). فالبَرَدَة هي المرض والبَرَدُ هو حَبُّ الغَمام.

* * *

لقد أخذ (وصفُ) هذا المرض حيزاً مُهِمَّاً بالتأريخ لطِبِّ العيون العربيِّ في بداية القرن العشرين، فحينما ترجمَ (هيرشبرغ) (قانونَ) ابن سينا لفتَ نظرَهُ حقيقة أنَّ وصف (آإتيوس) Aëtios[٧] للبَرَدَة أحسن من وصف (بولص) Paulos[٨] لها.

ونبَّه إلى أنَّ (جالينوس) وصف الحالة التي **تتحجَّر** فيها البَرَدَة[٩]. وحينما ترجمَ تذكرةَ عليّ بن عيسى وجد أنَّ المؤلِّفَ يقول: إنَّ (البَرَدَةَ) تكون في (ظاهر) الجفن في (أكثر) الحالات، أمَّا عن وجود البَرَدَة في (**باطن**) الجفن فقد جاء تعبير المؤلِّف موحياً للقارئ بأنَّها هي الحالة النادرة أو الأقلّ مصادفةً (...فإذا كان المرض في **باطن** الجفن..). وكان تعبير عليّ ابن عيسى في المخطوطتين العربيتين اللتين استعملهما (هيرشبرغ) مشابهاً لما جاء في الترجمة اللاتينيَّة (للتذكِرة)[١٠].

---

(٦) ومن هؤلاء الزملاء الذين حقّقوا: (الحاوي) للرازي ، و(المُهذَّب) و(الموجز) لابن النفيس، وذلك على سبيل المثال.

(٧) (آإتيوس) Aëtios (من القرن الأول الميلاديّ).

(٨) (بولص) الإجيني، الأجانيطي (القوابلي)، (ولد حوالي ٥٩٠ م).

(٩) ترجمة القانون: (الباب: ١٤، ص ١٠٩ ، الهامش: ٢).

(١٠) ترجمة التَّذكِرة: (الباب: ٥، ص ٦٧ ، الهامش: ٢).

ويعرِفُ (هيرشبرغ) أنَّ (آإتيوس) قال بوضوحٍ إنَّ وجود (البَرَدَة) يكون في (**باطن**) الجفن ، أمَّا وجودها في (**ظاهر**) الجفن فهو الاستثناء. استغرب (هيرشبرغ) أنْ يكون تعبير عليّ بن عيسى مناقضاً لتعبير (آإتيوس) ولم يجد تفسيراً لما ذهب إليه عليّ بن عيسى إلَّا أنْ يكونَ قد تأثَّر بـ(بولص) الذي أهمل موقع (البَرَدَة) حينما وصفها في القسم السَّريريّ من كتابه، ولكنَّه حينما وصف العملَ الجِراحيّ للبَرَدَة بدأ بالبَرَدَة التي تكون في (**ظاهر**) الجفن أولاً، وبعد ذلك انتقل إلى وصف العمل الجِراحيّ للبَرَدَة التي تكون في (**باطن**) الجفن.

ومن هنا رأى (هيرشبرغ) أنَّ اعتماد عليّ بن عيسى على (بولص) هو الذي أوقعه في هذا الخطأ ، فهو المؤلِّف العربيّ الوحيد الذي قال: «وأكثر ما يتولَّد [البَرَد] في **ظاهر** الجفن».

هذه المسألة التي أثارها (هيرشبرغ) تستحق التأمل ذلك أنَّ عليَّ بن عيسى اعتمد اعتماداً أساسيًّا على حنين الذي قال صراحةً في كتابيه: إنَّ (البَرَدَة) من الأمراض التي تحدث في **باطن** الجفن.

ونضيف هنا شيئاً لم يكن معروفاً أيام (هيرشبرغ) هو أنَّ كتاب (آإتيوس) في طِبِّ العين لم يترجم إلى العربيَّة إلَّا في القرن العاشر الميلاديّ، ولذلك فإنَّه من المحتمل ألّا يكون عليّ بن عيسى قد عرفَ آراء (آإتيوس) وإنَّما اكتفى من كتب الإغريق في السَّريريات بأعمال (جالينوس) Galenos[١١] و(بولص).

* * *

(١١) (جالينوس): Galenos (Galen)، (ت حوالي ٢٠٠ م).

إنَّ أول ذكرٍ لاسم هذا المرض (البَرَدَة) جاء عند ابن ماسويه[١٢] وعند حنين بن إسحاق[١٣] ولكنَّه جاء بصيغة الجمع (البَرَد).

وكذلك فإنَّ تعريفَ هذا المرض جاء في (الكُنَّاش المُشجَّر) – لابن ماسويه – وفي كتابي حنين[١٤] وذلك لأوَّل مرَّةٍ؛ أي إنَّ الاصطلاح والتعريف ظهرا قبل منتصف القرن التاسع الميلاديّ.

وأوَّل من استعمل هذا الاصطلاح بصيغة المُفرد (البَرَدَة) هو الرازي[١٥] ومن بعده أبو الحسن الطَّبريّ[١٦].

---

(١٢) معرفة مِحنة الكَحَّالين/ المخطوط: «فإن قيل فعرفني أوجاع العيون وعللها في حجبها وأغشيتها؟ فقل له:... والبَرَد...».

– الكناش المُشجَّر/ المخطوط: «في البَرَد: وهو رطوبةٌ غليظةٌ تجمد في **باطن** (الجفن) شِبْهَ البَرَد ويُسَمَّى كالازيون». شالازيون = Chalazion.

(١٣) المسائل في العين: (المسألة: ١٣٩ ، ص ٥٦):

«العلَّة التي يقال لها **البَرَدُ** الحادثة في الجفن مماذا تكون وما علامتها؟

جواب: تكون من رطوبة غليظة تجمد في **باطن** الجفن ، وأما علامتها فشبيهة بالبرد».

– العشر مقالات في العين: (ص ١٣١ – ١٣٢): «أمراض الجفن:.. وأما في **باطنها** فيعرض: الجرب ، والبرد ، والتحجّر ، والالتزاق.

وأما البَرَد: فهو رطوبة غليظة تجمد في باطن الجفن **شبيهة** بالبرد».

(١٤) ذلك أنَّنا لا نعرف على وجه الدِّقَّة أيّ هذه الكتب رأى النُّور أولاً (الكُنَّاش) أم (المسائل في العين)، وفي الحالتين وردت الكلمة بصيغة الجمع (البَرَد)، وقد ظَلَّ المؤلفون العربُ في القرنين التاسع والعاشر يستعملون صيغة الجمع (ابن ماسويه،حنين، الرازي، الكشكري، علي بن العباس).

(١٥) الحاوي: (٢ / ٢١٢): «قال: فأما **البردة** فإنَّها اجتماع رطوبةٍ غليظةٍ صلبةٍ في الجفن».

(١٦) المعالجات البقراطية/ المخطوط : (١/ ٢١٦) ، (التحقيق: ص ٧٥):

«في الجَرَب الذي يعرف **بالبَرَدَة**:

هذا النوع من الجَرَب يحدث مع الرَّمَد ، وربما حدث من غير رمد.

وصورته أنَّه يكون حبَّة بيضاء تظهر تحت الجفن الأعلى ، مؤلمة في وقت وتحكّ في =

يكاد أهمُّ المؤلِّفين العرب يجمعون على ذكر الأوصاف الرَّئيسة لهذا المرض، فهي (رطوبةٌ غليظةٌ تجتمع في الجفن) (وتجْمَدُ هناك) فشكلها يشبه شكل حبَّة البَرَد من حيث الاستدارة[١٧] والبياض[١٨] والصَّلابة[١٩].

* * *

- تعريف المرض:

- **حنين بن إسحاق**: المسائل في العين: (المسألة: ١٣٩، ص ٥٦): «العِلَّة التي يقال لها **البَرَدُ** الحادثة في الجفن مماذا تكون وما علامتها ؟ جواب: تكون من رطوبةٍ غليظةٍ تجمد في **باطن** الجفن ، وأمَّا علامتها: فشبيهة بالبَرَد».

- **حنين بن إسحاق**: (العشر مقالات في العين: ص ١٣١ - ١٣٢): «أمراض الجفن: ..وأمَّا في **باطنها** فيعرض: الجَرَب، والبَرَد ، والتَّحجُّر، والالتزاق.

وأمَّا البَرَد: فهو رطوبةٌ غليظةٌ تجمد في **باطن** الجفن **شبيهةٌ** بالبَرَد».

- **الرازي**: (المُشجَّرة)[٢٠]: (ص ٢٥): «ما سبب البَرَدِ وما علامته ؟

أمَّا سببه فرطوبةٌ غليظةٌ تجمد في **باطن** الجفن.

وأمَّا علامته فهو شبيه بالبَرَد».

= وقت ، حتى يستلذّ العليل حكَّها ، ثمَّ يعظم الألم بعد ذلك ، ولا يكاد أنْ ينحلَّ ما فيها من المِدَّة أو يرقّ ، وسبب ذلك مادَّة مركَّبة من كيفية فاسدةٍ حرّيفةٍ لذّاعةٍ ورطوبةٍ غليظة».

(١٧) عمّار بن عليّ الموصليّ: المُنتخب: (ص ٣٢).

(١٨) عليّ بن العبَّاس المجوسيّ: الملكي: (المخطوط: ١/ ٣٤٢، التحقيق: ص ٢٧١).

- ابن سينا: القانون: (٢/ ٢٢٥) ، (طبعة بولاق: ص ١٣٣).

(١٩) عليّ بن عيسى: تذكِرة الكَحَّالين: (ص ٨٥ - ٨٦).

(٢٠) الرازي في (المُشجَّرة) ينقل عن (مسائل حنين).

– **الكشكري**: الكُنَّاش: (ص ٤٠ – ٤١): «البَرَد: فأمَّا البَرَد فنوعٌ واحدٌ وهو رطوبةٌ في **باطن** الجفن تشبه البَرَد تعمل النار فيها فتحجِّرها كفعل النار في الطين حتى يصير محرّقاً أبيض متحجراً وهي كتدوير البَرَدَة التي تتحجَّر في الهواء».

– **عليّ بن العبَّاس المجوسيّ**: الملكي: (المخطوط: ١/ ٣٤٢، التحقيق: ص ٢٧١):

«فأمَّا العِلَل العارضة في الأجفان خاصَّة دون سائر البدن فهي.. والبَرَد..

البَرَد: فأمّا البَرَد فهو رطوبةٌ تجمد في **باطن** الجفن ، بيضاء ، شبيهة بالبَرَد ، وحدوثها من فضلةٍ باردة بلغمية»

– **عمَّار بن عليّ الموصليّ**: المنتخب: (ص ٣٢):

«البَرَد: وأمَّا المرض المُسمَّى البرد فإنَّه يكون من رطوبةٍ غليظةٍ تنصبّ إلى الجفن فتجمد في **باطنه** وتتحجَّر ، فتصير شبيهةً بالبَرَد المستدير».

– **عليّ بن عيسى**: تذكِرة الكَحَّالين: (ص ٨٥ – ٨٦): «في البَرَد وعلاجه:

أمَّا البَرَد فنوع واحد.

وأمَّا سببه: فاجتماع رطوباتٍ غليظةٍ تجمد في الجفن ، وأكثر ما يتولَّد في **ظاهر الجفن**.

وأمَّا علامته: فهو ورمٌ صلبٌ شبيه بالبَرَد.

فإذا كان المرض في **باطن** الجفن فينبغي أنْ يُقْلَبَ الجفنُ... ».

– **الزهراوي**: التصريف: (ص ٤٠٣):

«البَرَد: هو رطوبةٌ غليظةٌ تجمد في أحد الجفنين. وهو نوعٌ يحدث من التخم والأكل عند النوم.

علامته: بروزه للعين».

– **الزهراوي**: التصريف/ المقالة الثلاثون: (ص ٢١٩): «في علاج البَرَد العارض في أجفان العين:

شيءٌ يشبه البَرَد في شدته وصَلابته ولذلك سُمِّي بالبَرَد. وهو اجتماع رطوبةٍ غليظةٍ في الجفن الأعلى والجفن الأسفل».

- **ابن سينا**: القانون: (٢/ ٢٢٥) ، (طبعة بولاق: ص ١٣٣): (أمراض العين وعلاجاتها من القانون: تحقيق: الوفائي/ قلعه جي: ص ١١٩): «فصل في البَرَدَةِ:

هي رطوبةٌ تغلظ وتتحجّر في **باطن** الجفن ، وتكون إلى البَيَاض تشبه البَرَد».

* * *

- **البَرَدَة في المعجمات الطِّبِّيَّة**:

لم نجد لها تعريفاً في ما وصل إلى عصرنا من مخطوطات القمري أو الخوارزمي أو ابن هندو.

- **السجزي**: حقائق أسرار الطّبّ: (مخطوط تونس: **٣٣**، ومخطوط برلين: **٢٠**، والتحقيق: ص ١٣٢): «هي رطوبةٌ تغلظ وتتحجَّر في **باطن** الجفن مائلةٌ إلى البياض».

- **القوصوني**: قاموس الأطباء/ المخطوط: (١ / ١٢٥): «البَرَد.. بالتحريك حبُّ الغَمام..

والبَرَدَة أيضاً من أمراض العين. وهي: رطوبةٌ تغلظ وتتحجَّر في **باطن** الجفن وتكون إلى البَياض ، شبيهةٌ بالبَرَد[٢١]».

- **التهانوي**: الكشَّاف: (١/ ١٥٦): «البَرَدَة: بالفتحتين رطوبة تغلظ وتتحجر في **باطن** الجفن، يكون مائلاً إلى البياض يشبه البَرَدَ[٢٢] في الشكل والصلابة ولذا سميت بها».

---

(٢١) كتبها الناسخ: (شبيهة بالبردة) والصحيح: بالبرد.

(٢٢) خطأ في التحقيق ، كتب المحقق (البَرَدَة).

التحجُّر

التَّحَجُّر كما وصفَهُ المؤلِّفون العرب يشير إلى إحدى حالتين:

١ – البَرَدة التي مَرَّ عليها زمنٌ طويلٌ، فقسا قِوامها، وصار حجمها أكبر من حجم البَرَدة الطَّبيعي، أو أصغر. وهذا النَّوع من التَّحَجُّر يتظاهر على الجفن العلوي كما على الجفن السفلي. ويبدو ظاهراً للعيان، كما يبدو بشكلٍ أوضح حينما يقلِبُ الطبيبُ الجفنَ.

٢ – حالة (احتشاء غدد ميبوميوس)[٢٣] التي نعرِفُها اليوم ونعطيها هذا الاسمَ الطَّويلَ، وهي لا تُرَى إلّا إذا قلبنا الجفنَ، وقد أشار عمَّار إلى وصفها باقتضاب[٢٤].

---

(٢٣) Mybomious gland Lithiasis. فتوح وزملاؤه، كلية الطِّب – جامعة دمشق: (أمراض العين: ص ١٧)، عام (٢٠٠٠). وكان مايرهوف قد استعمل كلمة Lithiasis حينما ترجم مقالات حنين.

يُنظر: مايرهوف: الترجمة: (ص ٦٠).

وفي (المعجم الطِّبيّ الموحَّد) وضع المؤلِّفون مقابل كلمة Concretion الإنكليزية كلمة (التحصّي)،

(الطبعة ٣ ص ١٨٥) . أي إنَّ الآفة تصبح في قوامها كالحصاة، ولم يستعملوا الاصطلاح العربي القديم (التَّحجُّر)، اعتماداً على أنَّ الآفة تصبح كالحجر.

– ينظر هيرشبرغ (ترجمة القانون: ص ١١٤، الهامش ١، الباب ٢٢) سمّاها هيرشبرغ Concretionen.

وكذلك هيرشبرغ: ترجمة التذكرة: (ص ٦٨، الهامش ٢، الباب السادس).

(٢٤) عمار: (في مواضع كثيرة من الجفن). هذا في تحقيق: وفائي/ قلعه جي، لكنها عند هيرشبرغ أصحّ.

هيرشبرغ في الترجمة كتب: (.. من [باطن] الجفن). نقلاً عن المخطوطة التي استعملها. der Innenseite، الترجمة: (ص ٤٧). فمخطوطة هيرشبرغ أَدقّ، وواضح أنَّ كلمة [باطن] سقطت من المخطوطات التي استعملها وفائي وقلعه جي.

حينما ترجم (هيرشبرغ) (قانون) ابن سينا، عام (١٩٠٢) انتبه إلى النَّوع الأوَّل من (التَحَجُّر)، وهو الذي يطرأ على (البَرَدة). والذي وصفه ابن سينا: «البَرَدَة: هي رطوبةٌ تغلظ وتتحجَّر في باطن الجفن»[٢٥]، وقال إنَّ (جالينوس) قد وصف هذا التَّحجُّر الذي يطرأ على البَرَدة[٢٦].

وانتبه (هيرشبرغ) أيضاً إلى النَّوع الثاني من (التَّحجُّر) وكتب عنه في هوامش ترجمته[٢٧].

وأعاد (هيرشبرغ) تعليقاته حينما ترجم (تذكرة) علي بن عيسى[٢٨].

أفرد المؤلِّفون فصلاً خاصَّاً لهذا المرض في معظم الكتب، وقد عَرَّفه من الأساتذة المؤسِّسين: (حنينُ) في (العشر مقالات)، والرازي في (المُشَجَّرة)، والكشكري وعليّ بن العبَّاس (وقد نقل عن حنين)، وعليّ بن عيسى، والزَّهراوي، وابن سينا... ثُمَّ عرَّفه معظم المتأخرين.

ومن أصحاب المعاجم الطِّبِّيَّة عرَّفه السِّجزي، والهروي في (بحر الجواهر)، وعن الهروي نقل التهانوي.

* * *

التَّحجُّر لفظةٌ عامَّةٌ في اللُّغة جُعِلت اصطلاحاً طِبيَّاً، أي إنَّها أَخَذَت دلالةً جديدةً، وهذه الدلالة (تندرج تحت الدلالة اللُّغوية العامَّة[٢٩]،

(٢٥) قال ابن سينا عن البَرَدَة: «رطوبةٌ تغلظ **وتتحجَّر** في باطن الجفن». طبعة بولاق: (ص ١٣٣).
يُنظر: هيرشبرغ: ترجمة القانون: (ص ١٠٩، الهامش: ١، من هوامش الباب (١٤)).

(٢٦) هيرشبرغ في الموضع نفسه: (ص ١٠٩).
وأحالَ إلى كتابه (تاريخ طِبِّ العيون في العصور القديمة): (ص ٢٧٠).

(٢٧) هيرشبرغ: ترجمة القانون: (ص ١١٤، الهامش: ١، للباب: ٢٢) ونبَّه إلى أنَّ جالينوس وآإتيوس وصفا هذه الحالة.

(٢٨) هيرشبرغ: (ترجمة التَّذكِرة): (ص ٦٨، الهامش: ١، للباب (٦)).

(٢٩) الدبيان: (٢/ ٣٦٨).

فالتَّحجُّر «هو في اللُّغة تصلّب الشَّيء وصيرورته شديداً كالحجر».

والاصطلاحات الطِّبيَّة التي جاءت على وزن (تَفَعُّل) كثيرةٌ منها عند حنين بن إسحاق:

التَّقَرُّح، والتَّوَرُّم، والتَّشَنُّج، والتَّأَكُّل[٣٠]... – على سبيل المثال –.

ومع شيوع اصطلاح (التَّحَجُّر) في كُلِّ المؤلَّفات العربيَّة بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلاديّين فإنَّ الزَّملاء يستعملون اليوم اصطلاح (التَّحصّي)[٣١].

لعَلَّ أوَّلَ من وصف هذا المرض – فيما بقيَ من التراث الطِّبيِّ العربيّ – هو حنين بن إسحاق. ذكر الأعراضَ السَّريريَّة للتَّحجُّر ذِكراً وافيًا، إلى درجة أن الرازي اختار في كتابه (المُشجَّرة) عبارات حنين ونَقَلَها. وكذلك فعل عليّ بن عيسى، إلَّا أنَّ صاحب التَّذكرة بخبرته العملية الواسعة، وبتميُّزه في حقل التأليف المدرسي كتب الوصفَ بطريقة أشمل وأبلغ.

كان عمَّار – فيما نعرف – أوَّل من وصف **انتشارَ** التَّحجُّر على الوجه الباطن للجفن، فالمؤكد أنَّ عمَّاراً قلب الجفنَ ورأى ما نسمّيه اليوم (احتشاء غدد ميبوميوس). وعن عمَّار نقل صاحب (البصر والبصيرة، أو الباصر والبصيرة) أو (إصلاح الباصر والبصيرة). استعمل عمَّار كلمة (منفرش)، على حين استعمل خليفة كلمة (متفرّق)، أمَّا يحيى بن أبي الرَّجاء «صلاح الدِّين» فقد اختار كلمة (متشتت).

---

(٣٠) أحصى الدبيان منها عشرة اصطلاحات من أسماء الأمراض عند حنين.
يُنظر: الدبيان: (١/ ٢٣١).

(٣١) المعجم الطِّبِّيّ الموحَّد: (ط ٤ – ٢٠٠٩) (ص ١١٦٨).
وقد أهمل هذا المعجم الاصطلاح القديم (احتشاء غدد ميبوميوس) الذي كان مستعملاً في جامعة دمشق في أواسط القرن العشرين.

وقد أشار كثيرون إلى العلاقة بين البَرَدة والتَّحجُّر[٣٢]:

- (الكشكري) ومادَّة التَّحجُّر مثل مادَّة البَرَدة..

- (الزَّهراويّ) فهما من جنسٍ واحدٍ..

* * *

- تعريف المرض:

- **حنين بن إسحاق: المسألة: (١٤٠، ص ٥٦)**: «التَّحجُّر في الجفن مماذا يكون، وما علامته؟

أمَّا كونه: فإنَّه من فَضْلَةٍ سوداويةٍ تنصبُّ إلى الجفن فتجْمُد فيه وتتحجَّر.

وعلامتها: أنَّها تشبه الغُدَد الصغار الصُّلبة».

- **حنين بن إسحاق: العشر مقالات**: (ص ١٣١ - ١٣٢): «وأمَّا التَّحجُّر فإنُّه فَضْلَة[٣٣] تتحجَّر في الجفن»

- **الرازي: المُشجَّرة/ المخطوط** : «ما سبب التَّحجُّر، وما علامته؟

أمَّا سببه: فَفَضْلَةٌ تنصبُّ إلى الجفن سوداويةٌ، فتجْمُدُ وتَتَحَجُّر وتَتْخُن.

وأمَّا علامته: فيشبه الغُدَد الصِّغار الصُّلبة».

- **عمّار بن عليّ الموصليّ: المُنتخب**: (ص ٣٣، مخطوط إستانبول: و٤٥٥ وجه): «وأمَّا التَّحجُّر: فإنَّه من فَضْلَة خِلطٍ سوداويٍ ينصبُّ إلى أعلى الجفن فينعقد فيه ويصير شبيهاً بالعُقَد الصِّغار في مواضعَ كثيرةٍ من الجفن، وربَّما كان في موضعٍ واحدٍ.

والفرق بينه وبين البَرَدة: أنَّ البَرَدة تكون مستديرةً صُلبةً، والتَّحجُّر

(٣٢) وكذلك: ابن هبة الله، ويحيى بن أبي الرجاء «صلاح الدين».

(٣٣) ترجم مايرهوف: (ص ٦٠): (فضلة = superfluity)، (تتحجّر = petrifies).

يكون منفرشاً[٣٤] رِخواً[٣٥]».

– **علي بن عيسى: التَّذكرة:** (ص ٨٧ – ٨٨): «في التَّحجُّر وعلاجه:

أمَّا التَّحجُّر: فنوعٌ واحدٌ. ويعرِض من فَضْلَةٍ غليظةٍ[٣٦] سوداويةٍ تنصبُّ إلى الجفن فتجْمُد فيه وتتحجَّر.

وعلامته: أنَّه ورمٌ صغيرٌ شبيهٌ بالغُدَد الصِّغار صُلبٌ.

والسَّبب في صَلابته رَخاوَة الجلد وسَخافَته لأنَّه يتحلَّل لَطِيفُ المادَّة ويبقى غليظها فيَصْلُب، مثل ما يعرِضُ في العنق وتحت الإبط والأُرْبيَّتين[٣٧] والخنازير والأورام الصُّلبة. ويسمِّي هذا الورمَ قومٌ **عَدَسَةً**.

ويعرِضُ ذلك من سببين: إمِّا من كَثْرة الأطعمة الغليظة، وإمَّا من امتناع تحلُّل البخار».

– **الزهراوي: التصريف:** (ص ٤٠٣): «التَّحجُّر: هو نوعٌ واحدٌ، وهو من جنس البَرَد، إلَّا أنَّه أعظم منه جسماً ويحدث من التُّخَم.

وعلامته: بروزه.

ولا وجع منه».

– **ابن سينا: القانون:** (٢/ ٢٢٧، طبعة بولاق: ص ١٣٥، تحقيق: وفائي/ قلعه جي: ص ١٢٣): «التَّحجُّر: ورمٌ صغيرٌ يَدمى ويتحجَّر، وقد يُخَلِّصُ منه عملُ اليد، ثمَّ استعمال أدوية القُروح للأجفان».

* * *

(٣٤) القاموس المحيط: (٢/ ٢٨٢): «فَرَشَ فَرْشاً وفِراشاً: بَسَطَهُ».

(٣٥) هيرشبرغ: ترجمة المنتخب: (ص ٤٧): porös.

(٣٦) هيرشبرغ: ترجمة التَّذكِرة: (ص ٦٨): dicke Absonderung.

– كيسي وود: (ص ٩٠): thick secretion.

(٣٧) القاموس المحيط: (١/ ٣٦): «الأُرْبيَّةُ بالضمِّ أصْلُ الفَخِذِ».

- التَّحجُّر في المعجمات الطِّبِّيَّة:

ويلفت النظر هنا أنَّ اصحاب المعجمات الطبية الباكرة (القرن العاشر والقرن الحادي عشر) لم يعرّفوا هذا الاصطلاح، فأقدمُ تعريفٍ له نجده عند السجزي:

- **مسعود بن محمّد السجزي : حقائق أسرار الطّبّ**: (المخطوط، تونس ٣٣ و - برلين ٢٠ ظ، المطبوع: ص ١٣٢): «التَّحجُّر: ورمٌ صغيرٌ يزمن ويتحجَّر في الأجفان».

- **الهروي: بحر الجواهر**: (١/ ٦٥): «التَّحجُّر: هو ورمٌ صغيرٌ يتجمَّد ويتحجَّر في العين».

- **التهانوي: الكَشَّاف**: (١/ ٣٩٧): «التَّحجُّر: هو ورمٌ صغيرٌ يتجمَّد ويتحجَّر في العين. كذا في بحر الجواهر».

نُرَجِّحُ أنَّ السجزي نقل عبارته عن ابن سينا.

وهذا يطرح سؤالاً: ماذا كتب ابن سينا؟ هل كتب (يدمى)؟ أم كتب (يزمن)؟

أمَّا الهروي فأخذ اصطلاحَيْ (يتجمد، يتحجَّر) من (مسائل) حنين ومن (تذكرة) عليّ بن عيسى.

* * *

الشَعِيرة

يصيبُ هذا المرضُ حافات الأجفان، وقد صنَّفه الإغريق - ومِن بَعْدِهم العربُ - في زمرةِ (أمراض حافَّةِ الجفنِ)[٣٨].

(٣٨) - صنَّف المؤلِّفون العرب أمراض الجفنِ في عددٍ من الزمر. فعلى سبيل المثال يجعلها حنين بن إسحاق في: ١- زمرة تصيب ظاهر الجفن. ٢- وأخرى تصيب باطن الجفن. ٣ - وثالثة تصيب حافة الجفن.... =

وهو التهابٌ حادٌّ في إحدى غُدد الجفن أو في قناة هذه الغُدَّة - بتعبير أطبَّاء اليوم -.

وقال الأطبَّاء العرب عن هذا المرض إنَّه (وَرَمٌ). والورم في اصطلاح القرن التاسع الميلاديّ هو (الالتهاب الحادّ) باصطلاح اليوم، ويكون أحياناً بمعنى (الالتهاب) عموماً.

أخذ العربُ (الوصفَ السريريَّ) لهذا المرض عن الإغريق، وكذلك أخذوا عنهم اسمه الاصطلاحيّ (قريثى)[٣٩]، وفهموا أنَّ هذا الاصطلاح يعني (حبَّة الشَّعير).

وكما أخذ العربُ وصفَ هذا المرض واسمَه عن الإغريق فإنَّهم استوحوا من هذا الاسم الإغريقي للمرض اسماً عربيًّا يحمل المعنى نفسه الذي يحمله الاسم الإغريقيّ ليكونَ اصطلاحاً ولأنَّ الاصطلاح الإغريقيَّ (قريثى)[٤٠] يعني حبَّة الشَّعير فقد قال العرب: (الشَّعِيرة).

و(للشَّعِيرة) في اللُّغة العربيَّة أكثر من معنىً[٤١]، أحدُ هذه المعاني هو

= يُنظر: مقالات حنين: (ص١٣١): «في **طرف الجفن**».
وعنه ينقل الرازي في (المُشجَّرة): «**أطراف الجفن**».
وكذلك عليّ بن العبَّاس: «في **طرف الجفن**».

(٣٩) حنين: المقالات: (ص ١٣٣): «... شبيهاً **بالشَّعيرة**، ولذلك يُسمَّى (**قريثى**)».

(٤٠) كتبها مايرهوف مرة(قريثى) ومرة (قريثيا).
ينظر: ترجمة مايرهوف لمقالات حنين (ص٦١): «krithê».
مقالات حنين: (ص١٣٣): «.. مستطيلاً، شبيهاً بالشَّعيرة، ولذلك يُسمَّى قريثى».
مسائل حنين في العين: (١٤٧، ص ٥٧): «.. شبيهاً بالورم المستطيل، ولذلك يسمى قريثيا».

(٤١) يُنظر: - كتاب العين للخليل بن أحمد: (١/ ٢٥١-٢٥٢).
- مقاييس اللُّغة لابن فارس: (٣/ ١٩٣).
- القاموس المحيط للفيروزآبادي: (٢/ ٦٠).

(حبَّة الشَّعير)، لكنَّ كلمة (الشَّعِيرة) في اللُّغة العربيَّة لم تكن تدلُّ على اسم مرضٍ، إلى أنْ جاء عصر الترجمة في القرن الثامن الميلاديّ حيث أعطى التراجمة لكلمة (الشَّعِيرة) دلالةً جديدةً[٤٢] فصارت تعني أيضاً اسماً لورمٍ يشبه في شكله حبَّة الشَّعير ويتظاهر على طرف الجفن، أيّ على حافته.

يعود الفضل إلى الإغريق في اختيار اسم هذا المرض وسبب الاختيار هو المشابهة ووجه الشبه هو **الاستطالة**. ولذلك أصرَّ العرب حينما عرَّفوا هذا المرض على الإشارة إلى شكله المستطيل.

ويبدو لنا أنَّ السُّريان - قبل الإسلام - قد فعلوا الشَّيء نفسه، ذلك أنَّ الترجمة العربيَّة للكُنَّاش المنسوب إلى (الخوز) تذكرُ اصطلاحَ (الشَّعِيرة)، فقد حفظ الرازي في (الحاوي) اقتباساً (الخوز)[٤٣] وفيه وردت كلمة (الشَّعِيرة).

ورد اصطلاح (الشَّعِيرة) في الترجمات القديمة عن الإغريقيَّة كما ورد في مؤلَّفات القرن التاسع:

---

(٤٢) فالكلمة العربية المعروفة في اللغة منذ أقدم عصورها صار لها دلالة جديدة في حقل الطب وهذا ما يسميه أهل الاختصاص: الانتقال المجازي للكلمة، وسببه: المشابهة بين شكل الورم وشكل حبة الشعير.

ينظر: الرمضان: (ص٢٢٣-٢٢٤).

الدبيان: (٢/ ٣٧٣-٤١١).

(٤٣) الحاوي: (٢/ ٢٥٠).

ومن المعروف أن الرازي يذكر كلمة (الخوز) أو (قالت الخوز) حينما يقتبس عن كناش تعليمي سرياني كان مستعملاً في جنديسابور منذ زمن طويل، وقد تُرجِم هذا الكتاب التعليمي إلى العربية في القرن الثامن أو التاسع.

وتبلغ اقتباسات الرازي في (الحاوي) عن (الخوز) نحو مئة اقتباس، ثلاثة منها في الجزء الثاني المتعلق بأمراض العين.

ويُعْتَقَدُ أن لهذا الكُنَّاش قيمةً معجميَّة.

ينظر أولمان: (ص ١٠١-٢٣٦).

فمن **الترجمات** العربيَّة لكتب الإغريق ترجماتُ (روفس) Rufus[٤٤] و(جالينوس) Galenos[٤٥] و(أريباسيوس) Oribasius[٤٦].

ومن **المؤلَّفات** ما كتبه ابن ماسويه وحنين في القرن التاسع، لكنَّ أقدم ذكرٍ لاصطلاح (الشَّعِيرة) جاء في كُنَّاش عيسى بن حكم (مسيح) الدِّمشقيّ[٤٧] الذي نرجّح أنَّه ظهرَ في السَّنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلاديّ[٤٨].

---

(٤٤) ورد الاصطلاح في ترجمة كتاب روفس (إلى العوام). ومترجم الكتاب إلى العربية غير معروف. الاقتباس عن (الحاوي: ٢/ ٢٥٩).

عاش روفوس Rufus بين القرنين الأوّل والثاني الميلادي.

حول الكتاب: ينظر: سزكين: (٣/ ٦٤).

(٤٥) على سبيل المثال كتاب (الميامر) الذي هو جزءٌ من كتاب جالينوس (في الأدوية). ترجم حنين كتاب جالينوس من الإغريقية إلى السريانية ليوحنا بن ماسويه. وترجمه حُبيشُ إلى العربية من ترجمة حنين السُّريانية لمحمد بن موسى. الاقتباس في الحاوي: (٢/ ١٩٨).

جالينوس Galenus. Galenos.Galen أحد أهمّ علماء النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، وأحد أشهر الأطباء في التاريخ.

حول كتاب جالينوس ينظر سزكين: (٣/ ١١٨-١٢٠ رقم ٦٤). وسزكين ينقل عن رسالة حنين إلى علي بن يحيى المنجم حول: (ما تُرجِمَ من كتب جالينوس..) التي نشرها بيرغشترسر Bergsträsser (رقم ٧٩).

(٤٦) ترجمة كتاب أريباسيوس (الكُنَّاش). يرجّح أن حنين بن إسحاق هو الذي نقل هذا الكتاب إلى العربية.

أُريباسيوس Oribasius. Oreibasios أحد أهمّ علماء النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي.

الاصطلاح في الحاوي: (٢/ ٢٢٢).

حول هذا الكتاب ينظر: سزكين: (٣/ ١٥٢-١٥٣).

(٤٧) ينظر: الفهرست: لابن النديم: (ص٣٥٥)، عيون الأنباء: لابن أبي أصيبعة: (١/ ١٢٥).

(٤٨) لا نعرف سنة وفاة عيسى بن حكم بالضبط لكننا نقدر أنه توفي في خلافة الرشيد أو بعد ذلك (حكم الرشيد بين ٧٨٦ - ٨٠٩ م = ١٧٠ -١٩٣هـ)، فمن المعروف أنه قدّم أحد كتبه للرشيد، ولا بُدَّ أنه كان أيام الرشيد قد تقدم في العمر كثيراً. نقول ذلك لأن جده =

حينما ترجمَ (هيرشبرغ) القسمَ المتعلِّقَ بالعين من كتابِ ابن سينا (القانون) (١٩٠٢) وكتابَ علي بن عيسى (تذكرة الكحالين) (١٩٠) إلى الألمانية قارن ما كتبه هذان الأستاذان العربيان بما كتبه (آإتيوس)[٤٩] و(بولص)[٥٠] من حيث الوصف السريري لهذا المرض فتبين له أن العرب أخذوا هذا الوصف عن الإغريق ومن المعروف أن الأستاذين الإغريقين نقلا بدورهما عن كتاب (ديموسثينس)[٥١] الضائع.

وفي حدود ما وصل إلينا من التراث الطِّبِّيِّ العربيّ فإنَّنا لا نعرف مؤلِّفاً[٥٢] قبل **عيسى بن حكم** ذكر هذا الاصطلاح.

= لأبيه (أبو الحكم الدمشقي) كان طبيب معاوية بن أبي سفيان قبل أكثر من مئة عام (حكم معاوية بين ٦٦١ - ٦٨٠ م = ٤١ - ٦٠هـ).

(٤٩) آإتيوس الآمدي Aëtios of Amida من أهل القرن السادس الميلادي. ينظر: سزكين: (٣/ ١٦٤).

لم يترجم هذا الكتاب باكراً إلى العربية. ترجمه ابن الخمار في القرن العاشر وآإتيوس يأخذ عن ديموسثينس الوصف السريري لأمراض العين.

ينظر: هيرشبرغ: (هوامش ترجمة (القانون) -ابن سينا) (ص١٠٩، هامش ١).

ينظر: هيرشبرغ: (هوامش ترجمة (التذكرة) -علي بن عيسى) (ص٧٦، هامش ١ - ٢).

(٥٠) بولص Paulos. Paul من أهل القرن السابع الميلادي: ينظر: سزكين: (٣/ ١٦٨).

وقد ترجم حنين كناش بولص إلى العربية، لكن كثيراً من مادة كتاب بولص كانت بين أيدي الأطباء السريان والعرب بترجمات قديمة في القرن الثامن الميلادي وصل بعضها إلى عصر البيروني (ت ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م = ٤٤٠هـ).

ينظر: هيرشبرغ: (هوامش ترجمة (القانون) -ابن سينا) (ص١٠٩، هامش ١).

ينظر: هيرشبرغ: (هوامش ترجمة (التذكرة) -علي بن عيسى) (ص٧٦، هامش ١ - ٢).

(٥١) ديموسثِنس Demosthenes عاش في القرن الأول الميلادي. ويعدُّ كتابه قانوناً لأطبَّاء العين الإغريق، لكنَّ هذا الكتاب ضاع قبل أن يصل إلى العرب ولم يبق منه إلا المقتبسات التي حفظها آإتيوس الآمدي وبولص الأجيني. وهذه المقتبسات سمحت لهيرشبرغ بمقارنة الوصف السريري للأمراض عند الأساتذة الإغريق بما كتبه ابن سينا وعلي بن عيسى.

(٥٢) لأنه لم يصل إلى عصرنا من مؤلفات القرن الثامن - باستثناء عيسى بن حكم - إلا =

– تعريف المرض:

أما أقدم **تعريفٍ** لاصطلاح (الشَّعِيرة) فيعود إلى القرن التاسع الميلاديّ، فقد عرّفه يوحنا بن ماسويه في كتابه (الكُنَّاش الكبير) كما عرّفه حنين بن إسحاق في كتابيه (المقالات..)و(المسائل في العين)، ونحن لا نعرف على وجه الدِّقَّة زمن ظهور هذه الكتب[٥٣] الثلاثة.

يقول **ابن ماسويه**: «الشَّعِيرةُ ورمٌ مستطيلٌ شبيهٌ بالشَّعِيرة يحدث في طرف الجفن، من قبل الدَّمِ».

ويقول **حنين** في المقالة السَّادسة[٥٤]: «وأمَّا الشَّعِيرة فإنَّها ورمٌ يحدث – أكثر ذلك – في طرف الجفن، مستطيلاً شبيهاً بالشَّعِيرة، ولذلك يُسمَّى (قريثى)».

حنين: المسائل في العين[٥٥]: «مسألة: ما علامة الشَّعِيرة الحادثة في طرف الجفن؟

جواب: أن يكون شكلها كشكل الشَّعِيرة، تحدث فيما بين الشعر، أو ناحيةً عنه، وإنما يكون تولدها من فضلة سوداوية تنصب إلى ذلك الموضع فتحتقن فيه وتتحجَّر، ويكون شبيهاً بالورم المستطيل، ولذلك يسمى قريثيا».

إن ما ذكره ابن ماسويه وما ذكره حنين يتطابقان تماماً من حيثُ الوصفُ السَّريريُّ:

– ورمٌ.

= بعض المقتبسات القليلة التي حفظها (الحاوي)، أما أصول هذه المقتبسات فقد ضاعت.

(٥٣) توفي ابن ماسويه عام (٨٥٧ = ٢٣٤هـ).

توفي حنين عام (ت ٨٧٠ م = ٢٥٦هـ).

(٥٤) المقالات: (ص١٣٣).

(٥٥) المسائل في العين: (المسألة: ١٤٧، ص ٥٧).

- مستطيلٌ.
- شبيهٌ بالشَّعِيرة.
- في طَرَفِ الجفن.

وما قاله هذان الأستاذان نقله كُلُّ المؤلِّفين العرب فيما بعد.

لكنَّ الاختلاف بين ابن ماسويه وحنين يتبدّى في أنَّ ابن ماسويه يقول إنَّ الخِلطَ المُسبِّب لهذا المرض هو الدَّم (من قبل الدَّم)، على حين يقول حنين إنَّ هذا الخلط هو المِرَّة السَّوداء (فضلة سوداوية).

بعد حنين ينقل الرازي عن كتابي حنين في رسالته المُسَمَّاة (المُشجَّرة..)[٥٦]. عن **المقالات** ينقل: «أطراف الجفن، شبيهاً بالشَّعيرة»، وعن **المسائل**: «يحدث فيما بين الشَّعْر، أو ناحيةً عنه، «فضلة سوداوية».

أمَّا عليّ بن العبَّاس[٥٧] فينقل نقلاً شبه حرفي عن مقالة حنين: «وأمَّا الشَّعِيرة: فإنَّها ورمٌ يحدث في طرف الجفن مستطيلٌ على شكل الشَّعيرة».

هذه هي أهمُّ الأعمال التي كتبها الأساتذة المؤسِّسون والتي عرّفوا فيها هذا المرض قبل أنْ يظهر المعجمان الطِّبيان المبكران؛ نقصد بهما (التنوير في الاصطلاحات الطِّبِّيَّة) لأبي منصور الحسن بن نوح القمري[٥٨]، والقسم المتعلق بالطب في (مفاتيح العلوم) للخوارزمي[٥٩].

---

(٥٦) المخطوط.

(٥٧) الملكي: (١/ ٣٤٣).

(٥٨) القمري: (ت بعد ٩٩٠ م = ٣٨٠هـ).

(التنوير): هو معجمٌ مختصٌ باصطلاحات الطب منقولٌ عن كناش المؤلف المسمى (غنى ومنى).

(٥٩) الخوارزمي، أبو عبد الله، محمَّد بن أحمد بن يوسف. (توفي في أواخر القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري). وهو غير الخوارزمي الرِّياضي الشَّهير (محمَّد بن موسى). =

– الشَّعِيرة في المعجمات الطِّبِّيَّة:

١ – يعرّفُ **الخوارزمي** (الشَّعِيرة) تعريفاً مختصراً: «الشَّعِيرة في الجفن ورمٌ مستطيلٌ»[٦٠].

٢ – وكذلك **القَمَري**: «الشَّعِيرة: ورمٌ مستطيلٌ في الجفن يشبه الشَّعِيرة»[٦١]. وهو هنا يختصر ما جاء في كتابه (غِنى ومُنى): «الشَّعِيرةُ ورمٌ مستطيلٌ في الجفن يشبه الشَّعيرة يكون من كيفية الدَّم»[٦٢].

ويتضح لنا هنا تأثّر القمري بابن ماسويه الذي يعزو سبب المرض إلى الدَّم، وليس إلى السَّوداء كما جاء عند حنين.

٣– وتعريف **ابن هندو** في (مفتاح الطِّبِّ) مختصر أيضاً: «الشَّعِيرة: ورمٌ مستطيلٌ يخرج على الجفن»[٦٣].

٤ – وكذلك **السِّجزي**: «الشَّعِيرة ورم مستطيل يظهر على حرف الجفن يشبه الشعيرة في الشكل»[٦٤].

٥ – و**الهروي** في (بحر الجواهر)[٦٥] يكتب: «ورمٌ مستطيلٌ يظهر على طرف الجفن يشبه الشَّعِيرة في شكله».

= (مفاتيح العلوم):هو معجمٌ يشمل اصطلاحات العلوم كافة، والطب من بينها.

(٦٠) مفاتيح العلوم: (تحقيق: الأبياري، ص ١٨٤ ، «ص ١٥٣»).

(٦١) التنوير: نشأت الحمارنة، مجلة مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق (عام ١٩٨٥ م): (م/ ٦٠ – ٢/ ٥٠٦). (تحقيق: الكرمي: ص ٥٥)، (تحقيق: تقي الدين:ص ٢١).

(٦٢) غِنى ومُنى ، المخطوط.

(٦٣) مفتاح الطِّبّ: بتحقيق سحبان خليفات: (ص ٧٠٩).

(٦٤) حقائق أسرار الطِّبّ: (تحقيق ذاكري: ص ١٣٢ ، المخطوط، نسخة تونس: و٣٣ و، نسخة برلين: و٢٠ و، ظ).

(٦٥) بحر الجواهر/ المخطوط: (ص ١٧٧).

٦- وهذا ما نقله **التهانوي** في (كشَّاف اصطلاحات الفنون)[٦٦].

٧- و**القُوصوني**[٦٧] صاحبُ أكبر المعجمات الطِّبِّيَّة ينقل حرفيًّا عن السِّجزي.

هؤلاء المؤلِّفون السبعة الذين عرَّف كُلُّ واحدٍ منهم هذا المرض في معجمه أخذوا باختصارٍ من المادَّة التي كتبها ابن ماسويه وحنين.

* * *

وقد جاء تعريف الشَّعِيرة في نهاية عصر تأسيس طِبِّ العيون العربيّ على الشكل التالي:

ابن سينا[٦٨]: «الشَّعِيرة: ورمٌ مستطيلٌ يظهر على حرف الجفن، يشبه الشَّعير في شكله ومادَّته في الأكثر دم غالب».

علي بن عيسى[٦٩]: «أمَّا الشَّعِيرة فنوعٌ واحدٌ. وعلامتها أنَّها ورمٌ مستطيلٌ شبيهٌ بالشَّعيرة يحدث في منبت الشَّعر من الجفن أو ناحية عنه قليلاً.

وأمَّا سببه: فأنَّه يتولّد من فضلةٍ رديئةٍ غليظةٍ سوداويةٍ تنصب إلى ذلك الموضع فتحتقن فيه وتتحجر».

للبحث صلة

* * *

(٦٦) الكشّاف: (٢/ ٤٨٣).

(٦٧) قاموس الأطبَّاء/ المخطوط: (١/ ١٧٨).

(٦٨) القانون: (٢/ ٢٢٦).

(٦٩) التذكِرة: (ص ٩٦).

المحاضرات والمدارسات(*)

(*) **المدارسة**: هي المقابل العربي لكلمة (سيمِنار seminar) الأجنبية، وتعني بحثاً يقدمه أحد أعضاء المجمع، فيتباحثون به في مجلس المجمع.

العلاقة التبادلية بين علوم الطبيعة واللغة

هاني خليل رزق(*)

"Quomodo ad nos prima boni honestique notitia pervenerit. Hoc nos natura docere non potuit: semina nobis scientiae dedit ,scientia non dedit".(L.).

Lucius Annaeus Seneca (ca- 4B.C. - 65 A.D.).
Letters to Lucilius 120.

«ليس بمقدور الطبيعة أن تعلِّمنا كيف وصل إلينا المفهوم الأولي لكل من الاستقامة والنزاهة؛ لقد وهبتنا الطبيعةُ بذور العلم، وليس العلمَ نفسَه».

(لوكيوس أنَّايوس سِنيكا)* (٤ قبل الميلاد تقريباً – ٦٥). رسائل إلى (لوكيليوس) ١٢٠.

(*) ألقى الدكتور هاني رزق هذه المدارسة في مجلس المجمع بتاريخ ١٥/ ١/ ٢٠١٥م

(*) **سِنيكا**: أحد كبار فلاسفة المدرسة الرواقية، ومن أشهر خطباء (رُومة)، ومن أبرز أدبائها المسرحيين. وُلد في مدينة قرطبة الإسبانية، ودرس وتثقف في (رومة). اشتهر بلغته اللاتينية البالغة الأناقة والجمال. كتب الرسائل (رسائل أخلاقية إلى (لوكيليوس)، وعددها ١٢٤ رسالة) خلال الأعوام الثمانية (٤١-٤٩)، التي أمضاها في المنفى في (جزيرة كورسيكا) بتهمة لم تثبت تاريخيًّا، تنطوي على اتصاله بـ (لوليا لافيلا) Luilia Lavilla، شقيقة الإمبراطور (نيرو (نيرون) كلوديوس سيزار (قيصر) دروسوس جيرمانيكوس) Nero Claudius Caesar Drusus Germanicus (37-68) . وفي العام ٦٥ قضى منتحراً، إمَّا تنفيذاً لأوامر الإمبراطور (نيرون) Nero، وإمَّا تحسبًا من بطشه بسبب اتهامه بالاشتراك في مؤامرة اغتيال (نيرون). ولقد انتحر (سِنيكا) بقطع أوعية معصم يده. وانتحرت إلى جانبه زوجته (بولينا) Paulina بالطريقة ذاتها بمبادرة بطولية =

أولاً- تعريف علوم الطبيعة:

يمكن تعريف العلم science (من اللاتينية *scientia*، من *scient*، *sciens* امتلاك المعرفة، من *scire* يعرف) تجريديًّا بأنَّه أتون وقوده الجهل. كما يمكن تعريفه موضوعيًّا بأنَّه المعرفة، أو نظام المعرفة، أو نظام معرفة قوانين الطبيعة. ولكن تعريف علوم الطبيعة الأكثر أصالة ***(الذي نجد بذوره في الفلسفة الرواقية Stoicism)*** هو التعريف الواقعي: ***كتاب الطبيعة المكتوب بلغة الرياضيات***. وهذا ما أكدته المدرسة الإيونية بقيادة (تالِس) Thales من ميلِتوس Miletus (نحو ٦٢٥-٥٤٧ قبل الميلاد)، وبعد ذلك مدرسة (أثينة) بقيادة (سقراط) Socrates (نحو ٤٧٠-٣٩٩ قبل الميلاد)، ثم (أفلاطون) Plato (نحو 428-384 أو 387 قبل الميلاد)، ثم المعلم Le maître (أرسطو) Aristotle (384-322). كان أتباع المدرستين مفتونين بثلاث ظواهر من كتاب الطبيعة: جمال التناظرات، والهندسة الوصفية للطبيعة وللكون، وفيزياء الأوتار الموسيقية. وتتميز هذه الظواهر الثلاث بخاصتين اثنتين: البساطة والأناقة. ثم تَوَسَّعَ في هذا التعريف الرياضيُّ والفيلسوفُ الألماني البارون (غوتفريد فيلهلم لايبنتز) Baron،Gottfried Wilhelem Leibniz (1716-1646) في حديثه عن خلق الكون.

ولكن لماذا لغة الرياضيات؟ **لأن الرياضيات هي محراب اليقين؛ أي تتميز بثلاث خاصيَّات: ١- التعبير الأكثر دقة عن واقع سيرورة ما في زمن معين. ٢- الإيجاز، ومن ثم عدم الإفاضة** redundancy **(الحشو)؛ فتعمل عندئذ عكس التَعَدُّمية** entropy **؛ مقتصدة بذلك الطاقة الحرة (الطاقة المفيدة المنتجة للعمل).**

= إخلاصاً له. كان صديقه (لوكيليوس) يشغل منصب مدير المال لمدينة (صِقلية). ويقدم (سِنيكا) في رسائله الأخلاقية لِـ (لوكيليوس) النصائح، التي تجعل منه رواقيًّا ورعاً.

٣-كونها غير مطلقة في التفسير، الذي تقترحه لظاهرة ما؛ فتعتمد مبدأ: ما من تفسير إلا وبعده تفسير أعمق. فكتاب الطبيعة مُشرَّعٌ في متصلة المكان - الزمان، ويفهمه العقل البشري على مراحل، وفقاً للحقبة الزمنية، ويستحيل أن يفهمه كلَّه مرة واحدة. ولو كان بإمكان العقل البشري أن يفهم كتاب الطبيعة كله دفعة واحدة في حقبة زمنية معينة، لكانت الحضارة اليونانية، والحضارات القديمة الأخرى، قد أتت على الحضارات البشرية السابقة واللاحقة منذ أكثر من ألفي عام. وهذا ما اعتقدته خطأً الفلسفة اللينينية عندما أكدت في مطلع القرن العشرين (بجدلية ماركسية مادية) أَنَّه سيأتي يوم يستطيع فيه دماغ الفرد البشري الواحد أن يمتلك قدرات عقلية تمكّنه من أن يكون في آن واحد عالماً وطبيباً ومهندساً وشاعراً وموسيقيًّا، وهلمَّ جرًّا. ويشهد على حقيقة الفهم التدريجي والمستمر لكتاب الطبيعة تطورُ علوم الطبيعة. **إِنَّ كتاب الطبيعة لا يكشف مكنوناته للعقل البشري دفعة واحدة، لأَنَّ العقل غير مؤهل لفهمها مرة واحدة.** ولقد عَبَّر عن ذلك (لايبنتز) بقوله: (Natura in operationibus suis non facit saltus) (L.)؛ أي: «لا تتقدم الطبيعة في عملياتها على شكل قفزات». ويشهد على ذلك أيضاً تاريخ تطور الكون. كما يؤكد ذلك تاريخ تطور الحياة بجميع سيروراتها الكيميائية الحيوية.

ثانياً- تعريف اللغة:

لقد أصبح معلوماً أَنَّ اللغة language (من الفرنسية langage، من lange، langue، tongue لسان، من اللاتينية lingua) ظاهرة انبثاقية بيولوجية نموذجية. فهي تشتمل على طبقتين: ١- طبقة ذهنية، تتشارك فيها مراكز الدماغ كافة، الحسية منها والحركية؛ وكذلك العقل. إِنَّها الطبقة، التي تحدث فيها الصياغة الذهنية للأفكار. وتتميز هذه الطبقة بأَنَّها غير قابلة

للقياس، وليس لها متقايسات parameters يمكن تعيينها. ٢- طبقة تشريحية فيزيولوجية، تشتمل على الرئتين والمجاري التنفسية، والشكل الفراغي الثلاثي الأبعاد للحَنجرة، والثنيتين الصوتيتين، واللسان، والشفتين، وبعض ملامح الوجه أحياناً، وكذلك الحالة الانفعالية.

ثالثاً- الدورية التعاقبية لعلوم الطبيعة واللغة:

اللغة هي أداة التخاطب (لفظاً وكتابة)، وانتقال الأفكار؛ ومن ثم فهي الوسيلة، التي يتعاضد بوساطتها بنو البشر (خيراً أو شرًّا)؛ في بناء الحضارة البشرية، كي تُسَخَّر (نظريًّا على الأقل) لتعزيز الرفاهية البشرية وسعادتها، وللقضاء على بؤس هذه البشرية وشقائها! وتتكامل هذه الوظيفة للغة مع مقدرتها على التعبير عمَّا تفهمه علوم الطبيعة من كتاب الطبيعة؛ فتعبِّر عنه تعبيراً رياضياتيًّا، يتميز (كما سبق أن أسلفنا) بالدقة والإيجاز (عدم الإفاضة) والمرونة الاشتقاقية، كي تستوعب ما لـَّما يُفهمُ بَعدُ من كتاب الطبيعة. فَتَتَطوَّرُ اللغةُ باستمرار مع تطور وتقدم فهم العقل البشري لكتاب الطبيعة. وهنالك وظيفة أساسية أخرى للغة، تبدو وكأنها بديهية وتلقائية وتتمثل هذه الوظيفة العفوية بمخزون المعرفة البشرية، الذي يُدَّون في سجِّل لغوي. فاللغة إذن لها ثلاث وظائف رئيسة: ١- التخاطب (تبادل الأفكار). ٢- التعبير بدقة عما يفهمه العقل من كتاب الطبيعة فهماً تدريجيًّا؛ وهذا الأمر يؤدي بداهة إلى تطورها تطوراً مستمرًّا. ٣- الحفاظ على تراث البشرية المعرفي في سجل مدون لغويًّا. وغني عن البيان أَنَّ عدم تطوير اللغة (بالاشتقاق من مُكوِّناتها، والتنقيب في مكنوناتها، وتحريض كموناتها) سينتهي بها إلى الجمود والتنكس؛ فلا تساير الفضول البشري، الذي يدفع العقل باستمرار إلى فهمٍ أعمق لكتاب الطبيعة على مراحل تتزايد تقدماً وتعقيداً.

وخلاصة القول إنَّ فهم كتاب الطبيعة غايةٌ في حَدِّ ذاته، لأنه يتحدى الفضول البشري تحدياً دائماً، وإنَّ اللغة هي أداة هذا الفهم وسبيله، ووسيلة الحفاظ عليه. فعلوم الطبيعة تفهم، في مرحلة زمنية معينة، صفحات محدودة من كتاب الطبيعة المتتالية الترقيم. وتقوم اللغة بتسجيل هذه المعرفة ونشرها. فلولا هذا التسجيل، ولولا هذا النشر (الذي يؤدي إلى تبادل وتناقل الفكر المعرفي) لما أمكن بناء الحضارة البشرية، وكتابة تاريخها. وبَدَهي أن يمثل هذا السجل في مرحلة زمنية تالية مخزوناً كمونيًّا جديداً، تَبتكرُ بواسطته علوم الطبيعة – مرة جديدة– فهماً أكثر عمقاً، وأبعد مدى لصفحات تالية من هذا الكتاب. وتتكرر هذه الدورة التعاقبية كل يوم تقريباً، متمثلة باكتشاف علمي إبداعي جديد، يستمد كمونَ أصالته من جَمعيةٍ معرفيةٍ أحدث. وهذه هي العلاقة التبادلية السرمدية ذات التعاقب الدوري بين علوم الطبيعة، التي تعمل كغاية متجددة في حَدِّ ذاتها، وبين اللغة، التي تعمل كأداة اختزان للمعارف البشرية، وذات كمون تجددي.

رابعاً. رسالة المجمع:

تتمثل العلاقة التبادلية بين علوم الطبيعة واللغة في مجمعنا برسالة هذا المجمع. إنَّ هذه الرسالة تشتمل على مهمتين أساسيتين: ١– السهر على سلامة اللغة العربية، والحرص على صحة استعمالها كي لا تشوبها الشوائب، باعتبار أنّ المجمع يمثل المرجعية العليا في القطر لهذه اللغة. ٢– العمل على تطوير هذه اللغة كي تواكب فهم العقل البشري لكتاب الطبيعة وفقاً للدورة التعاقبية، التي أتينا للتو على تعريفها. إنَّ هذا الفهم يتعاظم، كما سبق أن ذكرنا، كل يوم تقريباً. إنَّ سيرورة التطوير تأتي، في اعتقادي الشخصي، في المقام الأول. ذلك أن انحراف سيرورة ما أمرٌ شاذ؛

تصحيح اعوجاجه سيحدث حتماً بحكم طبيعة السيرورة نفسها ipso facto. أَمَّا عدم التطوير؛ فيعني بداية انحسار اللغة. وإذا دققنا في أعمال من ذكرهم الدكتور (محمود حافظ) في مقالته الموجزة التأريخ، والموسومة بالعنوان: (**اللغة العربية في خدمة علوم الأحياء**)، التي وزعها علينا الأستاذ الدكتور (مازن المبارك)، أدركنا(*) أَنَّ هؤلاء الباحثين كلهم كانوا يحاولون فهم صفحات قليلة من كتاب الطبيعة، كي يغنوا اللغة العربية بعلوم جديدة. أي لإنتاج معارف علمية يشبعون بها فضولهم، وليس لأي أمر آخر. كانت المعرفة، فيما يتعلق بهم، (وبأي باحث علمي آخر) هي الغاية الأساسية، وكانت اللغة هي الأداة والوسيلة. وهذا ما أكده الدكتور (محمود حافظ) في اختياره عنوان مقالته: (**اللغة العربية في خدمة علوم الأحياء**)، إِنَّ هذه الأعمال الجليلة، التي قاموا بها لم تكن أبداً للبرهان على مقولة إِنَّ اللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم كافة. **إِنَّ هذه المقولة تختزل الجدلَ وتبسطه حتى يغدو مخالفًا للمنطق** reductio ad absurdum. أي يشبه قولك إِنَّ الحصان قادر على العدو، وإنَّ النسر قادر على الطيران، وإن سمك القرش قادر على السباحة. إِنَّ هذه المقدرة هي من ذات طبيعة اللغة العربية. فكيف نروز اللغةَ العربية وقد أتى التنزيل العزيز بلسانها؟ وكيف نختبرها وقد نهلت من علوم اليونان ما نهلت، وأعطت للغرب ما أعطته من علوم، وفي مقدمتها أسلوب البحث العلمي لِـ(الحسن بن الهيثم) (نحو ٩٦٥-١٠٣٩)، أساس نهضة الغرب؟ وكيف نمتحنها وهي لغة أكثر من ثلاث مئة مليون نسمة؟

(*) إضافة إلى ما ورد في مقالة الدكتور (محمود حافظ)؛ فإِنَّ (الجاحظ) (نحو ٧٧٣-٨٦٩) اشتهر في الأوساط الغربية بحديثه عن اشتقاق الحيوانات بعضها من بعض (قبل (لامارك) و(داروين) بأكثر من ألف عام، وكذلك (إخوان الصفا)، و(ابن خلدون)). انظر: Benkiran. R. La Rechrche **417**،(2008) 96 .

وإذا أنعمنا النظر في أعمال مؤسسي هذا المجمع تبين لنا أَنَّهم لم يكتبوا في قواعد اللغة ونحوها وصرفها وعلم بلاغتها، ولم يهدروا وقتهم في النظر بأحكام (إذا)، وبمواقع (حتى)، وهلمَّ جرًّا. بل كانت همومهم منصرفة إلى إيجاد مصطلحات عربية تحل مكان الكلمات والتعابير غير العربية. **كان معظمهم ينظر إلى العلوم كمصادر أساسية لتطوير اللغة العربية. وكانت هذه النظرة عميقة وجدية أكثر بكثير مما يعتقد البعض.** كان سوادهم الأعظم يتوق إلى إتقان اللغات الأجنبية كي يقتبسوا من علومها ما يلائم العربية، ويفيد في تطويرها. وإذا كان بعضهم قد كتب في التراث، أو تعمق في أعمال السلف؛ فإنَّما من أجل تطوير اللغة العربية؛ أي كي يدخلوا في هذا التراث من المصطلحات ما لم يكن قد استُحدث في ذلك الزمن. **وخير شاهد على إيمانهم العميقِ بأهميةِ علوم الطبيعة في إنجاز المهام، التي ارتضوها لأنفسهم، وفي تحقيق ما يصبون إليه من تطوير للغة العربية، اسمُ المؤسسة التي سيعملون بها: (المجمع العلمي العربي).**

إنّ تطوير اللغة يقوم بداهة على سيرورتين اثنتين: فهنالك التنقيب في مكنونات اللغة للوقوف على كلمات موجودة سلفاً، وإنمَّا أخذت تندثر بسبب ندرة استعمالها. وهنالك أيضاً الاشتقاق النظامي، ومثاله: التَعَدُّمية entropy، والحرُورية enthalpy؛ والتجازئية isomerism، واليَدِّية chirality، والتراكبية enantiomerism، واللازمة motif، والطراز paradigm، والمناملة (علميًّا) manipulation، وهلمَّ جرًّا فهي مصطلحات علمية استُحدثت لأول مرة.

إنَّ التحدي الحقيقي الذي يواجه اللغة العربية الآن هو بلوغ الدقة القصوى في التعبير؛ أي التعبير باللغة العربية عمَّا يفهمه العقل من كتاب الطبيعة بلغة الرياضيات، الذي سبق الحديث عنها. فنجد بذلك تعبيراً عربيًّا

علميًّا دقيقاً لكل مصطلح أجنبي حديث. وإذا تركنا جانباً معضلة السوابق واللواحق، التي يستوجب أحياناً التعبير عن مضموناتها بكلمتين اثنتين؛ فإن موضوع الدقة العلمية في اللغة العربية أمر يمكن بلوغه بإيجاد كلمة واحدة أو أكثر، تُعبِّر بدقة كبيرة عن التعبير العلمي المستحدث في اللغات الغربية. **أي الوصول إلى أسلوب كلمة لكلمة**. إنَّ صعوبة الوصول إلى الدقة المنشودة يصادفه كل من يعمل في نقل المصطلحات الغربية الحديثة إلى اللغة العربية. فمثلاً، لا نجد في (المعجم الطبي الموحد) للكلمات التالية (التي نضعها هنا بصيغة **المصدر** infinitive): to bind، وto ligate، وto link، لا نجد لها إلَّا الثلاثي (ربط) ومشتقاته. وإذا نظرنا إلى المصادر: to release، وto edit، وto free؛ فلا نجد في معاجمنا إلاَّ الثلاثي (حَرَّر). وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمصطلحين shape وform (شكل) وهلمَّ جرًّا. وغني عن البيان أَنَّ كل كلمة باللغة الإنكليزية من هذه الكلمات تؤدي معنًى مختلفاً قليلاً أو كثيراً عن الكلمات الأخرى. وهذا ما نقصده بتطوير اللغة العربية كي نصل - بقدر الإمكان- إلى **أسلوب كلمة لكلمة**.

ويمكن إجرائيًّا الوصول إلى الدقة العلمية المتوخاة بوسائل عديدة. فإضافة إلى اللجان العلمية المتخصصة، التي تعمل في المجمع، وسعيها إلى نشر معاجم بمعظم فروع علوم الطبيعة، يمكن لمجلة المجمع أَن تؤدي دوراً مهمًّا في هذا النطاق. إذ يمكن لهيئة تحرير المجلة أن تشجع على نشر **البحوث والدراسات العلمية العامة** في كل فرع من فروع علوم الطبيعة. وأن تشترط على من يرغب في النشر أن يرفق ببحثه قائمة بالمصطلحات العلمية، التي استعملها. هذا من جهة. ومن جهة أخرى يمكن للمجمع أن يعقد ندوات، تُخصص كل ندوة منها لمصطلحات فرع من فروع علوم الطبيعة؛ فتتسع بذلك دائرة المشاركين في وضع المصطلح العلمي الدقيق.

خامساً – تسمية المجمع:

إذا فهمنا رسالة المجمع وفقاً للإطار، الذي رُسم في هذه المقالة، والتي تتمثل أساساً في تطوير اللغة العربية كي تواكب التقدم في فهم كتاب الطبيعة، الذي كُتب بلغة الرياضيات (إضافةً إلى حقيقة أن المجمع يُجَسِّد المرجعية العليا في ضبط استعمال اللغة، والسهر على صحة هذا الاستعمال)؛ إذا فهمنا إذن رسالة المجمع بهذا المنظور؛ فإِنَّ على تسمية المجمع أن تعكس هذا المفهوم.

كلنا يعرف أن تغيير اسم المجمع من الاسم، الذي اختاره له مؤسسوه، إلى الاسم الحالي، أتى ضمن إطار التنسيق، الذي حدث عند قيام الوحدة بين (مصر) و(سورية)، التي قامت في شهر شباط (فبراير) من العام 1958. إِنَّ هذا التغيير لم يحدث لأسباب موضوعية. ومع أَنَّ مؤسسات الدولة كافة، التي جرى تغيير الأسماء فيها (كي تتوحد مع التسمية المصرية)، قد عمدت إلى تصحيح هذه الأخطاء (عاد للجامعة رئيسها عوضاً عن المدير، ونائب الرئيس ونائب العميد عوضاً عن وكيل الجامعة ووكيل الكلية، ونائب الوزير عوضاً عن وكيل الوزير، وهلمَّ جرًّا)؛ فإِنَّ اسم المجمع ظل على ما هو عليه، كما وَحَدَّه المصريون قبل أكثر من نصف قرن. وكلنا يعلم كم من مرة أثير فيها هذا الموضوع لدى التساؤل عن دور الأعضاء العلميين في هذا المجمع. ولكن إذا ما وضعنا جانباً كل الجدل، الذي يحدث حول هذه التسمية؛ **فإنني أرى أَنَّ واجب الوفاء لمؤسسي هذا المجمع، وأَنَّ وازع الاحترام لرغبتهم في ما اختاروه؛ أَنَّ هذين السببين وحدهما يستوجبان النظر جديًّا في إعادة الأمر إلى نصابه. إِنَّ حصافة فكر إدارة المجمع وأعضائه قمينةٌ بإحداث هذا التصحيح. وسيجد الزملاء المختصون باللغة العربية أَنَّ دورهم الحاسم في تطوير اللغة**

العربية محوريٌ، وأنَّ معارفهم الأصيلة في اللغة العربية ستشكل حجر الزاوية في سيرورة هذا التطوير، وأَنَّ لرأيهم السديد الصدارة في توجيه زملائهم العلميين إلى المصطلح العلمي الدقيق والسليم.

Numquam aliud natura، aliud sapientia dicit.

L. Marcus Aurelius Antoninus

Augustus (121-180)، Meditation، VII، 11.

لا تقول الطبيعة أبداً شيئاً، وتقول الحكمة شيئاً آخر

(الاتحاد بالطبيعة، والإذعان لقوانينها، وتمجيد سيروراتها أركان أساسية في الفلسفة الرواقية).

(ماركوس أوريليوس أنتونينوس أُوغستوس) (121-180)، التأملات، VII، 11. آخر الأباطرة الرومان الخمسة الأخيار، وأحد مفكري الفلسفة الرواقية(*).

(*) [الرواقية Stoicism (من اللاتينية stoicus من اليونانية stöikos (من Stoa) الرواق portico الملون الشهير في (أثينة) Painted Portico حيث كان يُعَلِّم (زينو) Zeno): الرواقية إذن مدرسة فلسفية، أسسها (زينو السيشومي) Zeno of Citium (335-263 قبل الميلاد). **وترى هذه المدرسة أَنَّ الإنسان الحكيم يجب أن يكون متحرراً من الانفعالات العاطفية، لا يتأثر بالفرح أو بالحزن، ينصاع لقوانين الطبيعة، ويندمج بها، ويمجد سيروراتها.**

كما تعتقد هذه المدرسة أَنَّ عدم الحكمة وارتكاب الخطأ يستجران الانفعالات المُدَمِّرة. وأَنَّ الحكمة والفضيلة يميزان الإنسان ذا الأخلاق الفاضلة والذكاء الحاد. لذا؛ فإنَّ هذا الإنسان لا يمكن أن يغدو فريسة لهذه الانفعالات. ويُعَدُّ (لوكيوس أَنَّايوس سِنيكا) Lucius Annaeus Seneca (4 قبل الميلاد– 65) من أكثر فلاسفة هذه المدرسة شهرة. لقد أكد (سِنيكا) أَنَّ الفضيلة بمفردها –إذا امتلكها الإنسان– تجعله سعيداً. فالرجل الحكيم الفاضل عَصيٌّ على سوء الطالع. ورأس الحكمة التماس المعرفة. ويصبح الإنسان حكيماً فقط عندما يكبح جماحَ عواطفه، ويتحرر من انفعالاته.

و(**التأملات**) هي مجموعة مقالات إرشادية، تقع في 12 كتاباً، وجهها (ماركوس أُوريليوس) إلى نفسه؛ كدليل للذات، **كي يتبعها ليبلغ أعلى درجات الفلسفة الرواقية**. =

❊ ❊ ❊

= وكتب معظمها في دارته بـ (سيريوم) Sirium، قرب (رومة)، حيث كان يخلو بنفسه ليضع خطط حملاته العسكرية. ولقد قضى هذا الإمبراطور الصالح خنقاً بيديَّ ابنه (كومودوس) Commodos، لأَنَّ والده أبلغه بأَنه لن يكون خليفة له لأَنه غير قادر على القضاء على فساد ساسة (رومة)، ومؤامرات أعضاء مجلس شيوخها؛ ولن يستطيع إقامة ديمقراطية حقيقية تعيد إلى الشعب حقوقه. ولكي يبلغ ذلك؛ فإِنَّه سيسمي لخلافته قائد جيوشه (ماكسيموس دِسيموس مِريديوس) Maximus Decimus Meridius، ذا الأصل الإسباني، والذي أنهى حرباً مع القبائل الجرمانية، استمرت قرابة اثني عشر عاماً، بانتصاره عليها في (فِندوبونا) Vindobona في العام 180 ميلادية.

قصةُ نبات العرباني (أرابيدوبسيس) نموذجاً

Arabidopsis thaliana

أ. د. أنور الخطيب(*)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس أعرق مجمع لغة عربية.

الأستاذ الدكتور محمود السيد نائب رئيس المجمع رئيس اللجنة الثقافية.

السادة الزملاء أعضاء المجمع.

السيدات والسادة الحضور.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في شارع عبد المنعم رياض وفي منطقة المالكي يقع مركزُ أعرق مجامع اللغة العربية وأقدمها، تشيع في هذا الشارع تسميات لا عهد للعربية بها: (لافايت)، (إن هاوس كافي)، (كافيه دي روما)، (بترفلاي)... وغيرُ ذلك كثير!

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور أنور الخطيب هذه المحاضرة بتاريخ ٢٥/ ٦/ ٢٠١٤م.

أفلا يحق لمجمعيٍّ مثلي أن يطرح تسمية ثقيلة على اللسان العربي قديمه وحديثه، وفصيحه ومحكيه، بهدف تَعَرُّف تلك التسمية، وكشف أسرارها، أيًّا كانت طريقة لفظها أو كتابتها.

شاكراً لمجلس المجمع ورئاسته أن تكون محاضرتي في رحابه بعنوان غامض التسمية: «قصة نبات أنموذج: أرابيدوبسيس تاليانا».

هذه التسمية الثقيلة على مسمعكم، والثقيلة أيضاً على مسمعي، لا بد أن تألفوها بعد الحديث عنها، وهذه النبتة منا وفينا، عربية بنت عربي، مستعربة بنت مستعرب، وغربية بنت غربي، وعالمية بنت عالمي، عاشت في جبالنا، وفي بوادينا، و انتشرت في رقع كثيرة من العالم، فاستقبلها الغرب فاتحاً صدره لها، والعرب اليوم حائرون في وضعها أهي: فصيحة أم دخيلة أم مولدة أم مشتقة؟

إن مرارة الجهل أشد علقمة من مرارة عجمة اللفظ، فتمكين اللغة من تمكين أبنائها، ونهوضها من نهوضهم، وسعة آفاقها من سعة آفاقهم. تهدف هذه المحاضرة إلى إذكاء الفكر التساؤلي وإيقاظ الفكر الثقافي العربي من غفوته.

يتردد كثيراً في المحافلِ العلميةِ اسمُ نباتٍ معروف بـ: أرابيدوبسيس تاليانا **Arabidopsis thaliana** فما هو هذا النبات، ولماذا اخْتِيرَ في مخابرِ علوم التِّقانةِ البيولوجية، وهو الذي لم يدخلِ اسْمُه بعدُ في سجلاتِ الهيئةِ العامةِ للتِّقانةِ الحيويةِ السورية ؟

الموجز:

الأرابيدوبسيس التاليـاني نباتٌ زهريٌّ صغير، حوليٌّ قصيرُ الأجل (ايفيميروفيت)، ينجزُ دورةَ حياتهِ في مدةٍ قصيرةٍ لا تتجاوزُ ستةَ أسابيع. انطلقتْ شعبيتُهُ من صِغَرِ مُكَوِّنِهِ الجينومي.

يُمَثِّلُ الأرابيدوبسيس التاليـاني أفضلَ نباتٍ أنموذجٍ لاختبارِ تَسلسلِ

الجينوم، مكوناً وسيلةً ميسرةً لفهمِ حركيةِ الجزيئات، الممثِّلة للبيولوجيا الجزيئية أو (موليكولر بيولوجي) المستعملة في دراسةِ: تِقْنياتِ تَكَوُّنِ الأعضاء (أُورغانوجينيز)، وتَكَوُّنِ المجموعِ الوَبَرِيّ (تريكوموجينيز)، وتكوينِ الخلايا الناشرةِ للضوء، والوراثةِ غيرِ المَنْدلية، وتفاعلاتِ النباتِ مع العواملِ المَرَضِيَّةِ، والانقسامِ المُنَصِّف (ميوز)، وحالةِ ذاتيةِ الإلقاح (أوتوغامي)، وتعاقبِ الأجيالِ وتقانةِ السوائلِ الدقيقةِ (ميكروفلويد **microfluidic technology**) التي ظهرتْ في بدايةِ عام١٩٨٠.

أولاً: سِيرةُ جَمْعِ النبات وتسميته العلمية:

١- جَمَع هذا النباتَ في القرنِ السادسَ عَشَر، عامَ ١٥٧٧ من جبالِ هارز في ألمانيا طبيبٌ ألمانيّ (يوهانس تال) (١٥٤٢-١٥٨٣ من نوردهاوزن، تورينغين، ألمانيا، وهو الذي سمّاه: وبيرية سلكية (بيلّوزيلا سيليكوزا **Pilosella siliquosa**).

٢- وفي القرنِ الثامنَ عَشَر، عامَ ١٧٥٣ دَرَسَهُ (كارل لينيوس) ووضَعَهُ في جنسٍ جديدٍ سمّاه عربي (أرابيس) لافتاً نظرَ الغربِ إلى مكانةِ العربِ في ذلكَ التاريخ، وسمّاه (أرابيس تاليانا **Arabis thaliana**) تكريماً لـ(تال).

٣- في القرنِ التاسعَ عَشَر، عامَ ١٨٤٢ درسَهُ (غوستاف هينهولد) ونَقَلهُ إلى جنس (أرابيدوبسيس **Arabidopsis**) الذي وضعه (دو كاندول) وسمَّاهُ أرابيدوبسيس تاليانا (دوكاندول) (هينهولد **Heynhold** غوستاف).

٤- في القرنِ العشرين، في ربيعِ عامِ ١٩٥١، في جولة نباتية في جبلِ العربِ بإشرافِ أستاذنا الفرنسي (هنري بابو)، الذي غَرَسَ في نفسي حُبَّ نباتِ الوطن، جَمَعتُ عَيِّناتٍ من هذا النبات، وحفظْتُها في مَعْشَبي في كلية العلوم بجامعة دمشق. وهذه العينات مهملةٌ في الوقتِ الحاضر.

ثانياً: التسميات المتناقلة في اللغات الأجنبية:

من أسمائِهِ المتناقلةِ عن الإنكليزية: رشادُ أُذُنِ الفأر **Mousse-eared cress**، ورشاد الصخور **Rock cress**، وجَرجيرُ أذنِ الفأر. ومن أسمائه المتناقلة عن الفرنسية: عُشْبةُ المروج، وعَرَبَة الراهبات **arabette des dames**. وجرجيرُ تال.

ثالثاً: التسمية العلمية العربية:

تقضي الموضوعيةُ العلميةُ العربيةُ والتأثيلُ اللغويُّ السليمُ أن يُعَرَّبَ اسمُ الجنسِ العَلَمُ بتحويلِ الكلمةِ الأجنبيةِ إلى كلمةٍ عربيةٍ دونَ اللجوءِ إلى ترجمتِها. كما قال العرب: ياسمين وياسمون مُعَرَّبةً من جاسمينوم، ويَنْسُون، ويانسون، وأنيسون مُعَرَّبة من أنيسوم. ونحن نقول اليوم: أرابيدوبسيس، أو عربيدوبسيس، أو عِرباس كِدرباس، أو عَربوس كعرنوس، أو عُرْبس كتُرمس. وهنا نُدْخلِ في العربيةِ مفهوماً جديداً لم تتعود استعماله. يا لَقُوةِ هذه العربية في التعريب، ويا لَرَحابةِ صدرِها لكلِّ مفهومٍ غريبٍ جديد، وجَعْلِهِ في صُلْبِ أوزانِها وتكوينِها، وهذا ما لم يَقْبلهُ مجمعُ القاهرة، ولا مجمعُ دمشقَ أعرقُ المجامعِ العلميةِ العربية، مفضِّلِيْن الترجمةَ على التعريبِ في أسماءِ الأجناسِ النباتية!

ويقضي الخضوعُ لقراراتِ مجامعِ اللغةِ العربيةِ بترجمةِ تسميةِ الجنسِ فنقول: مستعرب، أو عربيني، ويعربي، وعارب، وعرباني، وأعرابي، ويعربيُّ المَظهر، ورشاد أذن الفأر **Mousse-eared cress**، ورشاد الصخور **Rock cress** عن الإنكليزية، وعُشبةُ المروج، أو عشبةُ الراهبات **arabette des dames** عن الفرنسية، ورشاد عربي من بينِ التسمياتِ التي يُعرف بها هذا النباتُ في لغاتٍ أخرى. إن كلَّ هذه المُسَمَّياتِ لم تُقدمْ للعقلِ العربيِّ أيةَ فكرةٍ جديدة، بل استعملت كلماتٍ شائعةً وضعتها في قالَبٍ جديد.

وهنا أتركُ الأمرَ للجنةِ ألفاظِ الحضارةِ في مجامعِ اللغةِ العربية لِتَضَعَ التسميةَ المناسبةَ التي تُبعدُ اللغةَ العربيةَ عن الزلل!

لقد أصبحت التسمية العالمية الموحَّدة، فِرَقاً وشِيَعاً وطَوائفَ عندما تُرجمت ترجمةً ولم تُعرَّب، ولكن هذا المجمع، والمجامع العربية الأخرى، مُلْكٌ عامٌّ للعالَمِ العربيِّ وتاريخِه، وللأمةِ الإسلاميةِ وصفائِها واعتدالِها، وليس مُلْكاً خاصاً للأساتذةِ والدكاترةِ القائمينَ عليها.

ففي أمريكة وحْدَها التي تتحكَّم في سياساتِ الدولِ العربيةِ يُطرح في العام الواحد نَحْوُ خمسينَ ألفِ (٥٠ ألف) كلمةٍ جديدةٍ، فلماذا يخاف بعض العِلميين من فهم المستجد العالمي وتعريبِه بدلَ ترجمته؟ فهنالك فرق كبير بين التعريب والترجمة لا يدركه كثيرون!

إن رائدي في هذهِ المحاضرةِ الحكمةَ القائلة: فَكِّرْ عالميّاً واعْمَلْ مَحَليًّا، وحُبُّ العربيةِ فوق كل حُبّ، فليس لديَّ لسان آخر يُفصح عما في نفسي أفصح منها، ولو تعلمتُ جميعَ لغاتِ العالم.

رابعاً: تاريخُ استعمالِ الأرابيدوبسيس تاليانا كنبات نموذج:

بدأ علماءُ النباتِ جمعَ طفراتِ هذا النوعِ من جميعِ أنحاء العالم في وقت مُبَكِّر لاستعمالها في دراسات الوراثة والتعضّي وأثرِ البيئةِ، وذلكَ لِدعمِ التجاربِ التي كانت قائمةً على الفئران و ذبابةِ الخَلِّ في العالَمِ الحيواني.

ففي عام ١٨٧٣ وَصَفَ (ألكسندر براون) وجودَ أزهارٍ ثنائيةِ النمطِ الظاهري ناتجةٍ عن تلقيحٍ ذاتي.

وفي عامِ ١٩٠٧ اقتُرِح نبات الأرابيدوبسيس نباتاً نموذجاً.

وفي عامِ ١٩٤٥ نُشِرَتْ أطروحةٌ مُحدِّدةٌ للطفراتِ الناتجةِ عن تأثيرِ الأشعةِ السينية.

وفي عامِ ١٩٥٠اعتُمِدَ نباتُ الأرابيدوبسيس كائناً مفيداً في التجارب المخبرية.

وفي عامِ ١٩٦٥ عُقِدَ المؤتمرُ الدوليُّ الأولُ لنباتِ الأرابيدوبسيس في غوتنغن، ألمانيا.

وفي عام ألفٍ وتسعمئةٍ وثمانين ١٩٨٠ أصبح يُستعمل على نطاقٍ واسعٍ في مختبراتِ البحوثِ النباتيةِ في جميعِ أنحاءِ العالم، وكان واحداً من عدة نباتاتٍ مرشحةٍ لدراسة التقانة البيولوجية شملت الذّرة، البيتونيَة، والتبغ.

وفي عامِ ١٩٨٦ أصبحَ النموذجَ المفَضَّل على جميع النباتات والحيواناتِ في التجارب البيولوجية.

خامساً: القيمةُ البيولوجيةُ للأرابيدوبسيس تاليانا:

حجمٌ صغيرٌ وفعلٌ كبير: لقد أدْخَلَ هذا النباتُ الصغيرُ العلومَ البيولوجيةَ في عصورٍ رَحبةٍ واسعة ممثلة بـ: عصرِ علومِ تكوينِ الجينوم، وعصرِ علومِ تكوينِ البروتين، وعصرِ علومِ فهمِ طرائقِ عملياتِ الاستقلاب.

إن معرفةَ التركيبِ الكيميائي للمكوناتِ الوراثيةِ النباتية، بوجهٍ عام، أهمُّ مِن معرفةِ التركيبِ الكيميائي للمكوناتِ الوراثيةِ الإنسانية، وذلك لأنَّ النباتَ أساسُ بناءِ النظامِ البيئي في العالمِ أجمع. إن اكتشافَ طرائقِ التكوينِ الكيميائيِّ النباتيِّ ترتدُّ على نُظُمِ طعامِ الإنسانِ وكِسائِه ودِفْئِه، وتكوينِ الأصبغةِ والعطورِ والأدويةِ التي يحتاجها وغيرِ ذلك...

يقدَّر عددُ النباتاتِ المعروفةِ في العالم بقُرابةِ (٤٥٠) ألف نوع، ويعدُّ الأرابيدوبسيس التالياني مَرجعاً لكل الأنواع الأخرى، فهو الأنسبُ لبحوثِ الهندسةِ الوراثيةِ التي أَدخلتْهُ التاريخ - كما دخلتِ العربيةُ التاريخَ بسعةِ آفاق قرآنها الكريم - للأمور التالية:

١- بلغَ عددُ المواضيعِ التي نُشرتْ حولَ الأرابيدوبسيس تاليانا حتى عام ألفين (٢٠٠٠) نَحو سبعمئةٍ وألفِ (١٧٠٠) موضوعٍ فقط. وبلغَ عددُ الصورِ الفوتوغرافيةِ التي سجلتها البحوثُ العلميةُ نحوَ (٢٦٥٠٠) صورة. وقد أُقيمَ لهذا النباتِ (٢٦) مؤتمراً أولها عُقد عامَ (١٩٥٦) (حيث كان زميلنا الدكتور مصطفى حداد، رحمه الله، في باريس وفي جامعة السوربون وبإشراف أستاذه (بلانتفول)، يدرسُ تشريحيًّا تَشَكُّلَ أزهارِ نباتِ الكبر الشوكي (كباريس سبينوزا). وآخرها عُقد في جامعة (مادسون وسْكُونْسِن) **Madison University Wisconsin**- في حَزِيران ألفين وخمسة (٢٠٠٥). كما عُقدت له ندوةٌ خاصةٌ في (أوستن) **Austin** تكساس في حَزِيران عامَ ألفين وخمسة (٢٠٠٥) أيضاً، فضلاً على المواقع الخاصة بهذا النبات على الشابكة (إنترنت).

٢- اعتماداً على المعلومات التي قدَّمها، والتي سَيُقدّمها هذا النبات، سيصبحُ في إمكانِ الباحثينَ إنتاجُ محاصيلَ معدَّلةِ التكوينِ الوراثي أكبر إنتاجية، وألذَّ طعماً، وأَشَدَّ مقاومةً للجفافِ والأمراضِ والحشراتِ، لا بل أكثرَ مقاومةً للتغيراتِ المناخية.

٣- سيوضح هذا النباتُ الأسسَ التكوينية للنباتاتِ المعدَّلةِ وراثيًّا.

٤- يوجد مئةُ (١٠٠) جينةٍ أو مكونةٍ نباتيةٍ مرتبطةٍ بأمراضٍ جينيةٍ إنسانية مثل: الصممِ الوراثي، والعمى الوراثي، والسرطاناتِ وغير ذلك....

٥- يتحكّم عالَم النباتِ في أمراضِ سُوءِ التغذية، ويُفيد في صحةِ الإنسان، وذلك لاحتواءِ النباتاتِ الزهريةِ عامةً ما يتجاوزُ مئةَ ألفِ مادةٍ تُستعمل في الأدويةِ التي لا توجد في العالَمِ الحيواني.

٦- لقد اكتُشِفَ وجودُ جينةٍ قادرةٍ على صناعةِ جزيئاتٍ وحيدةِ القَسيمة (مونومير) من أصولِ محاصيلَ نباتيةٍ، وتحويلُها إلى جزيئاتٍ عديدةِ

القَسيمات (بوليميرات) وبهذه الطريقة يمكن الحصولُ على موادَّ بلاستيكيةٍ عاليةِ الجُودة، يمكن استعمالُها في صماماتِ القلبِ وغير ذلك، كصناعةِ السَّجَادِ انطلاقاً من ثُنائي أكسيدِ الكربونِ وضوءِ الشمس والماء.

٧- كما أمكن الحُصول على ضروبٍ من الأرابيدوبسيس قادرةٍ على صنعِ أصبغةِ الأنتوسيانِ الأحمرِ الكاشفِ للموادِّ المنبعثةِ من زراعةِ الألغام خلال (٣-٥) أسابيع من زراعتها.

٨- وقد صرّحَتْ وكالةُ الفضاءِ والطيرانِ الأمريكية، أن المكتَشِفَ الحيَّ الأولَ للمريخ، سيكونُ كائناً هجيناً بين الأرابيدوبسيس وقنديلِ البحرِ من نوعِ ايكوريا فيكتوريا **Aequorea Victoria**.

٩- يضمُّ هذا النباتُ أقصرَ جينومِ نباتٍ ترابيٍّ زهري يَعُدُّ قُرابةَ (١٣٥ , ٠٠٠ , ٠٠٠) زوجٍ من الأسسِ الوراثيةِ الموزعةِ على خمسةِ أزواجٍ من الصبغيات ٢ن = ١٠ مستعملة في التجارب البيولوجية الجزيئية، وفي مجالِ التعضي النباتي، وفي طرائقِ تَكَوُّنِ المجموعِ الوبري (تريكوم) الوحيد الخليةِ في هذا النبات. على حين يَعُدُّ جينوم الذرة (٢ , ٥) مليار زوج من الأسس، وهذا قريب من جينوم الإنسان).

١٠- إنّ صِغَر أبعادِ هذا النباتِ وسهولةَ زراعتِهِ مكَّناه من النمو في أحيازٍ صغيرةِ الأبعاد، كثيرةِ العدد.

١١- وقِصَرَ دورةِ حياتِه (ستةُ أسابيع)، وإزهارَهُ بعد ثلاثةِ أسابيع من زرعِ البذور، وكثرةَ بذوره، (تعطي الثمرة السلكية الواحدة من ٢٠ إلى ٣٠ بذرة) جعلتْهُ رائدَ التجاربِ المَخبرية.

١٢- وقابليةَ زراعتِهِ في المحاليلِ المغذيةِ وفي أطباقِ (بِتْري) مَتَّعتهُ بمرونةٍ كبرى.

١٣- وقدرتَهُ على الانتشارِ الجغرافي أوصلتْ بذورَه إلى أستراليا وبلفاست (إيرلندة).

١٤- وذاتيةَ إلقاحه مكَّنتْهُ من المحافظةِ على ثباتِ تكوينِهِ الوراثي، فقد استُعمل نموذجاً في الوراثةِ وتكوين الأجنةِ والتقانةِ الحيويةِ النباتية وعدم الحاجة إلى نباتات مجاورة لتلقيحه.

١٥- وسهولةَ التحويرِ الوراثي باستعمالِ أغروباكتيريوم تومیفاسیانس **Agrobacterium tumefaciens** مكَّنتْه من السرطنة.

١٦- إن توفرَ سلالاتِ طفراتٍ لمختلفِ جينات النبات هو مما يسهِّلُ دراسةَ وظائفِ تلك الجينات وتأثيرَ الطفرات فيها.

١٧- فضلاً على ذلك، يُعدُّ هذا النبات شبيهاً بالمحاصيلِ الزراعيةِ المزروعة (كالذرة والقمح..) من حيثُ درجةُ التعقيد وتَشَابُكُ العملياتِ الحيويةِ، مما يجعله نموذجاً مفيداً ومناسباً للأغراضِ البحثيةِ التي يمكن تطبيقها أو إسقاطها على النباتات الزراعية فيما بعد.

١٨- لقد كَشَفت دراساتُ الهندسةِ الوراثيةِ تَوزُّعَ عملِ هذ الجينوم وَفْقَ المخططِ التالي:

١ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم استقلاب الرنا والدنا.

٢ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم إشاراتِ عملياتِ النقل.

٢ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عملياتِ التحولِ من مرحلةٍ إلى مرحلة.

٣ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات التعضّي، أي تَكَوُّنِ الأعضاءِ أو التشكُّل.

٣ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم تقديمِ الطاقةِ لمرورِ الأغذيةِ عبرَ الأغشيةِ الخَلَوية.

٤ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات النقل.

٤ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات النسخ.

٤ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات الاستجابة لأثر الوسط.

٧ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات استقلاب البروتينات.

١١ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات المسارات البيولوجية الأخرى.

١٧٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات المسارات الخلوية الأخرى.

١٨ ٪ من هذا الجينوم ينظِّم عمليات المسارات الاستقلابية الأخرى.

٢٤ ٪ من هذا الجينوم ما زالت في طور الدراسة.

أخذت هذه المعطيات عام ألفين وسبعة (٢٠٠٧) من مركز الإعلام الأرابيدوبسي (**TAIR** تي أي آي آر).

سادساً: بعض نماذج البحوث حول الأرابيدوبسيس التاليانـي:

١- تكوين بروتينات الصدمة الحرارية في النبات: تتعرض النباتاتُ لدرجاتِ حرارةٍ مرتفعة، تؤدى إلى نقصٍ في بناءِ البروتيناتِ الطبيعية التي تُعوَّض ببروتيناتٍ جديدةٍ تُعرف باسم بروتينات الصدمة الحرارية (**Heat shock protein (HSP**). يجري بناء هذا البروتين عندَ تعرضُّ النبات لدرجة حرارة أعلى من الحدِ الأمثلِ لبناءِ البروتينات الطبيعية بنحو (٥ مْ). وهناك العديد من بروتينات الصدمة الحرارية التي اكتُشفت في النبات، ومن أمثلتها : بروتين في الأرابيدوبسيس تاليانا **Arabidopsis taliana**، وبروتين نبات فول الصويا **Glycine max** ونبات البرسوبس الشيلي **Prosopis chilensis** وبروتين نبات الرتم **Retama raetam**.

٢- التسامحُ مع الملوحة العالية: يتأثرُ نموُّ النباتِ وإنتاجيته إلى حدٍّ بعيد، بزيادةِ ملوحِة الوسط، المؤديةِ إلى دخولِ أيوناتِ الصوديوم السامّةِ إلى

الفجوةِ داخل الخلايا. لقد تمكَّن الضربُ المسمى أرابيدوبسيس تاليانا كولومبيا **A. thaliana var.columbia** المعالَجُ بتركيز (٤٠٠) ملي مول كلوريد الصوديوم في ٤ إلى ٥ ساعات تمكَّن من تحمُّل ارتفاع درجة الملوحة ثم عُزِلَ الحمضُ النووي الريبي المختص بتحمُّلِ الملوحة.

٣- مقاومةُ الأمراض: في مختبرِ المعهدِ الهندي لتكنولوجيا الموارِدِ الحيويةِ في الهيملايا (**IHBT**) ، يجري إدخالُ تعديلٍ وراثي على الأرابيدوبسيس تاليانا المزروعةِ في المختبر، بعد غمرها بخليطٍ من البكتيريا وجينٍ محدَّدٍ له خاصيةُ مقاومةِ الجفافِ مدةَ سبعِ دقائقَ كافيةٍ لاكتسابِ النباتِ الصفاتِ التكوينيةَ الجينيةَ الوراثية التي يحملها ذلك الجين. إلا أن النتائج الفعلية ستظهرُ عندَ نموِّ الجيلِ الجديدِ من تلك النباتات.

٤- تَعَضٍّ زَهري: أدت ملاحظاتُ طفراتِ التّعضّي الزهري إلى تقسيمِ الجيناتِ المكونةِ للأزهارِ إلى ثلاثِ فئات: فئةِ **A** الجيناتِ التي تُكوِّن السَّبلاتِ والبتلاتِ، فئةِ **B** الجيناتِ التي تُكوِّن البتلات والأسْدية، والجيناتِ فئةِ **C** التي تؤثرُ في تكوُّنِ الأسْدية والكَرابل. وهذا النموذجُ ينطبقُ عموماً على غيرِها من النباتات الزهرية .

٥- الانتحاءُ الضوئي: وقد استُعمل نباتُ الأرابيدوبسيس في تنظيم إيقاعات الساعة البيولوجية وحركة الصانعات اليخضورية وفَتْح المَسامّ والأثر السلبي للأشعة الضوئية الزرقاء والبيضاء في الجذور والإيجابي للأشعة الحمراء.

٦- إصدارُ نورٍ خافت: إيجاد طفراتٍ مُصْدرةٍ، عند اللمسِّ في الظلام، لضوءٍ خفيفٍ تسجله آلات تصوير دقيقة.

٧- التلقيح الذاتي: يَغلِبُ على النبات التلقيحُ الذاتي المُمَثل بالإلقاح المغلق **cleistogamy** وضَعْفُ الهجونة بمعدل أقل من (٠.٣٪). لقد تميز التلقيح الذاتي منذ نحو مليون سنة أو أكثر، ومن غيرِ المرجَّحِ أن يؤديَ التنصيفُ (ميوز**Meioses**) إلى نموذجٍ من الهجن، ولكنه يقوم بإصلاح الخلايا العرسية في كل جيل.

٨- يجري تنفيذ البحوث على نبات الأرابيدوبسيس تاليانا في محطة الفضاء الدولية من قبل وكالة الفضاء الأوربية. الأهداف هي دراسةُ نموِّ وتكاثرِ النباتاتِ من البذور إلى البذور في الجاذبية الصغرى.

٩- حملة النبات المتوهج: في السابع من حَزِيرانَ الماضي انتهت حَملةُ النباتِ المتوهجِ الهادفةُ إلى تحويرِ نبات الأرابيدوبسيس لِيُشِعّ ضوءاً خافتاً بين اللونين الأخضر والأزرق، عن طريق تزويدِه بجيناتٍ مستمدةٍ من اليراع. ويمكن للمشتركِ أن يَحصُلَ على بذور يزرعها حيث يشاء. منطقة المشروع خليج سان فرانسيسكو بكاليفورنيا.

برنامج: بيولوجيا افعلْهُ بنفسك **Do-it- yourself biology**

سابعاً: مراكز تقديم المعلومات عن الأرابيدوبسيس التاليانا:

١. **The European Arabidopsis Stock Centre**

٢. **The Arabidopsis Information Resource (TAIR)**

٣. **The Arabidopsis Book - comprehensive electronic book**

٤. **Salk Institute Genomic Analysis Laboratory**

٥. **What Makes Plants Grow? The Arabidopsis genome knows**

Featured article in Genome News Network

٦. Multigen at NASA.gov
٧. A. thaliana protein abundance
٨. ABRC arabiopsis biological resource
٩. curator@arabidopsis.org
١٠. NASC The European Arabidopsis Stock Centre

ثامناً: الخلاصة المستمدة من هذه الدراسة:

إذا كانت حكمة سقراط الخالدة «اِعْرِفْ نَفْسَك» موجهةً للفرد، فالمجمع والمجتمع أولى بأن يعرف نفسه.

لن أتحدث عن المجتمع خارج اختصاصي، ولكن من حقي أن أتحدث عن المجمع ودوره الحضاري، لا في لجنة ألفاظ الحضارة بل في مسيرة الحضارة الإنسانية.

قد يرى البعضُ في تقدم العلومِ البيولوجية التجريبية الغربية معجزةً عالمية، مستسلماً لمعطيات العولمة المُرَسِّخَةِ لوحدانية الثقافة والمُستبعِدَة لِقِيَمِ الثقافاتِ الأخرى! ولكن على مثل هذه الرؤى ألّا تحجب عنا الروعة التجريدية الرائعة للفكر الإنساني، وعلى المجامع العربية أن ترسمَ بوضوحٍ الخطوطَ العريضةَ لمعالِمِ الهُوية العربية، وأن تزِنَ الغربَ بميزان قِيَمِها الممثَّلة بالتغيرية والثبات.

فالتغيرية الرائعة للأرابيدوبسيس يصحبها ثبات إلقاح ذاتي رسخته ملايين السنين. إن القيم الغربية الذرائعية مع كل ديمقرطياتها ليست أفضل من القيم الروحية المقدسة الشرقية.

إن الغرب لا يمكنه التخلي عن ذرائعيتِه وطمعِه! ولا يمكن للشرقِ أن

يتخلى عن روحانياته وإلهامِ إنسانِهِ، والويلُ كلُّ الويلِ لمن لا يفهم فِقهَ الطريقة الشرقية وفقه الطريقة الغربية.

لن نستطيع النهوض بتقليد الغرب، فمن يتبع أحداً لا يتقدم أبداً، علينا ألّا نفقد التوازن في مشيتنا بتقليد غيرنا.

* * *

أنباءٌ مجمعيةٌ وثقافية

من قرارات مجلس المجمع
في الألفاظ والأساليب(*)

(٨٧)

الاسترخاء

١-المسألة:

يخطِّئ بعضهم استعمال كلمة (الاسترخاء) بمعنى الدعة والراحة وعدم التوتر.

٢-الاقتراح:

جواز قولهم (الاسترخاء) بمعنى الدعة والراحة.

٣-التعليل:

جاء في أساس البلاغة: «استرخى به الأمر، واسترخت به حاله: سهلت وحسنت بعد الضيق والشدة». ومن ذلك قولهم: الاسترخاء العسكري، وذلك في حالة الأمن، أما المعنى الآخر فيأتي من الرخاوة. فالرِّخو: الهشُّ من كل شيء، وفعل الاسترخاء استرخى، ومنه: استرخاء الشَّعر بمعنى

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممَّن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

إرساله. ويأتي معنى عدم الدقة من معنى الهشاشة نقلاً للفظ من معناه المادي إلى معنى مجازي.

وقد ذكر العلايلي في (المرجع) معاني الاسترخاء على هذا النحو:

- الاسترخاء: صيرورة الشيء هشاً أو ليناً.
- الاسترخاء: التهدل.
- الاسترخاء: إنقاص التوتر والشَّد.
- الاسترخاء: إلانة العضلات تدريجياً صَرفاً لآثار الاضطرابات الانفعالية.

وما تقدَّم يدل على صحة استعمالهم (الاسترخاء) بمعناها المادي والمعنوي.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «الاسترخاء» بمعنى الدعة والراحة وعدم التوتر.

* * *

(٨٨)

أرصدَ ورصَدَ ورصيد

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر الفعل (رصد) بمعنى أعدَّ وخصَّص في نحو قولهم: «رصدَ مالاً للمشروع» ويخطِّئه بعضهم لأن ما أوردته المعاجم لهذه الدلالة هو (أرصدَ) على بناء (أفعل).

كما يخطِّئ بعضهم كلمة (الرصيد) بمعنى المال المعد والمحفوظ، لأنه ليس لهذه الكلمة هذه الدلالة في المعاجم القديمة.

٢-الاقتراح:

جواز قولهم: «رصدَ مالاً» ونحوه بمعنى أعدَّه وخصَّصه لأمر ما، وجواز قولهم: «الرصيد» بمعنى الثروة المعدَّة والمحفوظة.

٣-التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «الإرصاد: الإعداد. رصدتُ فلاناً أرصُده إذا تَرَقَّبْتُهُ. وأرصدتُ له شيئاً أُرصِدُه: أعددت له. وجعله رصَداً أي حافظاً».
- أساس البلاغة: «أرصدت الجيش للقتال: أعددته».
- الوسيط: «رصَدَه: رقبَه. أرصد الحساب: أظهرَه وأحضره. الرصيد: الراصد. والرصيد: ما يبقى للمودع في المصرف من حسابه الجاري (محدثة)».

ويفهم من هذا أن الفعل (أرصد) على بناء (أفعل) هو الدال على الإعداد والتهيئة.

كما يفهم أن (الرَّصَد) تعني الحافظ كما في اللسان، وعليه فالفعل (رصد) يعني (حفِظ).

كما يعلم أن (الرصيد) بمعنى المال الباقي لمودِع في حسابه قد أوردها الوسيط على أنها محدثة.

ب- في الصرف:

استعمل الفعل (أَرْصَدَ) على بناء (أَفْعَل) بمعنى أعدَّ وهيَّأ، ولكن بناء (أفعلَ) قد يأتي في اللغة كثيراً بمعنى (فعلَ) نحو: أشغل المكان وشغلَه، وأجدَّ في الأمر وجدَّ، وأحزنَه الأمر وحزنَه.

ومما قاله سيبويه: « وقد يجيء فعلت وأفعلت فيهما المعنى واحد، إلا أن اللغتين اختلفتا» الكتاب ٢/ ٢٣٦.

وإذا صح (رصَدَ) الثلاثي بمعنى أعدَّ وحفظ، صحت الصفة المشبهة منه (رصيد) بمعنى (مرصود) أي معدّ ومحفوظ، وهو كثير في العربية من مثل (قتيل وجريح وكسير).

ج- في الاستئناس:

- أجازها مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب ٢/ ٥٩.
- أورد الوسيط كلمة (الرصيد) بمعنى المال الباقي في حساب مصرفي لمودِع.
- تكررت كلمتا (رصدَ ورصيد) بمعناهما المعاصر من كتب بعد عصر الاحتجاج مئات المرات وأكثرها في كتب فقه المعاملات.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «رصدَ مالاً» ونحوه بمعنى أعدَّه وخصَّصه لأمر ما، وجواز قولهم: «الرصيد» بمعنى الثروة المعدة والمحفوظة.

* * *

(٨٩)

ارتكنَ

١- المسألة:

يشيع في الكتابة المعاصرة استعمال الفعل (ارتكن) بمعنى اعتمد على الشيء، واستند إليه، في مثل قولهم: «أنا أرتكن عليك في هذا الأمر». ويخطئه بعضهم لأنه لم يرد في المعاجم.

٢-الاقتراح:

جواز قولهم: «ارتكن إلى الشيء وعليه» بمعنى اعتمد عليه واستند إليه، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٣-التعليل: أ- في المعاجم:

- العَين للفراهيدي: ورد في مادة (قعد) ١/ ١٤٣: «وقَعَائد الرمل وقواعده: ما ارتكن بعضه فوق بعض».
- اللسان: «ركَنَ إلى الشيء وركِن يركَن ويركُن رَكْناً ورُكوناً وركانة وركانية أي مال إلى الشيء واطمأن إليه..والرُّكن: الناحية القوية. ورُكن الرجل: قومه وعدده».
- الوسيط: «رَكَنَ إليه رَكْناً ورُكوناً: مال إليه وسكنَ..وركنَ إليه: اعتمد عليه». وورد في مادة (سند): «سند إليه سنوداً: ركن إليه واعتمد. وسندَ إليه استناداً».

ويُعلم من هذا أن بناء (ارتكن) ورد في كلام الخليل أو اللَّيث.

كما يُعلم أن (ركن) وردت في الوسيط بمعنى اعتمد على الشيء، وأن ركن إليه وردت فيه بمعنى استند إليه.

ولمَّا كان بناء (افْتَعل) قد يأتي بمعنى المجرد (فَعَلَ) كما في (احتمل وحمل وسند إليه واستند، وارتوى ورَوي)، فإن هذا يعني أن (ارتكن) تجيء بمعنى ركن إلى الشيء إذا اعتمد عليه.

على أنه يمكن عَدُّ الفعل (ارتكن) بمعنى اتخذ لنفسه رُكناً قوياً، والاتخاذ بعض معاني بناء (افتعل) فكأن الذي ارتكن إلى الشيء قد تقوَّى به.

فإذا كان البناء قد ورد عن القدماء كما في العين للفراهيدي، وإذا صحت الدلالة حقيقة أو مجازاً كما في الوسيط، فلا مانع من تجويزها.

ب- في الاستئناس:

أجازها مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب في الدورة (٧٦) للعام ٢٠١٠م.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «ارتكن إلى الشيء وعليه» بمعنى اعتمد عليه واستند إليه، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

* * *

(٩٠)

أزهار وزهور

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر كلمة (زُهور) جمعاً لـ (زهرة)، ويخطِّئها بعضهم لأن جمع (زهرة) هو (أزهار)، وأن بناء (فُعُول) خاص بالمصدر نحو دخول وخروج.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «زُهور» جمعاً لـ (زهرة).

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «الزهرة: نَور كل نبات، والجمع زَهْر وأزهار وجمع الجمع أزاهير..وقد زَهِر زَهَراً أو زَهَرَ يَزْهَر زَهْراً..والزُّهور: تلألؤ السراج، زَهَرَ السراج يَزْهَر زُهوراً، وزَهَرَت النار زُهوراً: أضاءت».
- التاج: «الزَّهْرَة، ويحرَّك [أي بفتح الهاء]: النبات عن ثعلب. قال ابن

سِيدة: وأراه إنما أراد نَوْرَه، الواحد زهرة مثل تمْر وتمرة..وقد زَهِر كفرحَ زَهَراً وزَهُرَ، والجمع زَهْر وأزهار، وجمع الجمع أزاهير».

- المصباح المنير: جاء في مادة (روض): «الروضة: الموضع المعجِب بالزهور». ولا تعني (الزهور) هنا المصدر لأن مصدر زَهِر هو زَهَرٌ. ثم إن الزهور مصدراً تعني التلألؤ والإضاءة.

وواضحٌ من هذا أن اللسان والتاج جعلا جمع (زهرة) على زهْر وأزهار وجمع الجمع على أزاهير، وإنَّ معجم المصباح المنير قد أورد الزهور جمعاً لـ (زهرة).

ب- في الصرف:

لا يحتِّم ورودُ بناء للمصدر ألّا يأتي عليه بناءُ جمع، بدليل الجموع الكثيرة على (فُعُول) نحو: سقف وسقوف وفأس وفؤوس.

- قد يأتي المصدر والجمع معاً على بناء (فُعُول) نحو: سجود فهي جمع ساجد وهي مصدر (سَجَدَ)، ونحو (رُكُوب) فهي جمع راكب وهي مصدر (ركبَ)، ونحو (جُلُوس) فهي جمع جالس، ومصدر (جلس) وكثير غيرها يصعب حصره.

- ومن نظائر هذا الجمع أي جمع (فَعْلة) على (فُعُول): صخرة وصُخُور، وشَعْفة وشعوف.

- وأيسر ما يقاس عليه هذا الجمع هو تَمْرة وتُمُور، ووَرْدَة ووُرُود، ذلك أن التمرة والزهرة والوردة من حقل دلالي واحد هو النبات وأجزاؤه وعلى بناء واحد هو (فَعْلة).

ج- في الاستئناس:

تكررت كلمة (الزهور) جمعاً لـ (زهرة) في العديد من الكتب ما بعد عصر الاحتجاج، وأهمها:

- عنوان كتاب (بدائع الزهور) لابن إياس (٩٣٠هـ).
- (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب (١/ ١٧٢): «فيما نهصره من أغصان الزهور».
- (البداية والنهاية) لابن كثير ١/ ٤٩: «قال صاحب (اليواقيت) وصاحب (بدائع الزهور) ».
- (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء (١/ ١١١): «صوِّرت فيه الزهور بالجوهر».

فإذا كانت بعض المعاجم أوردت (الزهور) جمعاً لـ (زهرة)، وإذا كان لا يمتنع ورود المصدر والجمع على بناء واحد، وإذا كان للكلمة نظائر قريبة نحو تمْرة وتمْر وتمور، ووردة وورْد وورود، وصخرة وصخْر وصخور، فلا مسوِّغ لرد كلمة (زهور) جمعاً لـ (زهرة).

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «زُهور» جمعاً لـ (زهرة).

* * *

(٩١)

انسجام، مُنسجِم

١- المسألة:

يخطِّئ بعضهم كلمتي (انسجام) و(مُنسجِم).

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «انسجام» و«مُنسجم» بمعنى التوافق والتواؤم بين شيئين أو أكثر.

٣- التعليل:

جاء في لسان العرب: «السَّجْم في اللغة: قَطَران الدمع وسيلانه، يقال: انسجم الماء والدمع، فهو منسجِم، أي انصبَّ وسال». وفي التاج: «انسجم الكلام: انتظم».

وقد جعله المتأخرون من صفة الكلام، وأطلِق على بعض مذاهبهم في الكلام. قال صاحب (الكليات): «الانسجام هو أن يكون الكلام لخلوِّه من العقادة متحدِّراً كتحدُّر الماء المنسجم، لسهولته وعذوبة ألفاظه وعدم تكلُّفه، ليكون له في القلوب موقع، وفي النفوس تأثير».

وقد جرت هذه اللفظة على ألسنة المعاصرين بمعنى التواؤم بين اثنين أو أكثر، يقال: «بينهما انسجام في الرأي»، أي توافق. ولا نرى ما يمنع من قبولها على أنها من باب التطور الدلالي لوجود خيط يربطها بأصل معناها، فكأن العلاقة بين المنسجمين خالية من التعقيد وليس هناك ما يعكر صفوها.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «انسجام» و«مُنسجم» بمعنى التوافق والتواؤم بين شيئين أو أكثر.

* * *

(٩٢)

«أسداهُ الشكرَ»

١ - المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر قولهم: «أسداه الشكرَ على صنيعه» ويخطِّئه بعضهم، والصواب عنده: «أسدى إليه الشكر».

٢ - الاقتراح:

عدم جواز قولهم: «أسداه الشكرَ على صنيعه» ونحوه، والصواب: «أسدى إليه الشكر».

٣ - التعليل: أ- في المعاجم:

- جاء في اللسان: «أسدى وأَولى وأعطى بمعنى، يقال: أسديت إليه معروفاً».
- الوسيط: «أسدى إليه معروفاً: أعطى وأولى».

ب- في الاستئناس:

- خطَّأ محمد علي النجار عبارة: «أسداه الشكر» والصواب عنده: «أسدى إليه الشكر» / محاضرات عن الأخطاء اللغوية الشائعة: ٤٠/ .
- لم ترد عبارتا: «أسداه معروفاً ولا أسداه الشكر» ولا مرة واحدة في كتب عصر الاحتجاج وما بعده.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

عدم جواز قولهم: «أسداه الشكرَ على صنيعه» والصواب: «أسدى إليه الشكر على صنيعه».

* * *

الكتب والمجلات المهداة
إلى مكتبة مجمع اللغة العربية
في الربع الثالث من عام ٢٠١٦م

أ. أنور درويش(*)

أ - الكتب العربية

١- **استكشافات ومقدمة في علم الفلك**: توماس ت.آرني، ترجمة: أحمد محمود الحصري، سعيد محمد الراضي ، تدقيق، خضر الأحمد، موفق دعبول، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٨، (سلسلة الثقافة المميزة؛ ١٥).

٢- **الاهتزازات، الانتشار والانتثار**: ميشيل صطيف؛ ترجمة: طاهر تربدار؛ تقديم: ايف روكار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٧٩.

٣- **برمجة نظام المحاسبة العامة باستخدام access 2000**: الأيهم صالح، علي سليمان، عزيز اسبر،شعاع للنشر والعلوم، حلب، ٢٠٠٢.

٤- **تحقيقات فلسفية**: لودفيك فتغنشتاين؛ ترجمة: عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧.

٥- **الترجمة في الوطن العربي**: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة، أسامة

(*) أمين المكتبة العربية في المجمع.

الخولي، عبد الله القفاري ، محمد مراياتي ....وآخرون ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ٢٠٠٠.

٦- **الترجمة والاصطلاح والتعريب**: إشراف: عبد القادر الفاسي الفهري؛ إعداد: محمد الراضي، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ١٩٩٩.

٧- **التناظر والكون الجميل**: ليون م.ليديرمان، كريستوفر ت.هيل ؛ ترجمة: نضال شمعون، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت، ٢٠٠٩.

٨- **الجينوم البشري وأخلاقياته**: هاني رزق، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧.

٩- **حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي**: ديفيد هارفي، ترجمة: محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٥.

١٠- **دراسات في الترجمة الآلية**: تحرير: عبد الرزاق عبد الوهاب العاني، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٦.

١١- **الذكاء الصناعي**: رؤية جديدة: نيلس.ج. نيلسون؛ ترجمة: أميمة الدكاك، ندى غنيم، بسام الكردي... وآخرون، الجمعية العلمية السورية، دمشق، ٢٠٠٤.

١٢- **الفصول في الحساب الهندي**: أحمد بن إبراهيم الإقليدسي؛ تحقيق، أحمد سعيدان، معهد التراث العلمي العربي ، حلب، ١٩٨٥،ط٢.

١٣- **مؤثرات النظم التعليمية**: جميس جونستون؛ مراجعة: محمد الأحمد الرشيد، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٩٨٦.

١٤- **مفاهيم نظام التشغيل**: بيتربار غليفن وآخرون، ترجمة: نزار الحافظ، أميمة الدكاك... وآخرون، الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية، دمشق، ٢٠٠٥.

١٥- **المنطق والأبستيمولوجيا**: معيار العلم والمعرفة: هاني يحيى نصري، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣، (دراسات فلسفية؛).

١٦- **الميكانيك الكوانتي**: عدنان المحاسب؛ تقديم: مأمون الكناني، جامعة دمشق، دمشق،١٩٦٦.

١٧- **ندوة الجامعة اليوم وآفاق المستقبل**: نعيم اليافي، صالح الياسين، حياة نصر الحجي... وآخرون، جامعة الكويت، مؤسسة التقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٧.

* * *

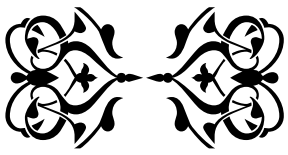

تنضيد وإخراج: عمار البخاري